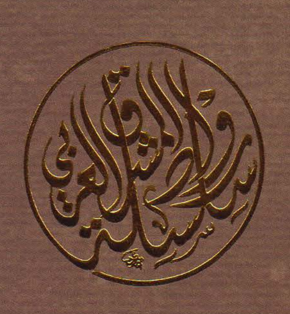


رحلة من حلب إلى القدس

تأليف: هنري موندرل
ترجمة: صفوح الذّهبي
تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

رواد المشرق العربي

رحلة
من حلب إلى القدس
في عيد الفصح من عام 1697 م

للرحالة البريطاني

هنري موندرل

ترجمة

صفوح الذهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS106 .M4512 2012

Maundrell, Henry, 1665-1701.
[Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697]
رحلة من حلب إلى القدس : في عيد الفصح من عام 1697م / للرحالة البريطاني: هنري موندرل ؛ ترجمة: صفوح الذهبي؛ تحرير و تعليق: أحمد إيبش. ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.
ص. ؛ سم.- (رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب : Journey from Aleppo to Jerusalem in 1697
تدمك : 978-9948-17-061-7
1. فلسطين -- وصف ورحلات.. أ. ذهبي، صفوح. ب. إيبش، أحمد. ج.العنوان. د.السلسلة.





دار الكتب الوطنية

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة
من حلب إلى القدس

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «**هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة**» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «**روّاد المشرق العربي**». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

هذا الكتاب

هنري موندرِل (1665-1701 م) أكاديمي بجامعة أوكسفورد، أضحى من رجال الإكليروس في كنيسة إنكلترا. ولد عام 1665 في بلدة كومتون باسيت Compton Bassett بمقاطعة ويلتشاير. درس في كليّة إكستر بأوكسفورد وفي عام 1691 رُسم كاهناً. ثم في عام 1695 وبإيعاز من خاله مدير بنك إنكلترا سير وليَم هيدجز Sir William Hedges، عُيّن كاهناً في معمل تابع لشركة «المشرق» The Levant Company التجاريّة في حلب بشمال سوريا. كان موندرِل في الثلاثين من عمره عندما انطلق إلى حلب عام 1695، وكان قد أمضى القسم الأكبر من حياته اليافعة إلى تلك المرحلة في بيئة أكاديميّة أو دينيّة.

كانت الجاليةَ في حلب مجموعة صغيرة فقط مؤلفة من أربعين شاباً أعزب لديهم اتصال قليل بالعالم الخارجي، وكانوا يعيشون تقريباً في عزلة، كتب إلى زميله في جامعة أكسفورد: «كانت سعادتنا تكمن في أنفسنا، وبوجود أربعين منا هنا، لم تنقصنا أبداً المحادثات الودّية واللطيفة. إن طريقتنا في الحياة تشبه نوعاً ما الحياة الأكاديميّة، فنحن نعيش في ساحة منفصلة تُغلق كل ليلة كما في الكليّات. نبدأ اليوم دائماً بالصلوات، كما تفعل أنت، ونجهّز أوقاتنا لأعمال التجارة ووجبات الطعام والاستجمام. في الشتاء نصطاد في معظم حملاتنا المبهجة مرتين في الأسبوع، وفي الصيف نذهب في كثير من الأحيان لنسلي أنفسنا في خيامنا بلعبة البولنغ وغيرها من التمارين».

كان القنصل مسؤولاً عن المصنع، وبصرف النظر عن القسيس لم يكن هناك

ســوى مسؤوليــن اثنيــن آخــرين: المستشار الذي يحتفظ بسجلات الأعمال التجارية، والخـازن الـذي كان مسـؤولاً عن مجموعة مسـتحقات الشـركة والنفقات المشـتركة للمصنع.

* * *

في مطلع عام 1697، قرّر موندرل ومجموعة من رفاقه تبلغ 15 شـخصاً (من أصل 40 يعملـون فـي المعمل) القيام برحلـة حجّ إلى القدس. وفي تمام السَّـاعة الثالثة بعد الظُّهر من يوم الجمعة 26 فبراير 1697، انطلقوا باتجاه اللاذقية على السّاحل السّوري، وتابعوا طريقهم على طول ساحل لبنان من شماله إلى جنوبه حتى بلغوا عكّا في ساحل فلسـطين، ومنها اتجهوا براً إلى القدس الشريف فبلغوها في 25 مارس، حيث حضروا قدّاس عيد الفصح المقام وفق الطقس اللاتيني. زار الفريق وادي الأردن والبحر الميِّت وبيت لحم، عائدين إلى القدس في الثاني من أبريل لحضور الاحتفالات بعيد الفصح في الكنائس الشّـرقيّة، ومن ثمَّ شـقُّوا طريقَهم للعودة عبر دمشق وبعلبك إلى طرابلس، واتبعوا طريقاً خارجيّاً ووصلوا عائدين إلى حلب فوصلوها في 18 مايو.

دوّن موندرل وقائع الرحلة في كتاب أطلق عليه: «رحلة من حلب إلى القدس»، لم يُنشر إلا عام 1703 بأوكسفورد، بعد وفاته في حلب عام 1701.
Journey From Aleppo to Jerusalem at Easter A.D. 1697

* * *

قَضـى الرجال الخمسـة عشـر الجـزء الأكبـر من هـذه الأشـهر الثلاثة في السَّـفر، وشـاهدوا العديـد مـن بلدان ومدن المشـرق. كانـت الرِّحلة بحـدِّ ذاتها رحلـة مألوفة للعامليـن فـي حلب تقام فـي هذا الفصـل، لكنّ الـذي ميَّزها عـام 1697 كان صحيفة ترحـال كتبها موندرِل، مليئـة بملاحظات مفصلة عن الأماكن التـي زاروها، وهي تُعدّ واحـدةً مـن أولى الروايـات الدقيقة عـن العصـور القديمة لسـوريا ولبنان وفلسـطين تُكتَب باللغة الإنكليزيَّة. وبتشجيع من خاله مستر تشارلز هيدجز، أرسلها موندرِل إلى

إنكلترا للتداول بين أصدقائه والقسّيسين البارزين، فاستُقبلت هناك بحماس كبير فقام بمراجعتها وإعدادها للنّشر.

* * *

أمّا رواية الكتاب فشائقة ممتعة وحافلة بالأحداث والملاحظات، تذكّرنا بأسلوب الرّحّالين الفرنسيين جان دى تيڤنو ولوران دارڤيو اللذين زارا أقطار المشرق في أواسط القرن السّابع عشر، وذلك من حيث الرّواية الشّخصيّة والتفاعل الحيّ مع الأحداث، أمّا من حيث مسرح الأحداث والوقائع فالرّحلة تمتاز بذكرها لمواقع في غربي حلب وفي السّاحل السّوري، لم ترد لدى باقي الرّحالين، وذلك كله بقالب جزل من الوصف والملاحظات النقديّة المفيدة، مع دقة في الرّواية وتبيان واضح لظروف السّفر بالكامل.

وبوجه الإجمال، يُعدّ هذا الكتاب واحداً من أهم كتب الرّحلات الأوروپية في المشرق العربي بالقرن السّابع عشر، ونعد القارئ الكريم بأن نردفه بكتابي تيڤنو ودارڤيو المذكورين أعلاه في أقرب وقت ممكن.

أول طبعة صدرت للكتاب كما قلنا كانت في أوكسفورد 1703، بعد وفاة موندرِل بعامين، حيث توفي بحلب عام 1701. ومنذ ذلك الحين صدرت لها عدّة طبعات، منها ترجمة فرنسية عام 1706، والطبعة الإنكليزيّة الثانية عام 1707، كما نُشر الكتاب في دبلن بطبعته السّادسة عام 1749.

وفي عام 1963 صدرت في بيروت عن مكتبة خيّاط طبعة حديثة استندت إلى طبعة لندن عام 1810 مع مقدّمة وافية وتعليقات ختاميّة قام بها دايڤيد هويل David Howell.

* * *

عندما نقلنا هذا الكتاب إلى العربيّة استندنا إلى طبعة ريڤنغتون الصادرة بلندن عام 1823، وراجعتُها على طبعة لندن 1832، وطبعة بوسطن 1836 وطبعة بيروت 1963. وتبيّن لي أن طبعة ريڤنغتون اللندنيّة مختصرة بعض الشيء، لكنها تفي بفحوى النصّ

الآن، وقد تكون لنا عودة أخرى إلى الكتاب بنصّ أوسع ورسوم أكثر في المستقبل.

أمّا التسميات العويصة الكثيرة المتناثرة في صفحات الكتاب، فأحسب بعد الجهد الكبير الذي بذلته أنني قد وفّقت في تبيانها واسترداد تسمياتها الأصليّة من التصحيف والتحريف الفادحين اللذين نالا منها على لسان موندرِل.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، 3 يناير *2012*

د. أحمد إيبش

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

-1 بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

-2 الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الاسماء الإنكليزيّة: چِستر، چِڤرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż.

-3 أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم

Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (ڠيرير) أو كما في اسم: Guillaume (ڠيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (ڠيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف

g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچِك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجِلار)، Avcı (آوجي)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غيڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء الأجنبيّة لقوا في ذلك التباريح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربيّة: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراغون.

* * *

أما التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) فيمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريا، مجنطيس.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

A

JOURNEY

FROM

ALEPPO TO JERUSALEM,

AT EASTER, A.D. 1697.

BY

HENRY MAUNDRELL, M.A.

A NEW EDITION.

London:

PRINTED FOR C. & J. RIVINGTON,

Booksellers to the Society for Promoting Christian Knowledge,

62, ST. PAUL'S CHURCH-YARD,

AND 3, WATERLOO-PLACE, PALL-MALL.

1823.

عنوان طبعة ريفنغتون، لندن 1823

A

JOURNEY

FROM

ALEPPO TO JERUSALEM,

AT EASTER, A. D. 1697.

TO WHICH IS ADDED

AN ACCOUNT OF THE AUTHOR'S JOURNEY

TO THE

BANKS OF THE EUPHRATES AT BEER,

AND TO THE

COUNTRY OF MESOPOTAMIA.

By HENRY MAUNDRELL, M. A.

FELLOW OF EXETER COLLEGE AND CHAPLAIN TO THE FACTORY AT ALEPPO.

FIRST AMERICAN EDITION.

BOSTON:

SAMUEL G. SIMPKINS.

1836.

عنوان طبعة أميركية صادرة في بوسطن 1836

ter'd into a narrow cleft between two rocky mountains, passing thro' which, we arriv'd in four hours at Demass, gently descending all the way. At Demass a small caphar* is demanded; which being dispatch'd, we put forward again, but had not gone above an hour and a half, when it grew dark, and we were forc'd to stop at a very inhospitable place, but the best we could find; affording no grass for our horses, nor any water, but just enough to breed frogs, by which we were serenaded all night.

Tuesday, April 27.—Early the next morning we deserted this uncomfortable lodging, and in about an hour arriv'd at the river Barrady; our road still descending. This is the river that waters Damascus, and enriches it with all its plenty and pleasure. It is not so much as twenty yards over; but comes pouring down from the mountains with great rapidity, and with so vast a body of water, that it abundantly supplies all the thirsty gardens, and the city of Damascus.

We crossed Barrady at a new bridge over it, called Dummar. On the other side our road ascended, and in half an hour brought us to the brink of a high precipice, at the bottom of which the river runs; the mountain being here cleft asunder to give it admission into the plain below.

At the highest part of the precipice is erected a small structure, like a sheck's sepulcher, con-

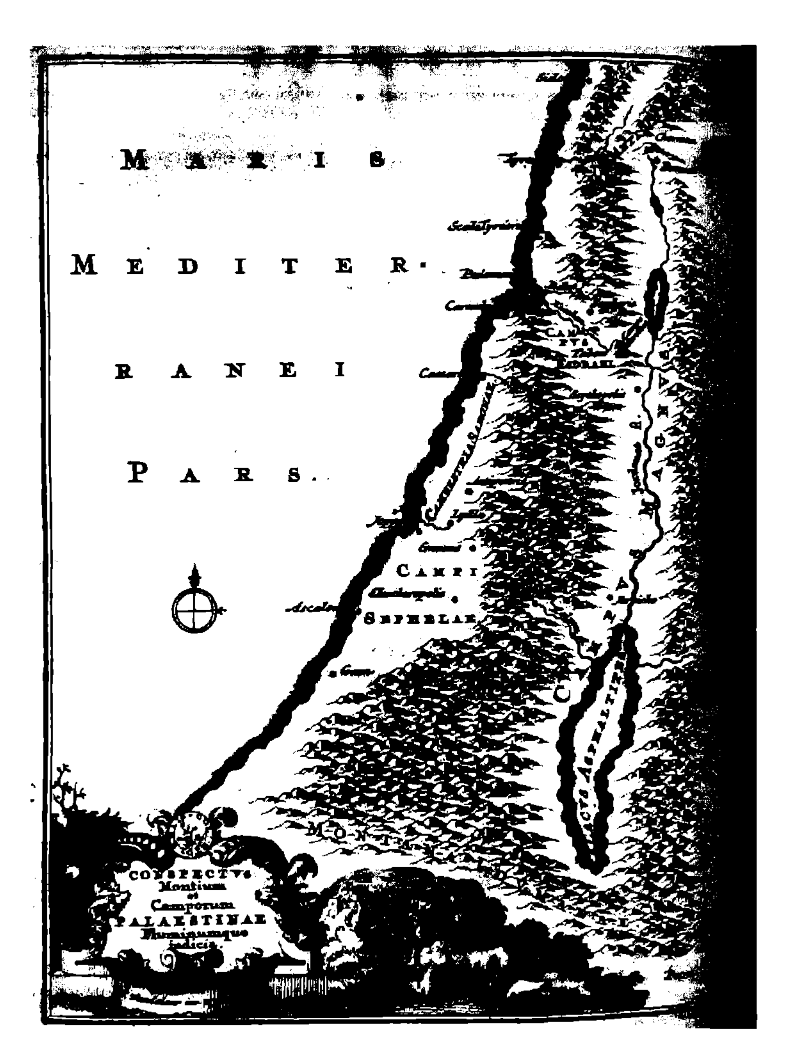
* Quarter per head.

نموذج لطبعة لندن 1832، ص 163 الرحلة إلى دمشق

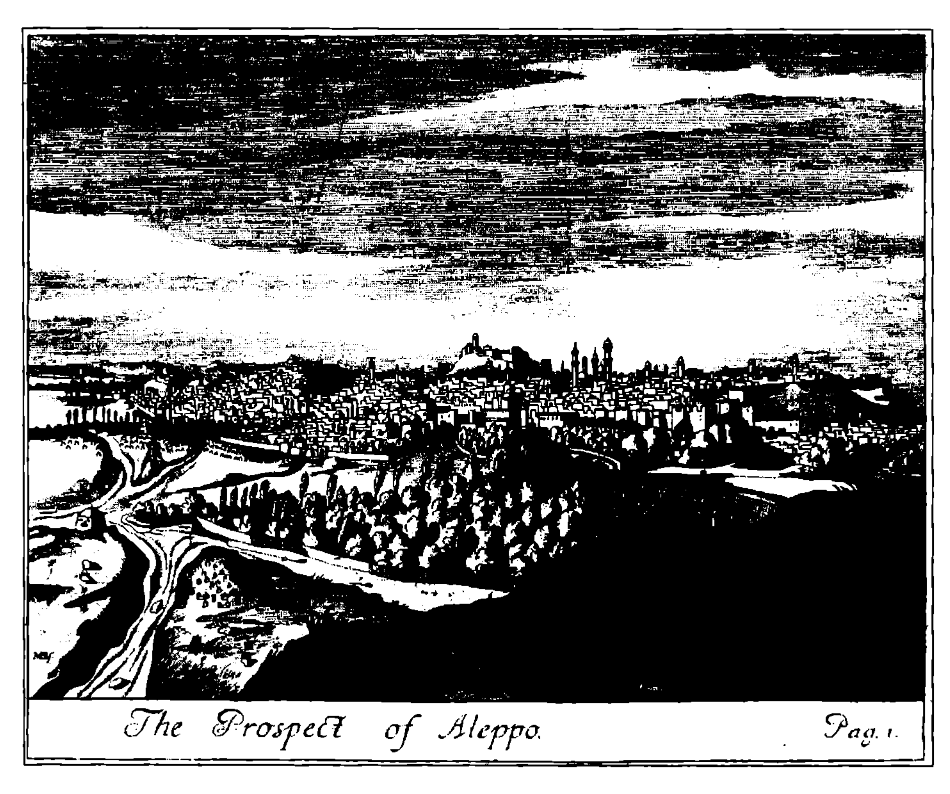


نُقيشة عنوان الطبعة الفرنسية الصادرة عام 1706

Voyage d'Alep à Jérusalem

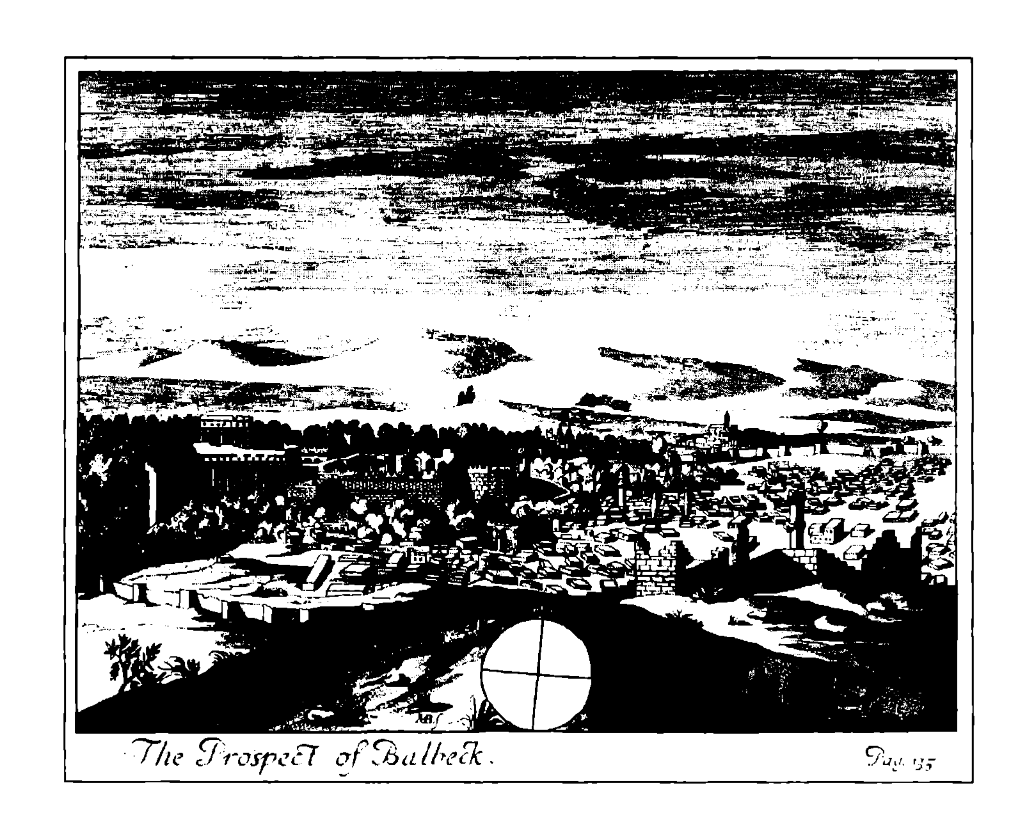


خارطة قديمة لفلسطين من عصر المؤلف



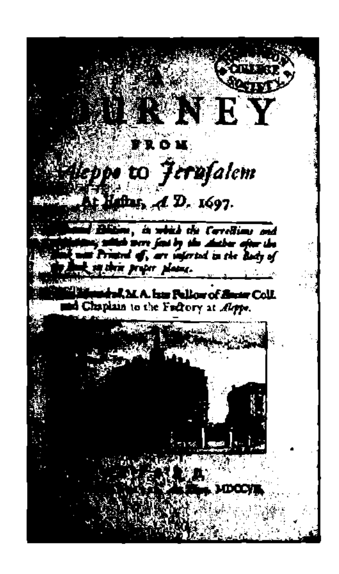
نقيشة نادرة تمثل مدينة حلب عام 1703 م

من الطبعة الأولى لكتاب موندرل



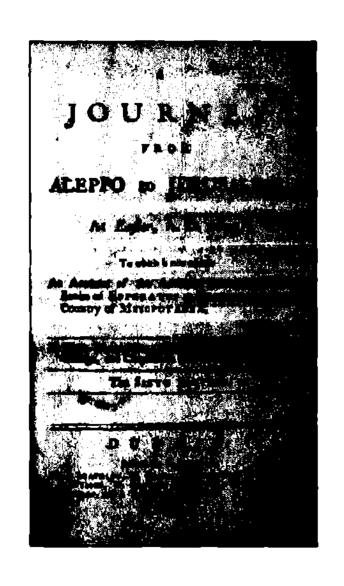
نقيشة نادرة تمثل مدينة بعلبك عام 1703 م

من الطبعة الأولى لكتاب موندرل



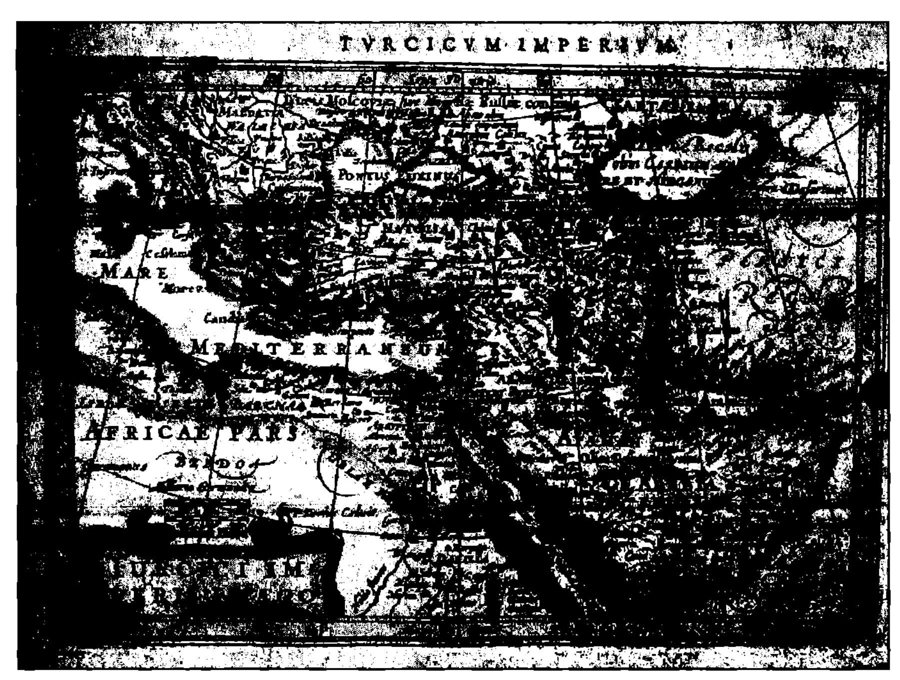
A
...URNEY
FROM
...leppo to Jerusalem
At Easter, A. D. 1697.
...Edition, in which the Corrections and ... which were sent by the Author after the ... was Printed of, are inserted in the Body of the Book in their proper places.
... M. A. late Fellow of Exeter Coll. and Chaplain to the Factory at Aleppo.

الطبعة الثانية للكتاب عام 1707



JOURN...
FROM
ALEPPO to ...

الطبعة السّادسة، دبلن عام 1749



خارطة أوروبيّة تمثّل السّلطنة العثمانيّة تعود إلى عام 1643 م

لاحظ عبارة: **Sinus Arabicus** (الخليج العربي)

مقدمة المؤلف

بمـا أن عـدداً من رجـال أمتنا، وكان عددهم أربعة عشـر، صمّموا القيـام بزيارة إلى الأرض المقدّسـة في عيد الفصح القادم، فقد قرّرتُ مؤخراً المجيء إلى حلب، للقيام برحلة على المنوال ذاته، آخذاً بعين الاعتبار أنّ نيّتي كانت القيام بهذه الحجّة في وقت ما قبل عودتي إلى إنكلترا وإلا فلن أستطيع القيام بذلك مطلقاً، إما بتعامل أقلّ لخدمة كنيستي أو بسـرور أكبـر لنفسـي في هـذه الرّحلة؛ ولدي قسـم كبير بنفـس الوقت من جماعتي في الخارج وبرفقتي.

تبعاً لهذا القرار، انطلقنا من حلب يوم الجمعة 26 فبراير 1696[1] وذلك في السّاعة الثّالثـة بعد الظهر، قاصدين بأن نقوم فقط بخطوة قصيرة في ذلك المسـاء لنبرهن على مدى حسـن امتلاكنا لضروريات رحلتنا. وكانـت إقامتنا في ليلتنا الأولى هذه في خان العسل، وهو مكان لإقامة عابرة يبعد حوالي ساعة ونصف غرب حلب.

ينبغي أن نلاحظ هنا بأنه لدى السّفر في هذا البلد، لا يلقى المسافر مدينة ذات سوق أو نُزلٍ في كل ليلة كما هو الحال في إنكلترا. وأفضل استقبال يمكنك أن تجده هنا، هو إما تحت خيمتك، فيما إذا سـمح الطّقس؛ أو في مسـاكن شـعبية أسّست كمبرّة لإيواء المسـافرين. ويسـمّيها الأتـراك بالخانـات؛ وهي موجـودة أحياناً في المـدن والقرى؛ وأحياناً في مسـافات مناسـبة علـى الطّريق العام. وهي مبنية على طـراز الدّير وتحتوي علـى فناء مسـاحته حوالـي ثلاثيـن أو أربعين يـارداً مربعاً حسـب إمكانية المؤسـس. وجميـع الوافدين إلـى هذه الأمكنة أحـرار بأن يلتجئـوا إليها؛ ويدفعـون أجرة صغيرة

---

(1) كذا يرد في الأصل، رغم أنّ المعروف أنّ الرّحلة كانت في ربيع عام 1697.

لصاحب الخان وغالباً لا يدفعون شيئاً. وبصورة عامة لا يتوقعون هنا سوى جدران خالية؛ وبالنسبة للمؤن الأخرى كاللحم والشّراب والفراش والنار والعلف فينبغي لكل فرد أن يؤمّنها بنفسه.

السبت 27 فبراير: غادرنا خان الحرير باكراً جداً في الصّباح التالي؛ وانطلقنا غرباً كاليوم السّابق ووصلنا إلى أورم[1]؛ وهي قرية قديمة ليس فيها شيء جدير بالانتباه سوى أنقاض كنيسة صغيرة. ووصلنا خلال نصف ساعة من أورم إلى كفر[2]؛ وبعد ثلاثة أرباع السّاعة إلى أسيون. حيث دخلنا في هذا المكان الأخير إلى سهول كفتين[3] Kefteen، التي تابعنا سيرنا فيها ووصلنا بعد ساعة أخرى إلى قرية تسمى الجينة، وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا إلى حزانو وبعد ساعة كاملة وصلنا إلى كفتين. استغرق مشوارنا في هذا اليوم حوالي خمس ساعات كاملة، قليلاً جنوباً نحو الغرب.

وسهول كفتين ذات محيط واسع؛ تمتد نحو الجنوب أبعد مما تبلغه العين وهي في معظم أركانها مثمرة جداً ومزروعة بصورة جيدة. وعند نزولنا الأول إلى هذه السّهول في أسيون عددنا أربعاً وعشرين قرية أو أماكن عن بُعد تشبه القرى عندما ألقينا نظرة من إحدى المحطات. والتربة هنا ذات لون أحمر وهي رخوة جداً ومثقبة؛ ومن الصّعب أن ترى فيها حجراً. وتمتدّ على جانبها الغربي لمسافة أميال عديدة سلسلة آكام عالية من التلال بحيث تكشف عن صخور عالية دون أية إشارة للتربة، أو أي منتج نافع يعطي مظهراً للطبيعة ذي فائدة للمزارع. وقد ظهر كامل السّهل من هذه الأحجار وكوّمها جميعها سوية في ذلك الجبل الوحيد. أمّا كفتين نفسها فهي قرية كبيرة وافرة على الجانب الغربي للسّهل. والحقول المتاخمة الممتلئة بالذرة تعطي السّكان مزيّة كبيرة

---

(1) هناك قريتان بهذا الاسم: أورم الكبرى، وإلى جنوبها أورم الصّغرى.

(2) تسمّى في عصرنا: كفر حلب، وهي تقع إلى الجنوب من أورم الصّغرى.

(3) يرى دايفيد هويل محرّر طبعة 1963 من كتاب موندرل أنّ الرحّالة يقصد بهذا الاسم: كفر تخاريم. لكن ثمّة قرية فعلاً تسمّى كفتين تتبع محافظة إدلب على بعد 20 كم شمالي مركز المحافظة، وهي قريبة من الحدود التركيّة، وتحدّها من الشرق قرية حزانو التي يذكرها موندرل هنا.

لتربية الحمام، بحيث أنك تجد هنا أن أبراج الحمام أكثر من البيوت الأخرى.

الأحد 28 فبراير: بما أنه كانت لدينا مسافة طويل للسّفر هذا اليوم، فقد غادرنا كفتين باكراً جداً. وتابعنا في نفس السّهل المثمر الزّاخر بالذّرة والزّيتون والعنب، ووصلنا خلال ثلاثة أرباع السّاعة إلى أرمناز Harbanoose؛ وهي قرية صغيرة واقعة في منتهى السّهل. حيث بعد اختراق مرتفع بسيط وصلنا إلى وادٍ غني جداً يسمّى الرّوج. وهو يمتدّ إلى الجنوب أبعد من أن يستطيع المرء أن يرى، ولكن بالنسبة لعرضه من الشّرق إلى الغرب فهو يمتدّ لا أكثر من ساعة ركوب؛ وهو محاط على الجانبين بجدار من الجبال الصّخرية العالية.

بعد السّفر في هذا الوادي لمدة حوالي أربع ساعات وصلنا إلى مجمّع مائي كبير يسمّى بحيرة الرّوج (أو بالأحرى البحر حسب الأسلوب الشّرقي). وكنا مجبرين أن نمرّ عبر جانب هذه البحيرة؛ ووجدنا في ذلك إزعاجاً ليس بالقليل في أن نمرّر خيولنا وبغالنا المحمّلة عبر الماء والوحل. ولكن لدى عودتنا وجدنا أن البحيرة قد جفّت كلياً والطّريق قد جرى إصلاحه بشكل مُتقن حيث لم نستطع أن نميّز كثيراً أين كان المكان الذي سبّب لنا إزعاجاً أكثر من سواه. وبعد ساعة من هذه البحيرة وصلنا إلى تنيري[1] Te-ne-ree وهو المكان الذي دفعنا فيه رسمنا الأول.

هذه الرّسوم هي ضرائب ينبغي للمسافرين دفعها عند عدّة ممرّات على الطّريق لموظفين يداومون في مراكزهم المعينة لاستلام هذه الرّسوم. وقد فرضها أولاً المسيحيون لتقدّم تعويضاً للبلاد لصيانة الطّرقات وإبقائها بحالة جيدة، وتنظيفها من الغزاة واللصوص. ولا يزال الأتراك رابحين من تطبيق ذلك ويتظاهرون بنفس الأسباب لجنيها. ولكن تحت هذا الادّعاء يغتنمون الفرصة ليفرضوا على المسافرين، وخاصة الأوروپيين، مبالغ جائرة وغير معقولة؛ وبهذا فعوضاً عن أن يكونوا حُماة يثبتون بأنهم

---

(1) هذه التسمية تنيري غير معروفة اليوم، وقد تكون محرّفة غالباً. وينبغي أن يكون موقعها حسب الوصف في جنوبي سهل الرّوج. ويرى هويل أن الموقع ينطبق على مكان يسميه: Tell-el-Kareh.

أنفسهم أكبر المحتالين واللصوص.

بعد ساعة طويلة من مركز الرّسوم هذا، قادنا طريقنا فوق الجبال إلى الجانب الغربي من وادي الرّوج. حيث استغرق اختراقه حوالي السّاعة، وبعدها انحدرنا إلى وادٍ آخر يمتد موازياً للوادي السّابق حيث غادرناه عن طريق سلسلة التلال الأخيرة. ولدى النزول الأول إلى هذا الوادي توجد قرية تدعى ماعز Bell Maez ومنها وصلنا بعد ساعتين إلى الشّغور Shoogle. كان طريقنا لمعظم هذا النهار غرباً – جنوباً – غرباً. واستغرقت رحلتنا كلياً عشر ساعات.

والشّغور[1] Shoogle مدينة كبيرة لا بأس بها ولكنها وسخة للغاية وواقعة على نهر العاصي، الذي تمر فوقه عبر جسر ذي ثلاثة عشر قوساً لتصل إلى المدينة. والنهر في هذا المكان ذو عرض جيد؛ ولكنه سريع جداً حيث يدير دواليب (نواعير) كبيرة صنعت لرفع المياه وذلك بسرعتها الطّبيعية دون إضافة أيّة قوة. إن مياهه عكرة وغير صحّية مطلقاً وأسماكها أسوأ؛ حيث وجدنا بالخبرة بأنه ما من شخص من جماعتنا كلها قد أكل من هذه الاسماك خلال الليل، إلا وجد نفسه متوعّك الصّحة في الصّباح التالي.

أقمنا هنا في خان كبير جداً وحسن ويختلف كلياً عن ما يرى عادةً في مثل هذا النوع من الأبنية. أنشأه الكوپريلي[2] Cuperli الثّاني وخصّص له دخل كاف لتزويد كل مسافر يقطن فيه بحصة كافية من الخبز والمرق واللحم، حصّة جاهزة لكل من يطلبها، وقليلون جداً من الأشخاص لا يطلبونها. وملحق بالخان في جانبه الغربي ساحة مربعة أخرى تحتوي على غرف لعدد معين من المحسنين؛ وتلك الهبة الخيرية أوقفها الكوپريلي ذاته. وكان الخان الذي وجدناه لدى وصولنا ممتلئاً بعدد كبير من

(1) تعرف في يومنا باسم: جسر الشّغور. علماً أنّ هناك بلدة تسمّى الشّغر كما يلفظها موندرل تقريباً، لكن كلامه بأنها مدينة كبيرة يدلّ على أنه يعني جسر الشّغور.

(2) تولّى من أسرة الكوپريلي Köprülü خمسة صدور عظام أداروا الإمبراطوريّة العثمانيّة بين 1656–1710 م، وكان الثاني منهم (الذي يعنيه موندرل) فاضل أحمد پاشا الصّدر الأعظم بين 1661–1676 م، الذي اشتهر بكونه رجل سياسة وحرب في آن واحد.

الحجّاج الأتراك المتجهين إلى مكة. ولكن مع ذلك فقد قوبلنا باستقبال سلمي فيما بينهم بالرّغم من أن وجوهنا كانت متجهة لمكان مختلف.

الاثنين 1 مارس: قادنا طريقنا من الشّغور Shoogle أولاً غرباً وذلك لعبورنا الجبل من ذلك الجانب من الوادي. وصلنا إلى أسفل المرتفع خلال نصف ساعة، ولكن واجهتنا طرق وعرة جداً في الجبال لم نتخلّص منها إلا بعد ساعتين. ونزلنا بعدها إلى واد ثالث يشابه الواديين الآخرين اللذين مررنا بهما سابقاً. ويوجد عند مدخله الأول قرية تدعى بداما[1] وهذا الاسم ذاته أيضاً يطلق على الوادي.

بعد سفرنا لمدة حوالي ساعتين في هذا الوادي دخلنا إلى ريف جبلي مشجّر حيث تنتهي حدود حلب وتبدأ حدود طرابلس[2]. وكان طريقنا هنا صخرياً جداً وغير مستوٍ؛ ولكن التغيير فيه عدّل شيئاً من إزعاجه. فقادنا أحياناً إلى تحت ظل بارد لأشجار كثيفة، وأحياناً عبر وديان ضيقة تسقيها شلالات عذبة ذات خرير؛ ومن ثم لمدة طويلة على طرف شفير. وقد قدّم لنا في جميع الأماكن منظر نباتات وأزهار ذات أنواع أخرى متعدّدة كالآس و الدّفلى وبخور مريم، وشقائق النعمان، والخزامى، ونباتات القطيفة، وعدة أنواع أخرى من الأعشاب العطرية.

بعد قضاء حوالي ساعتين على هذه الحالة نزلنا وادياً منخفضاً؛ في أسفله شقٌّ في الأرض ذو عمق كبير؛ زد على ذلك أنه ضيق جداً حيث لا تبصره العين حتى تصل فوقه تماماً بينما ترصده الأذن من مسافة كبيرة بسبب صوت ساقية تجري إليه من التلال. وقدّرنا بأن عمقه لا يقل عن ثلاثين يارداً. ولكنه ضيق بشكل بأن قوساً لا يبلغ أربعة ياردات يوصلك إلى جانبه الآخر. ويسمّونه بامرأة الشّيخ، وهو اسم غلب عليه من امرأة لها تلك الصّفة سقطت فيه ولا حاجة لي بأن أضيف بأنها هلكت. إن عمق القنال وضجيج الماء غريبان بشكل لا يستطيع المرء أن يمرّ فوقهما بغير شيء من

(1) من قرى جسر الشغور، تقع إلى الغرب منها.

(2) طبعاً هذا بمصطلح ذلك العصر، وهو يعني حدود اللاذقيّة، لأنها كانت تتبع آنذاك في القرن التّابع عشر لولاية طرابلس.

الهلع. وجوانب هذا الشّق تتألف من صخر قاسٍ عموديّ وناعم، يبدو بأنه يمتدّ بشكل متموّج حتى الأسفل كما لو كان يتقيّد بحركة الماء. قادتنا هذه الملاحظة إلى التخمين بأن ذلك الجدول بسبب جريانه الطّويل والمستمر قد حفر قناته إلى ذلك العمق غير العادي؛ ولهذا التأثير فإن الماء قد جرى تقييده بممرّ ضيق لهذا الحد، وبجرفه حجارة بسبب سرعته لم يكن ذلك قليلاً بمساهمته.

تابعنا مسيرنا من هنا عبر طريق يشبه ذلك الذي سبق وصفه ووصلنا خلال ساعة إلى قطعة مستوية من الأرض تسمّى حجر السّلطان، وأقمنا في هذه الليلة تحت الخيام. واتجه طريقنا في هذا اليوم بمعظمه باتجاه الجنوب الغربي، وكانت مسيرتنا حوالي سبع ساعات ونصف.

الثلاثاء 2 مارس: كنا مسرورين بأن نغادر باكراً جداً هذا الصّباح من إقامتنا في العراء. وكان الطّقس لا يزال رطباً وبارداً جداً على الانطلاق. وبعد متابعة رحلتنا عبر أحراج وجبال، كما في اليوم السّابق، وصلنا في حوالي ساعة واحدة إلى كفر كروسية[1] Crusia حيث يوجد قرب خان بذلك الاسم، يسمّونه خاناً ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من خربة باردة وغير مريحة على رأس تلة على جانب الطّريق.

وصلنا من هنا وفي حوالي ساعة أخرى إلى أسفل جبل يدعى العقبة[2] Occaby، وهو كما تشير التسمية، صعب، وفعلاً وجدنا صعوده متجاوباً كلياً مع اسمه. وإن الرّطوبة وانزلاق الطّريق في هذا الوقت أضافا إلى انحداره وهذا زاد كثيراً في مشقّة صعوده علينا؛ بحيث استغرق وصولنا إلى قمّة التلة ساعة كاملة. ولم نجد هنا أحراجاً أو تلالاً، ولكن وجدنا ريفاً ظريفاً مفلوحاً جيداً ومزروعاً بحدائق الحرير. عبر ذلك يوجد على اليد اليمنى قرية تدعى ستّ غالة[3] Citte Galle يقطنها الموارنة كلياً، وبعد

(1) المرجّح أنه يقصد: خان القرشيّة.

(2) أظن هذا الموقع ينطبق في أيامنا على البهلوليّة.

(3) يقصد: ست غالية، من قرى اللاذقيّة تتبع قرية الزّوبار.

ساعة وصلنا إلى بلولكة[1] Bellulca.

ومـن هنا توجهنا إلى مكان هو خان القرية وفي نفس الوقت كان بيت الآغا، وقررنا بسـبب الأمطار التي سقطت بسخاء من أن نجعل هذا محل إقامتنا. وذهبنا لزيارة الآغا مـع هدية صغيـرة بأيدينا لكي نحصل على اسـتقبال لائق. ولكننا قوبلنـا بمكافأة قليلة الامتنـان من التركي، وذلك بعد كل ما أبديناه له من احترام. وبعد إلحاح شـديد ظفرنا باسـتعمال ناحيـة جافة مـن المنزل؛ حيث أن المـكان الذي قطنّا فيـه أولاً كان مفتوحاً للرّياح وزخّ المطر. كل مشـوارنا في هذا اليوم لـم يتجاوز أربع سـاعات، وكان اتجاهنا تقريباً إلى الجنوب الغربي.

وبما أنه جرى إعلامنا بوجود عدّة سكان مسيحيين في هذا المكان، فقد ذهبنا لزيارة كنيستهم التي وجدناها فقيرة جداً وتستحق الشّفقة. والمسيحية هنا بدت وكأنها بلغت أقصى حالتها المتواضعة ووُضع المسـيح ثانية في معلف. وكانت هذه الكنيسـة عبارة عـن مجرّد غرفة تبلغ حوالي أربـع أو خمس ياردات مربعة، جدرانها وسـخة وأرضها غير مستوية؛ وسقفها مغطى بشجيرات لمنع العوامل الجوية. وفي جانبها الشّرقي كان المذبح الذي بني بنفس مواد الجدار؛ غير أنه كان مبلطاً في الأعلى بقطع خزفية وألواح حجرية لإعطائه وجه المنضدة.

وفـي جانبها الجنوبـي لوح ثخين مدعوم بعمـود، وقد فهمنا بأنـه كان منبر القراءة، وكان بجانبه ثقب صغير قد حُفر بشـكل ملائم عبر الجدار ليعطي نوراً للقارئ. مسكن فقير جداً لربّ السّماء، ومع ذلك فقد تمّ اتخاذه باحترام ووقار كبيرين من قبل الفقراء؛ الذين يأتون هنا بأنفسـهم بكل خشـوع ويعطون كل شـيء قيّم بالنسبة لهم ليحصلوا به على مباركتهم.

الأربعـاء 3 مـارس: وافانـا الصّباح التالي بالأمـل بنهار لطيف بعـد الأمطار الغزيرة التـي هطلت لمدة ثمانية سـاعات متواصلة. لذلك غامرنا بـأن نغادر بلولكة Bellulca

(1) لعلّ هذا الموقع ينطبق في أيامنا على نواحي قرية جْبَريون، من قرى حوض النهر الكبير الشمالي، تتبع ناحية البهلوليّة.

مـع قليـل من امتناننا لهـا لإضافتنا. ولكننا لـم نبتعـد كثيراً حتى بدأنـا نتمنّى لو احتفظنا بمكان إقامتنا السّابق بالرّغم من سوئه كما كان؛ لأن الأمطار بدأت بالهطول من جديد بغضب أكبر من السّابق، ولـم نكن مرتاحين تحت أقدامنا، حيث كان الطّريق عميقاً جداً ومملوءاً بالوحل. قرّرنا على كل حال بأن نمشـي قُدماً آملين بوقت أحسـن، وبعد أربع سـاعات طويلـة جداً في أحوال غير مريحـة وصلنا إلى الشّـلفاطيّة[1]، وهي قرية فقيرة واقعة على نهر صغير[2] اضطررنا لاجتيازه. ولكن بسبب الأمطار الأخيرة ارتفعت مياه النهر إلى حدّ عالٍ جداً بحيث أصبح لا يمكن اجتيازه؛ بالرّغم من أنه في أوقات أخرى كان عبارة عن جدول صغير، وفي الصّيف يصبح جافاً كلياً.

وهنـا عوضـاً من أن نصلـح وضعنا كمـا توقعنا، بدأنا نشـرب بعمق أكثـر من وعاء الحجّاج المر. وبوصولنا إلى مثل هذه الصّعوبة لم نعرف إلى أية جهة نوجه أنفسنا. لأنه كمـا قلت لم يكن بالإمكان خـوض النهر، ولذلك لـم يكن بالإمكان التقدّم إلى الأمام؛ والعودة إلى المكان الذي أتينا منه كان شيئاً كريهاً بالنّسبة لنا جداً؛ لمعرفتنا جيداً بخبرة ذلـك الصّبـاح رداءة الطّريق؛ ولدينا أيضاً سـبب لنتوقع ترحيباً بارداً فـي نهاية رحلتنا. وبالنسبة للإقامة في القرية كان شيئاً لا يمكن تحمّله، لأن البيوت كانت جميعها ممتلئة بالأوسـاخ والقذر، ويسـكنها القرويون مع أبقارهم دون تفريق. ولـم نستطع الاستلقاء في العراء بسبب الأمطار الغزيرة التي كانت قد تسبّب لنا ولخيولنا خطراً واضحاً.

ولكـن بينمـا كنا في هـذه الحيـرة وعلى غير هُـدى لأي اتجـاه نتبع، خـفّ المطر؛ فقرّرنـا النزول إلى الحقل المفتوح بالرّغم من أنه كان مبتلاً بالكامل، حيث اعتبرنا هذا التصـرف علـى كل حال الأقل شـراً. وبناءً على ذلـك لجأنا إلى مرتفـع صغير بجانب الماء، قاصدين هناك تحت خيمتنا انتظار جريان السّاقية.

لـم نهنأ طويلاً بتوقف المطر، حيث بدأ ينصبّ مجدّداً مع برق ورعد مخيفين. وهنا

---

(1) الشلفاطيّة من قرى اللاذقيّة. وفي عصرنا عام 2000 تحوّلت إلى مركز بلديّة تضمّ قرى الشلفاطيّة، دبا، ستّ خيرس، مزرعة اليغنصة.

(2) يعرف باسم: نهر القش، وهو فرع من نهر الكبير الشمالي.

تجدّد اهتمامنا ولم نعلم جيداً بأي شيء يجب أن نكون مهتمين أكثر؛ هل هو أنفسنا، حيث تمتعنا بالراحة البائسة تحت خيمة تتساقط فوقنا، أم خدمنا وخيولنا الذين لم يكن لهم شيء سوى ملابسهم الخاصة لتحميهم.

وأخيراً كان هناك مزار شيخ صغير، أو ضريح، حيث منّينا أنفسنا بالأمل بأننا قد نتّخذ ملجأً فيه. وكانت الصّعوبة الوحيدة حول كيفية حصول الدّخول إلى مثل هذا المكان الجليل؛ حيث أنّ الأتراك[1] بصورة عامة لديهم تعصّب أكثر ممّا لديهم من الرّحمة. أرسلنا لبحث هذا الموضوع إلى القرية تركياً كنا قد أخذناه معنا من أجل ظروف كهذه، حيث أمرناه بأن يحاول أولاً بأن يؤمّن الدّخول باللّين، وإذا فشل ذلك بأن يهدّد بأننا سندخل بالقوة. ولكن معتقدات هذا المكان كانت من النوع الذي يصدّ الإنسانية عوضاً من أن يدعمها. منعَنا القومُ كلياً من الإحسان القليل الذي طلبناه؛ وقالوا لنا إنهم ليموتوا بسيوفنا دون تدنيس عقيدتهم. وأضافوا أيضاً بأن عقيدتهم كانت لمحمّد[2] وعليّ، بخلاف عمر وأبي بكر؛ وقرّروا بأنهم يتمسّكون بهذا المبدأ. وأعلمناهم بأننا لدينا فكرة عن عمر وأبي بكر كما يذكرون، وأنّ كلّ رغبتنا كانت بملجأ صغير يحمينا من المطر الحالية ولم يكن لدينا أي قصد بأن ندنّس عقيدتهم.

وهكذا ببعض الكلمات الطّيبة جعلناهم يوافقون بأن نؤمّن أمتعتنا في مزار الشّيخ؛ أما بالنسبة لأنفسنا وأسلحتنا فكان حكمنا الذي لا رجوع عنه بأن نكون خارج الجدران المقدّسة. كنا مسرورين على كل حال بأن تكون لنا الأبواب غير الرّحيمة مفتوحة تحت أية شروط. وبغير شك كان يجب علينا أن نغتنم فرصتنا فيما بعد حسب رغبتنا، وفعلاً اغتنمناها؛ إذ عندما خيّم الظلام وذهب القريون للنوم ذهبنا جميعنا إلى المأوى وقضينا هناك ليلة كئيبة بين القبور، حيث نجونا على كل حال من الشّر الكبير للأمطار التي هطلت طوال الليل بسخاء كبير.

---

(1) كان الرحالون الأوروبيون آنذاك يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السّلطنة العثمانيّة من المسلمين إجمالاً. لكنه هنا يتحدث عن العلويين.

(2) رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بما أننا زحفنا الآن إلى داخل مزار الشّيخ فينبغي لي ألا أغفل، محاباةً لمنزلنا، إدراج بعض الوصف لطبيعة هذه الأبنية. إنها أبنية حجرية تبلغ عادة ست أو ثمانية ياردات مربعة تقريباً ومسقوفة بقبة مبنية فوق قبور قديسيهم.

يوجد كثير من هذه الأبنية موزّعة في أرجاء الرّيف، حيث ستجد بين الأتراك قدّيسين موتى أكثر من الذين على قيد الحياة. وهم متمركزون بصورة عامة وليس دائماً، على المرتفعات البارزة والواضحة. يتجه الناس إلى هذه المصليات بنذورهم وصلواتهم في كوارثهم العديدة، وذلك وفق الطّريقة التي كان يتّبعها الرّومان في مقامات قديسيهم. وفي هذا المجال فقط فإن تصرّف الأتراك يبدو متشدّداً أكثر، وذلك بالرّغم من أنهم يجعلون مقام قديسيهم بيتاً للصّلاة، فإنهم دائماً يتّجهون لله فقط، وليس القديس، بمخاطباتهم.

الخميس 4 مارس: لإنعاشنا بعد ثقل الليلة الماضية جرت مواساتنا بأنه جرى إعلامنا هذا الصّباح بأن النهر كان يمكن اجتيازه بعد مسافة قليلة؛ وبالنسبة لخبرتنا وجدنا ذلك حقيقة كما قيل لنا. مسرورين بهذا الاكتشاف، قمنا بأحسن انطلاق لنتخلّص من هذا المكان غير المضياف؛ وحسب رغباتنا وصلنا بعد وقت قليل مع جميع أمتعتنا إلى الجانب الآخر من النهر.

صعدنا من هنا بلطف لمدة حوالي نصف ساعة، فوصلنا إلى أسفل تلة منحدرة جداً، وعندما وصلنا إلى قمّتها قدمت لنا أول منظر للبحر. كما رأينا على حوالي مسافة ساعتين باتجاه الغرب مدينة اللاذقية واقعة على أرض منبسطة مثمرة قرب البحر؛ وهي مدينة بناها أولاً سلوقس نيكاتور وسمّاها على شرف أمّه «لاوديقيا» Laodicea، وهو الاسم الذي تحتفظ به مع شيء قليل من التحريف حتى هذا اليوم. وكانت منذ القدم مكاناً ذا فخامة كبيرة؛ ولكن بسبب النكبة العامة التي حلّت بهذا البلد فقد انحطت إلى وضعية وضيعة جداً وبقيت هكذا لمدة طويلة؛ ولكنها في السّنوات الأخيرة قد شُجعت لترفع رأسها ثانية وجرى إعادة بنائها وأصبحت من أكثر الأماكن المزدهرة على السّاحل؛ وقد أحيا ذكراها ووضعها على طريق التجارة قبلان آغا، وهو رجل ذو

ثروة كبيرة وسلطة في هذه الأماكن ومولع بالتجارة.

نزلنا قليلاً من التلّة التي صعدناها مؤخراً إلى سهل فسيح حيث سافرنا خلاله نحو الجنوب وكان البحر على جانبنا الأيمن وسلسلة من الجبال على الجانب الأيسر. وبعد سيرنا حوالي ساعة ونصف في هذا السّهل رأينا على الجانب الأيسر وغير بعيد عن الطّريق ضريحين. كانا عبارة عن ناووسين من الحجر كل منهما بطول ياردين ونصف. وكان كل من تجويفهما مغطى بقطعة حجرية قد تمّت إزاحتها جانباً ربما بأمل وجود كنز. وقد كان منحوتاً من الخارج على النّاووسين رؤوس ثيران وأكاليل معلقة بينها وفق تزيين المذابح الوثنية. وكان عليها سابقاً كتابات محفورة ولكنها كانت متآكلة بشكل لا يستطيع المرء أن يكتشف شكل الحروف.

وكان يوجد هنا أيضاً أساسات لأبنية عدّة، ولكنني لا أستطيع أن أقرّر فيما إذا كان يوجد أيّ مكان جدير بالملاحظة متمركزاً في هذه النواحي.

بعد ساعة من هذه الأضرحة وصلنا إلى جدول آخر أوقف مسيرتنا ثانية. هذه الأنهار الجبلية هي بصورة طبيعية غير كبيرة؛ ولكنها عرضة لأن تزداد عند هطول أمطار مفاجئة وتتسبب بهلاك كثير من المسافرين الذين سيكونون جريئين إن هم خاطروا دون نُصح فوق هذه الأنهار. ولقد توخّينا حذراً مفيداً أكثر في هذا المكان؛ ولدى مشينا حوالي ساعة أعلى بجانب الجدول وجدنا مكاناً حيث أضحت المياه بتوسعها ضحلة أكثر، وهناك ظفرنا بممرّ آمن إلى الجانب الآخر. ومن هنالك ملنا بطريقنا لنستعيد طريقنا السّابق ثانية؛ ولكننا لم نمضِ بعيداً حتى بدأت عاصفة بَرَد عنيفة جداً تبعها مطر عنيف أجبرنا على أن نستفيد من طريقنا إلى جبلة تاركين أمتعتنا لتلحق بنا على راحتها.

كان كامل مشوارنا هذا اليوم لمدة ست ساعات، حيث اتجهنا غرباً خلال السّاعة الأولى واتجهنا جنوباً بالنسبة للمدة الباقية، حيث كان البحر على يدنا اليمنى وسلسلة من الجبال على بعد حوالي ساعتين على اليسار. واستمرّ طريقنا على هذه الحالة لمدة عدة أيام فيما بعد دون أي اختلاف، عدا عن أن الجبال في بعض الأماكن كانت تقترب أكثر من البحر؛ وفي أماكن أخرى تبتعد عنه أكثر. وكانت هذه الجبال تمتدّ تحت أسماء

مختلفة في أماكن عدة على طول السّاحل ويقطنها أناس أجلاف ذوو طوائف متعددة.

الجمعة 5 مارس: أمضينا كامل هذا اليوم في جَبلة لنجهز أنفسنا بعد متاعبنا الأخيرة؛ حيث كنا نتمتع براحة خان جديد بني عند المدخل الشّمالي للمدينة، بناه أوستان[1] Ostan باشا حاكم طرابلس الحالي.

تقع جبلة بجانب البحر، ولها سهل واسع مثمر يمتدّ حولها وفي جوانبها الأخرى. وهي ذات مظهر زريّ في الوقت الحاضر؛ بالرّغم من أنها لا تزال تحتفظ بشهرة المدينة، ولا تزال تكشف عن آثار أقدام واضحة لأحوال أفضل في الأيام السّابقة. إن اسمها القديم الذي يشتقّ منه أيضاً اسمها الحالي كان جبالا Gabala؛ ومثل هذا الاسم حدث لسترابو ولجغرافيين قدماء آخرين. وفي زمن الأباطرة اليونان قد جرى تكريمها بمركز رئاسة الأسقف؛ حيث جلس فيها أحياناً سيڤيريان Severian الخصم الكبير المتآمر ضد القديس يوحنّا فم الذّهب Chrysostom.

إن الأشياء الجديرة بالملاحظة والتي تظهر هنا في اليوم الحاضر هي مسجد وبجانبه بيت صدقات أو إحسان، وكلاهما جرى بناؤهما من قبل السّلطان إبراهيم. حيث كان مدفوناً في البناء الأول وسُمح لنا بالدخول لنرى ضريحه بالرّغم من أن الأتراك احتفظوا به بوقار كبير. فوجدناه عبارة عن صندوق خشبي كبير مركّب فوق قبره ومغطى بسجادة من الخام المدهون تمتدّ وتتدلّى إلى الأرض في جميع الجوانب. وهو مبهرج أيضاً بمسابح خشبية كثيرة وطويلة تتدلى عليه، وهو يشبه إلى حدّ ما محتوى دكان بائع الأزرار. وهذه هي الطّريقة المعتادة للأتراك لتزيين أضرحة رجالهم القّيدسين كما سبق ورأيت في عدة مجالات أخرى. إن المسابح الطّويلة في هذا البلد هي إشارات لخشوع ووقار كبيرين. ورأينا في هذا المسجد عدّة مباخر كبيرة وشمعدانات للمنابر وفرش كنائس آخر، كانت غنائم من كنائس مسيحية لدى احتلال قبرص.

ويوجد حَمّام جميل جداً قرب المسجد، كما توجد بيّارة صغيرة من أشجار

(1) الصّواب في الاسم كما سنفصّل أدناه: أرسلان پاشا المَطرَه جي، والي طرابلس بين عام 1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

البرتقال؛ حيث تعوّد المسافرون بأن ينصبوا خيامهم تحت ظلالها في وقت الصّيف.

قام الأتراك الذين كانوا أدلاءنا في الجامع بتسليتنا بقصة طويلة عن السّلطان إبراهيم هـذا الـذي كان مدفوناً هناك؛ وتعرضوا خاصة لموته وزهـده في الدّنيا. وذكروا بما أنه جرّد نفسه من أملاكه الملكية تقاعد إلى هنا وعاش عشرين عاماً في كهف على السّاحل مكرساً نفسـه كلياً للفقر والعبـادة، ولكي يثبتوا صـدق مقالتهم تظاهروا بـأن يأخذونا إلى نفس الكهف الذي سـكن فيـه. وبمجيئنا إلى المكان وجدنا هنـاك كثرة من القبور المنحوتة في الصّخور على السّاحل، وذلك وفق الطّريقة القديمة للدفن في هذا البلد. ومـن بيـن هذه القبور أظهروا لنا قبراً أكدوا بأنه نفس المكان الذي مارس فيه السّـلطان المتعبد سنواته العشرين من الترويض.

ولإضافة احتمال صغير إلى القصة، أرونا على مسافة قريبة كهفاً آخر أكبر من أمثاله بمرتين ومفتوح في الأعلى، وكان له ثلاثة محاريب أو كوى للصّلاة محفورة في جانبه الجنوبي. وهذا كان مصلّى السّـلطان إبراهيم[1]، حيث كانت هذه دائماً طريقة الأتراك بـأن يصنعوا مثل هـذه المحاريب في جوامعهم وفي أماكن أخـرى للعبادة لبيان الجهة الجنوبيـة من العالم، حيث أن المسـلمين بهذه الطّريقة ملزمـون بأن يوجهوا وجوههم عندمـا يصلّـون إلـى الجهة الجنوبيـة احترامـاً لضريح نبيهـم. هـذه المحاريب يجري إحداثهـا دائماً بشـكل يشبه تلك التي كانـت تصنع للتماثيـل عادة في كل من قياسـها ومادتها وحالتها.

كنـتُ فـي بعـض الأحيـان أتفكّر لأيّ سـبب ينبغـي للأتـراك أن يحـدّدوا مثل هذه العلامـات ليوجهـوا وجوههم في الصّـلاة. وإذا جاز لي أن أتكهّن فإنـي لأعتقد بأنهم قد فعلوا ذلك مبدئياً ليبيّنوا كرههم للصّور، وليعبّروا عن كل من حقيقة الوجود الإلهي هناك وفي نفس الوقت أيضاً عن عدم رؤيته. إن رواة هذه القصة عن السّـلطان إبراهيم كانوا بغير شك مقتنعين كلياً بحقيقتها. ولكننا لم نستطع الجزم بأيّة مصداقيّة لها، حيث أننا لم نلتق أبداً بأية قصة عن سلطان كهذا، فقط من هذه القصص المتوارثة البدائية.

---

(1) هذه الرّواية برمّتها عن السّلطان إبراهيم من بنات خيال أهل المنطقة.

من هذه المعابد الإسلامية تظاهر دليلنا بأن يأخذنا إلى كنيسة مسيحية تبعد حوالي 400 متر خارج المدينة على الجانب الجنوبي. ولمّا وصلنا إليها وجدناها لا أكثر من كهف في الصّخر على ساحل البحر مفتوح على الجانب نحو البحر، وفيه كومة من الأحجار الخشنة مبنية فيه لتكون مذبحاً. ولدى رجوعنا من هذا المعبد الفقير اجتمعنا بالشخص الذي كان كاهنه، فأخبرنا بأنه هو نفسه وبعض المسيحيين الآخرين من المجتمع اليوناني كانوا معتادين بأن يجتمعوا في هذه الخلية المتواضعة للصّلاة الإلهية، حيث أنهم غير مسموح لهم بأن يكون لهم مكان للعبادة ضمن المدينة.

تبدو جَبلة بأنها كان لها منذ القدم وضع ملائم للملاحة. ولا تزال تُرى سلسلة آكام مؤلفة من أحجار ضخمة مربعة تمتد قليلاً إلى البحر، وتبدو بأنها كانت سابقاً تمتدّ أكثر وقد عُملت رصيفاً، وبالقرب من هذا المكان رأينا أعمدة كبيرة كثيرة من الغرانيت، كان بعضها بجانب الماء وبعضها الآخر قد غطس في الماء. وكانت أعمدة أخرى في حديقة قريبة مع تيجان أعمدة من الرّخام الأبيض منحوتة بدقة؛ تشهد إلى حدّ ما على البهاء القديم لهذه المدينة.

ولكن أهمّ أثر قديم في جبلة وأكبر تذكار لسموّها السّابق هي بقايا مسرح جليل عند البوّابة الشّمالية للمدينة، يعتبره الأتراك قلعة قديمة.

وما تبقّى من هذا البناء البابلي الضخم لا يتجاوز ارتفاعه عشرين قدماً. وجانبه المنبسط قد جرى نسفه بالبارود من قبل الأتراك. ومن هنا، كما قيل، قد أُخذت كمّيات كبيرة من الرّخام التي رأيناها مستعملة في تزيين حمّامهم ومسجدهم المذكور سابقاً. وكل ما هو الآن قائم منه هو نصف دائرة تمتد من الزّاوية إلى الزّاوية حوالي مئة يارد. وفي هذا الجزء نصف الدّائري يوجد صف لسبع عشرة نافذة مستديرة فوق الأرض مباشرة، وقد رُفعت في جميع الاتجاهات على قواعد عالية أعمدة كبيرة ضخمة قائمة كدعامات مقابل الجدار وذلك من أجل قوة البناء وتزيينه، ولكن معظم هذه الدّعامات الآن محطمة.

وفي الدّاخل توجد ساحة كبيرة لم يكن بالإمكان أخذ قياسها المضبوط، وذلك

بسبب البيوت التي كوّمها الأتراك فيها. وعلى الجانب الغربي لا تزال مقاعد المتفرجين كاملة، كما هو الوضع بالنسبة للسّراديب التي تمتدّ تحت المقاعد حول المسرح. وتبلغ سماكة الجدار الخارجي ثلاثة ياردات وثلاثة أرباع اليارد، وهو مبني بأحجار كبيرة جداً وقوية، وهذه القوة الكبيرة قد حفظته لهذه المدة الطّويلة من عوادي الزّمن، ومن ذلك الخراب العام الذي يجلبه الأتراك معهم إلى معظم الأمكنة التي يأتون إليها.

السبت 6 مارس: انتهينا من جبلة وانطلقنا ثانية باكراً في الصّباح التالي مع أملنا بطقس أفضل بكثير مما واجهنا في تحرّكاتنا السّابقة. تابعنا طريقنا على ساحل البحر، وفي حوالي ساعتين وصلنا إلى نهر عميق لطيف يسمّيه الأتراك نهر الملك Naher-il-Melech. فرأينا هنا بعض الأكوام من الآثار على جانبي النهر مع عدّة أعمدة من الغرانيت، وعلامات أخرى لمبانٍ كثيرة. وبعد حوالي نصف ساعة مررنا على نهر آخر يسمّى جوبر ويُظهر بقايا جسر حجري فوقه كان يوماً مبنياً بناء حسناً، ولكن الآن محطم. وعلى الجانب الآخر من النهر وفي حقل محروث كبير كان يوجد برج عظيم مربع وحوله قمامة كثيرة من الأبنية الأخرى.

لاحظنا أيضاً عبر رحلة هذا اليوم آثاراً كثيرة لقلاع وبيوت تشهد بأن هذا البلد، بالرّغم من إهماله في الوقت الحاضر، كان مرةً بأيدي شعب عرف كيف يقيّمه وفكّر بأنه جدير بالدّفاع عنه. ومن ثمّ مررنا إلى بانياس. وهذا المكان يقع على بعد أربع ساعات كاملة بعد جَبلة. وهي تقع على منحدر صغير يبعد حوالي 200 متر من البحر وفيها جدول ظريف ونقي يجري بسرعة على الجانب الجنوبي، وهي في الوقت الحاضر غير مأهولة، لكن وضعها يدلّ على أنها كانت قديماً مكان سكن متفوق. وفي هذا المكان كان من المطلوب إتاوة (خفارة) caphar أخرى.

غادرنا بانياس وتابعنا مسيرتنا على ساحل البحر، وخلال حوالي ربع ساعة مررنا بقلعة قديمة على رأس جبل عالٍ جداً. وهي مبنية على شكل مثلث متساوي الأضلاع تشير إحدى زواياه نحو البحر. والأتراك يسمونها المرقب؛ وهي ذات قيمة كبيرة جداً لدى الحضارات التي شهدتها في الأزمنة السّالفة، ولكن مهما كانت القوة التي تملكتها

قديماً، فهي في الوقت الحاضر مجرّد مسكن للرّيفيين الفقراء. هذه ربما نفس القلعة التي ذكرها أدريكوميوس وآخرون تحت اسم مرغات Margath؛ التي أُجبر أساقفة بلانيا Balanea على أن يحوّلوا مراكزهم إليها بسبب تعدّيات المسلمين.

وبعد مسافة حوالي ساعة ونصف من بانياس، وصلنا إلى جدول صافٍ صغير أغرانا بأن نقيم بقربه. ضربنا خيامنا في الحقول المفتوحة التي كانت تقع على ارتفاع حوالي 400 إلى 600 متر فوق سطح البحر؛ وكان في مرمى نظرنا على الجبال فوقنا قرية تدعى ضَهر صَفرا[1] Sophia، يسكنها موارنة فقط؛ وكانت على بُعد قليل بزّاق[2] Besack وهي قرية يملكها الأتراك وحدهم؛ وعلى مسافة قليلة منها كانت مَرقيّة[3] Merakia التي كان سكانها خليطاً من المسيحيين والأتراك سوية. وكامل مشوارنا في هذا اليوم كان حوالي ست ساعات.

الأحد 7 مارس: تحرّكنا من هذه المنطقة باكراً في الصّباح التالي. وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى نهر عميق لا بأس به يدعى نهر حسين Nahor Hussine؛ وكان فوقه جسر مؤلف من قوس واحد فقط ولكنه كان كبيراً جداً ومشيّداً بصورة حسنة للغاية. وتابعنا سفرنا على شاطئ البحر لمدة ساعة ونصف فوصلنا إلى طرطوس.

إن الاسم القديم لهذا المكان كان أورثوزيا Orthosia، وكان مركز الأسقف في محافظة صور. وكُتّاب الحروب المقدّسة يذكرونها مراراً بأنها مكان ذو حصانة كبيرة، ويمكن للمرء أن يغامر ويصدّقهم من خلال ما تبدو عليه اليوم.

يقع موقعها على ساحل البحر؛ ولها سهل واسع يمتد حولها من جوانبها الأخرى. وما تبقى منها هي القلعة التي هي كبيرة جداً ولا تزال مسكونة. ويغسلها البحر على

---

(1) يسمّيها موندرل: صوفيا، وهو غلط بالطبع.

(2) تقع قرية بزّاق إلى الجنوب من ضهر صفرا في محافظة طرطوس، ولكره أهلها لاسمها بدّلوه في عصرنا إلى: الرّوضة، لجمال طبيعتها. ومعنى اسمها القديم بزّاق: بيت الخمر.

(3) ظن دايفيد هويل أنّ موندرل يقصد بالتسمية اللاتينية قرية المقيبريّة، لكن الصواب هو مرقية التي تقع بين طرطوس وبانياس إلى الجنوب من بزّاق (الرّوضة).

جانب منها؛ وهي من الجانب الآخر محصنة بجدار مزدوج من الرّخام الخشن مبني على الطّريقة الرّيفية. ويوجد بين الجدارين خندق؛ كما يوجد خندق آخر يحيط بالجدار الخارجي. يمكنك أن تدخل هذه القلعة من الجانب الشّمالي وذلك فوق جسر قابل للسّحب يوصلك إلى غرفة واسعة القسم الأكبر منها الآن غير مغطى، ولكن كانت قديماً مغطاة بأقواس بصورة حسنة، حيث كانت الكنيسة الخاصة بالقلعة. إنها تشبه الكنيسة على أحد الجوانب وكشهادة على أنها كانت كنيسة فهي تُظهر في هذا اليوم رموزاً مقدّسة متعدّدة محفورة على جدرانها كحمامة نازلة فوق المكان الذي كان فيه المذبح، وفي مكان آخر يوجد رمز للحمل المقدّس. ولكن على الجانب الذي يواجه الخارج يوجد وجه قلعة ذات ثقوب للمدفعية عوضاً عن النوافذ.

وحول القعلة على الجانب الجنوبي والشّرقي تتوضع المدينة القديمة – التي كان لها جدار جيّد وخندق يحيط به ولا يزال منهما باقياً قسمٌ كبير. ولكن بالنسبة للأبنية أخرى فلا يوجد الآن أي شيء باق فيها، عدا كنيسة تقع على بُعد حوالي مئتي متر شرقاً من القلعة، طولها مئة وثلاثون قدماً وعرضها ثلاثة وتسعون قدماً وارتفاعها واحد وستون قدماً. وجدرانها وأقواسها وأعمدتها كانت من الرّخام غير الطّبيعي وجميعها لا تزال كاملة، بحيث أن نفقة صغيرة ستكون كافية لإرجاعها ثانية إلى وضعية كنيسة جميلة. ولكن لحزن أي شخص يعتنق المسيحية فإنهم جعلوها الآن مربطاً للأبقار، وعندما ذهبنا لنراها أصبحنا تقريباً إلى ركبنا في الأوساخ والوحل.

* * *

ومن طرطوس أرسلنا أمتعتنا قبلنا مع الأوامر بالتقدّم عدة أميال أكثر نحو طرابلس، بقصد أننا يمكن أن نقصر رحلتنا إلى ذلك المكان في اليوم التالي. تابعنا سيرنا وبعد وقت قليل حوالي ربع ساعة وصلنا إلى نهر أو بالأحرى مجرى نهر لأنه كان الآن تقريباً جافاً. وممّا لا يدعو للسؤال هنا أنه كان قديماً جدولاً غير كبير؛ وذلك بما يمكن أن نستنتجه من كلّ من حجم القناة وبقايا جسر حجري وضع سابقاً فوقه.

وبعد حوالي نصف ساعة أتينا إلى مواجه جزيرة صغيرة تبعد عن السّاحل حوالي

ثلاثـة أميـال ويدعوها الأتراك أرواد. ومن المعتقد أنها هـي أرفاد أو أرباد القديمة التي لها عدّة أسماء. ويبدو طولها للعين بأنها ليست أكثر من أربعمئة أو ستمئة متر، وكانت مكتظة كلياً بأبنية عالية تشـبه القلاع. وكان السّـكان القدامى لهذه الجزيرة مشـهورون بالملاحة، وكانت لهم القيادة على البرّ حتى جبلة.

وبعـد حوالـي ربع سـاعة وصلنا مـع بغالنـا؛ الذين كانوا قـد ضربوا خيامنـا قبل أن يذهبـوا إلى حيث قصدنا. ولكنهم عوّضوا عن سـوء الحمل هـذا بطبيعة المكان حيث توقفـوا، لأنـه قدّم لنا تسـلية برؤية عـدة آثار قديمـة جديرة بالملاحظـة، والتي كان من الممكـن أن نمرّ بهـا دون أن نلاحظها. وكان ذلك في بقعة أرض خضراء مسـتوية تقع على بعد سـاعة من طرطوس وباتجاه الجنوب من أرادوس (أرواد)، وحوالي ربع ميل من البحر. وكان فيها ينبوع جيد بالرّغم من اسمه السّيء، إذ كان يدعى عين الحيّة The Serpent Fountain.

وكان أول أثر قديم لاحظناه خندقاً كبيراً بعرض ثلاثين ياردأ من الأعلى محفور في الصّخر الصّلـب. وانحدرت جوانبه بدرجات من الصّخر الطّبيعي، وهو ينزل تدريجياً مـن الأعلى إلى الأسـفل. وقـد امتدّ هذا الخندق بخط مسـتقيم شـرقاً وغرباً لأكثر من مئتـي متر، ولا يـزال يحمل نفس عدد الدّرجات الممتدة بخطوط مسـتقيمة على طول جميـع جوانبه. وانقطع أخيراً في أرض مسـطحة مسـتنقعية، تمتدّ حوالـي أربعمئة متر بينهـا وبيـن البحر. ومن الصّعب أن نتصوّر أن الماء قد جـرى بزمانه إلى هذا الارتفاع؛ ومن الأصعب أن نقرّر لأيّ سبب بُذل هذا الجهد كله لحفر الصّخر بهذه الطّريقة. كان هـذا الخندق على الجانب الشّـمالي لعين الحيّة؛ وتماماً علـى الجانب الآخر منه رأينا عن بُعد أثراً قديماً آخر أثار ملاحظتنا.

كانت توجد باحة مسـاحتها حوالي خمسـة وخمسين ياردأ مربعاً، قُدّت في الصّخر الطّبيعي، وكانت جوانـب الصّخر المحيطة بها بارتفاع ثلاثة ياردات. وهي محاطة على جوانبهـا الثّلاثـة، ولكنها كانت مفتوحة من الجانب الشّـمالي في وسـط هذه المنطقة، كانت لا تزال قطعة من الصّخر موجودة بارتفاع ثلاثة ياردات وخمسة ياردات ونصف

مربعـة. وكانـت هذه كقاعدة لعرش رُكّب عليها. وكان العـرش مؤلفاً من أربعة أحجار كبيـرة: اثنين علـى الجانبين وواحد في الخلـف وحجر آخر في الأعلى بشـكل مظلة. وكان ارتفاع التركيبة كلها حوالي عشـرين قدمـاً متجهة نحو ذلك الجانب حيث كانت السّـاحة مفتوحة. وكان الحجر الذي صنعت منه المظلة خمسـة يـاردات وثلاثة أرباع اليارد مربعة، وكان محفوراً بإفريز أنيق.

ولم نسـتطع أن نتصوّر لماذا جرى تصميم كل هذا البناء؛ إلا ربما أن السّـاحة كانت معبداً وثنياً، وكانت الكومة في الوسـط لعرش الصّنم؛ حيث هذا يبدو الأكثر احتمالاً، وبخصوص أن هرقل، أي الشّـمس، البغيض الأكبر للفينيقيين، كان معتاداً بأن يُعبد في معبد مكشـوف. وفي الزّوايا الدّاخلية للسـاحة وكذلك على الجانب المكشوف كانت توجـد أعمـدة من الصّخر الطّبيعـي؛ ثلاثة في كل زاويـة من الزّوايا السّـابقة واثنان في الزّوايا اللاحقة.

وعلـى بُعد حوالي نصف ميل إلى جنوب الآثار القديمة السّـابق ذكرها، كان يوجد علـى مرمـى النظر بُرجـان، ولكن بحلول الظـلام أجبرنا بأن نؤجل فحصنـا لهما حتى الصّباح التالي. وكامل مشوارنا في هذا اليوم لم يتجاوز ست ساعات.

الاثنيـن 8 مـارس: بما أننا قضينـا ليلة غير مريحة في أرض مسـتنقعية وغير صحية، فقد استيقظنا باكراً لنأخذ منظراً أقرب للبرجين المذكورين سابقاً. فوجدناهما تذكارين قبريين منصوبين فوق تربتين. وكانا يبعدان بعضهما عن الآخر حوالي عشرة ياردات.

وكان ارتفاع البرج حوالي ثلاثة وثلاثين قدماً، وأطول حجر فيه كان بارتفاع عشـرة أقدام وخمسـة عشـر قدماً مربعاً؛ وكان البناء العلوي الـذي كان فوقه أولاً حجر طويل بشكل أسطوانة، ومن ثم حجر آخر مقطوع على شكل هرم.

وكان ارتفـاع البرج الآخر ثلاثين قدماً وإنشـين. وكان ارتفاع قاعدة هذا البرج سـتة أقدام ومسـاحته ستة عشر قدماً وستة إنشـات مربعة. وكان مدعوماً بأربع أسود الواحد منها محفور في كل زاوية من القاعدة. وكان الحفر خشـناً جداً ولكنه أصبح مع الزّمن

أسوأ بكثير. وكان القسم الأعلى الموضوع في خلف القاعدة حجراً واحداً.

وكان تحت كل من هذه المداخل إليها على الجانب الجنوبي. وكلفنا الدّخول إليه بعض الوقت والجهد؛ وقد عرقلت الطّرقات أعشاب وأوساخ، وعلى كل حال أزلنا هذه العوائق مشجعين أنفسنا بالآمال أو بالحريّ جعلنا أنفسنا فرحين بكنز مخبأ. ولكن حالما دخلنا إلى السّراديب وجدنا بأن تصوراتنا الذهبية قد انتهت كما تنتهي جميع الآمال والمشاريع الدّنيوية أخيراً بالغبار والعناء. ولكن على كل حال لا يمكن لذلك أن ينتهي بغير تعويض لأتعابنا، فحصلنا على مسحٍ مضبوط بقدر ما استطعنا لغرف الظلام هذه.

بالنزول سبع أو ثمان درجات، تصل إلى فتحة القبر؛ ثم بالزحف إلى داخله تبلغ غرفة عرضها تسعة أقدام وإنشان وطولها أحد عشر قدماً. بالذهاب إلى اليمين وبالدخول عبر ممرّ ضيق، تصل إلى غرفة عرضها ثمانية أقدام وطولها عشرة أقدام. ويوجد في هذه الغرفة سبعة معازب للجثث، أي اثنتان فوق ومقابل المدخل، وأربعة على جهة اليسار وواحدة غير منتهية إلى اليمين. ونُحتت هذه الزّنزانات مباشرة في الصّخر الصّلب. قمنا بقياس عدة منها فوجدناها ثمانية أقدام ونصف طولاً وثلاثة أقدام وثلاثة إنشات مساحة مربعة. وإنني لا أستنتج من ذلك بأن الجثث المدفونة هنا كانت ذات قياس ضخم بحيث تملأ توابيت كهذه. بالرّغم من ذلك وفي الوقت ذاته، لماذا ينبغي لأي رجال بأن يكونوا مسرفين إلى هذا الحدّ بعملهم، فينحتون هذه الكهوف في صخر صلب كهذا، أكثر بكثير ممّا تتطلبّه الضرورة؟

وفي الجانب الآخر من الغرفة ثمّة ممرّ ضيق بطول سبعة أقدام يؤدّي إلى الغرفة التي كانت أبعادها تسعة أقدام عرضاً واثني عشر قدماً طولاً. وكان فيها إحدى عشرة زنزانة ذات قياس أقل من السّابقات وتتوزع على مسافات متساوية حولها.

وبالخروج من غرفة في الأمام تجد مدخلين ضيقين كل منهما بطول سبعة أقدام يقود إلى غرفة. وكانت هذه الشّقة تسعة أقدام مربعة؛ ولم يكن فيها معازب كالأخريات ولا أيّ شيء آخر جدير بالانتباه؛ ولم يكن سوى مقعد منحوت على طول جانبها على

الجهـة اليسـرى. ومن وصف هذا الضريح من السّـهل أن نتصـوّر ترتيب الآخر. وكان ارتفاع الغرف في كليهما حوالي سـتة أقدام؛ وكانت الأبراج مبنية كل منها فوق أقصى داخل غرفة الأضرحة الخاصة بها.

وعلـى بعـد حوالي سـبعة أقدام من هـذا المكان أبصرنـا برجاً آخر يشـبه هذا الذي وصفناه مؤخراً، وكان مبنياً بصورة مشابهة فوق ضريح، وكان من الملاحظ هذه الغرابة في هذا الضريح الأخير؛ حيث كانت معزبة محفورة في الصّخر بطول ثمانية عشر قدماً، وذلـك ربمـا بقصد أن تدفن في كل منها جثتـان أو ثلاث جثث. ولكن بما أنه كان لدينا مشـوار طويـل هذا اليوم إلى طرابلـس، فقد فكرنا بأنه ليس مـن الموافق أن نمضي أيّ وقت آخر في هذا المكان الذي كان من الممكن أن يقدّم لنا عدة معالم أثرية أخرى.

ولكن بالرّغم من سـرعتنا كلها لم نبتعد بأكثر من ميل حتى اسـتوقفت فضولنا ثانية ملاحظـة بـرج آخر، ظهر في أيكة ليسـت بعيدة مـن جانب الطّريـق. كان ارتفاعه ثلاثة وثلاثيـن قدماً ونصف، ومسـاحته واحـداً وثلاثين قدماً مربعـاً. وكان مؤلفاً من أحجار مربعـة ضخمـة ومزخرفة بإفريز أنيـق حول الأعلى كله. كان يحـوي على غرفتين فقط واحدة فوق الأخرى. وكان يوجد لكل منهما مدخل على الجانب الشّمالي عبر حفرتين مربعتين في الجدار. إن الفصل بين كل من الغرفتين، وأيضاً الغطاء في الأعلى، لم يكن مصنوعاً بمداميك مقوسـنة، بل بأحجار واسـعة منبسـطة سـمكها أربعة أقدام وواسعة بشـكل كبير بحيث كان اثنان منهما فقط في كل مكان كافيين لتغطية كامل البناء. وهذا البناء قديم جداً وربما كان موضع ضريح.

ينبغي لي ألا أنسـى بأنـه حوالي عين الحيّـة The Serpent Fountain، وأيضاً على بعـد هـذا البرج الأخير رأينا كثيـراً من القبور والينابيع القديمـة، وآثاراً أخرى يمكن أن نستنتج منها بكل تأكيد بأنه كانت هنا منطقة سكن في الأزمنة الغابرة.

لـدى مغادرتنـا هـذه الآثار دخلنا إلى سـهل فسـيح يمتد بعرض واسـع بيـن البحر والجبـال، وطولـه يصل تقريباً إلـى طرابلس. وسـكان البلد يدعونه جونيـة Junia أي السّـهل؛ وهم يطلقون عليه هذا الاسـم بسبب اتسـاعه وامتداده الواسع. استغرقنا سبع

ساعات كاملة في اجتيازه، ووجدناه على طوله كله مثمراً بشكل وفير للغاية، وذلك بسبب أنهاره الكثيرة والماء الغزير الذي يتمتع به. والنهر الأول من هذه الأنهار يقع على بُعد حوالي ست ساعات قبل أن تصل إلى طرابلس. وله فوقه جسرٌ ذو ثلاثة أقواس كبيرة، وهو أكبر نهر في كل السّهل ولهذا السّبب يسمّى بالنهر الكبير(1).

وبعد حوالي نصف ساعة تصل إلى نهر آخر يسمّى نهر الأبرش(2) (ومعناه: الأبرص(3)) Nahor Abrosh، وبعد ثلاثة أرباع السّاعة تصل إلى نهر ثالث يسمّى نهر عكّار Nahor Acchar، وله جسر حجري أنيق ذو قوس كبير مشيّد عليه. وبعد ساعتين كاملتين تصل إلى نهر رابع يسمّى نهر البارد Nahor el Bered ذي جسر له ثلاثة أقواس فوقه. ومن هنا وبعد ساعتين كاملتين تصل إلى طرابلس.

الثلاثاء 9 مارس: باتجاهنا نحو طرابلس كان بغّالونا خائفين من أن يتقدموا خشية أن يتم إجبار حيواناتهم على السّخرة العامة. حيث حصل لهم ذلك فيما بعد بالرّغم من كل حذرهم، مما أثار غيظنا الكبير. وهكذا تركناهم في سهل جونية Junia وتابعنا مسيرتنا نحو طرابلس، التي وصلناها حوالي غروب الشّمس. وكان كامل مشوارنا في هذا اليوم لمدة عشر ساعات.

استرحنا في طرابلس أسبوعاً كاملاً، حيث جرى الاحتفاء بنا بكرم كثير من قبل القنصل مستر فرانسيس هيستينغز Francis Hastings والتاجر مستر جون فيشر John Fisher اللذين كان داراهما البيتين الإنكليزيين الوحيدين في طرابلس.

تقع طرابلس على بُعد حوالي نصف ساعة من البحر. ويقع القسم الأكبر من المدينة

---

(1) أي النّهر الكبير الشمالي.

(2) نهر الأبرش نهر ساحلي يجري في محافظة طرطوس، طوله حوالي 45 كم، ويتشكل من اجتماع عدّة ينابيع سيليّة في المنطقة الجنوبية لجبال اللاذقيّة، أهمها: العديدة، الشيخ حسن، البحاص، النّهر الصغير. وترفده في مجراه الأوسط عدّة ينابيع أهمها: عين سركيس، عين مريزة، عيون الغار، وادي القرناصة، وادي الكروم.

(3) هذا ليس بصحيح، فالأبرش لا يعني الأبرص في العربيّة.

بين تلّتين؛ إحداهما في الشّرق عليها قلعة تتحكّم بالمكان؛ والأخرى في الغرب بين المدينة والبحر. ويقال إن هذه التلة الأخيرة قد نُصبت أولاً ولا تزال تزداد بالصّعود اليومي للرّمل الذي يسفو إليها من الشّاطئ، وثمّة تنبؤ بأن كامل المدينة مع الزّمن ستطمرها هذه التلة الرّملية. ولكن يبدو بأن الأتراك ليسوا سريعي الفهم لهذا التكهّن؛ لأنهم بدلاً من أن يمنعوا نموّ التلة فقد تركوها تأخذ مجراها وجعلوها مرتعاً للنّزهة والانشراح ولم يكن لديهم رغبة فعليّة للقيام بذلك، ولم يدركوا أنها ستكون يوماً ما قبراً لهم.

الأربعاء 10 مارس: احتفى بنا جميعاً في هذا اليوم مستر فيشر في الهواء الطّلق. وكان المكان حيث تناولنا العشاء عبارة عن وادٍ ضيق بهيج بجانب نهر يبعد عن المدينة حوالي ميل شرقاً. وتمتد عبر الوادي من تلة إلى تلة قناة عالية أنيقة تحمل فيها كمية كبيرة من الماء بحيث تكفي كل المدينة. وكانت تدعى جسر الأمير، ومن المفترض بأنها كان بناها غودفروا دي بويّون.

الخميس 11 مارس: تعشينا جميعاً في هذا اليوم في دار القنصل هيستينغز، وبعد العشاء ذهبنا لزيارة أوستان[1] Ostan، باشا طرابلس؛ حيث كنا قد أرسلنا هديتنا سابقاً، وهذه هي العادة بين الأتراك للحصول على استقبال لائق.

ومن المعتبر في هذا البلد بأنه من غير اللائق أن تقوم بزيارة دون تقديم هدية، ويتوقع جميع الرّجال العظماء الهدية كنوع من التقدمة بالنظر لشخصيتهم وسلطتهم؛ وعندما لا تتم هذه المجاملة ينظرون إلى أنفسهم بأنهم أُهينوا وحُطّ من قدرهم حقاً. حتى في الزّيارات المألوفة بين الأشخاص العاديين، نادراً ما تراهم يأتون دون أن يجلبوا معهم وردة أو برتقالة أو أيّة إشارة أخرى تدل على احترامهم للشخص المزار. إن الأتراك

---

(1) هكذا يكتب موندرل الاسم، والصّواب أنه أرسلان باشا المَطرَه جي، الذي ولي طرابلس في عام 1693، ثم في عام 1697 نُقل من إيالة طرابلس إلى إمارة الحج، وعُيّن مكانه أخوه قبلان باشا. ثم في عام 1698 عاد أرسلان باشا مرة ثانية على ولاية طرابلس، ونُقل أخوه قبلان باشا إلى صيدا. وبقي أرسلان باشا في منصبه حتى 1704 على الأقل.

بالنسبة لهذه النقطة يحافظون على العادة الشّرقية القديمة.

الجمعـة 12 مارس: ذهبنا بعد الظهر لزيـارة البلمند Bell-mount وهو دير لليونان يبعد حوالي سـاعتين جنوبي طرابلس. كان قد أسّسـه أحد كونتات طرابلس، وهو يقع فـوق جبـل صخري عالٍ جداً ويطـلّ على البحر، وهو مكان يصعـب الصّعود إليه جداً بالرّغـم من أنه قد تم تسـهل الصّعود إليه بعمل الخوارنة الفقراء. ومن حسـن حظنا أن وصلنا إلى هناك تماماً عندما كانوا ذاهبين إلى صلاتهم المسائية. إن معبدهم كبير ولكنه مظلـم؛ والمذبـح محاط بمكان الكهنة بحيث لا يمكن الاقتراب منه لأيّ امرئ سـوى الكاهـن، وذلك وفق طريقة الكنائس اليونانية. ويدعون إلى تجمّعهم سـوية بإحداث صـوت بالضرب بمطرقتين على قطعة متدلية من لوح ثخين على باب الكنيسـة؛ حيث أان الأتراك يبغضون الأجراس.

وتتألـف عبادتهـم مـن تميمة صلـوات معيّنة سـريعة لا تتصف بأيّ وقار، وأناشـيد لمخلّصنا المبارك وللعذراء المباركة وبعض الطّقوس المظلمة.

وكان كهنـة هذا الدّير، على ما أتذكـر، أربعين، ووجدناهم على ما يبدو ذوي طبيعة جيدة جداً وجديين، لكنهم كانوا بالتأكيد جهلة لحدّ بعيد.

وهذا الجهل لا يدعو للعجب كثيراً؛ لأن فترات الوقت بين ساعات عباداتهم فإنهم مجبرون ألا يقضوها في الدّراسة ولكن بالعناية بأسرهم وزراعة أراضيهم وتقليم كروم عنبهـم والعمليـات الزراعية أخرى التي ينجزونهـا بأيديهم. فهم مجبـرون بأن يقوموا بهـذه المشـقة ليس فقط ليؤمّنوالوسـائل معيشـتهم، ولكـن أيضاً لكي يكونـوا قادرين علـى أن يفوا بالضرائب غير المعقولة التي يمكن أن يفرضها الأتراك الجشـعون والتي يبتدعونها تحت أيّة حجّة. ولكن يمكن أن يكون من الأحسن أن نحزر من أي نوع من الرّجال يكون هؤلاء الكهنة، وسأضيف هذه الإشارة الإضافية، أي: أن نفس الشّخص الـذي رأيناه يقوم بالصّلاة عنـد المذبح بثوبه الكهنوتي المطرّز جلب لنا على ظهره في اليوم التالي جدياً وقربة جلد عنزة من الخمر، وذلك كهدية من الدّير.

السبت 13 مارس: ذهبنا هذا الصّباح ثانية لزيارة أوستان[1] باشا بناء على موعد معه؛ وجرت ضيافتنا كما في المرة السّابقة بلطف كبير؛ لأنه ينبغي أن نعلم بأن الأتراك لا يجهلون المدنية وفنون اللباقة، بل يمكنهم القيام بها بكثير من الدّقة كأيّة أمة أخرى عندما يودّون أن يُظهروا كرمهم. ولفهم أحسن لذلك فإنه لا يمكن أن يكون وصف احتفالات بزيارة تركية غير مناسب أو ممتع، بما أنهم أصبحوا تحت ملاحظتي، إما بهذه المناسبة أو بمناسبات أخرى.

عندما تقوم هنا بزيارة لشخص هام، فينبغي أن ترسل شخصاً مسبقاً معه هدية ليطلب سابقاً دخولك، ولكي تعلم في أيّة ساعة يمكن لمجيئك أن يكون أكثر ملاءمة. وعندما تأتي إلى البيت يستقبلك الخدّام عند البوّابة الخارجية ويقودونك نحو شقة سيدهم؛ ويجتمع بك على الطّريق خدّام آخرون، أعتقد بأنهم ذوو مرتبة أعلى، في مراكزهم المتعدّدة كلما اقتربت أكثر من الشّخص الذي تزوره. وعندما تدخل غرفته تجده مستعد لاستقبالك إما واقفاً إلى جانب الدّيوان أو مستلقياً على إحدى زواياه وذلك وفق ما يظنه مناسباً للحفاظ على تمييز أكثر أو أقل. وهذه الدّواوين هي عبارة عن نوع من الدّكات المنخفضة موضوعة في أظرف قسم من الغرفة وارتفاعها حوالي ستة عشر أو ثمانية عشر إنشاً أو أكثر فوق الأرض. ممدود عليها سجاد ومفروشة من جميع الجهات بمخدّات طويلة للاتكاء عليها. إن الأتراك على هذه الدّواوين يأكلون وينامون ويدخنون ويستقبلون الزّوار ويقرؤون صلواتهم؛ وكل بهجتهم هي بالتراخي عليهم وبفرشها بشكل باذخ، وهو غاية ترفهم.

وعندما تصل إلى جانب الدّيوان تخلع حذاءك وترتفع لتأخذ مكانك؛ على ركبتيك وواضعاً يديك بصورة رسمية أمامك. ويجب أن تبقى هكذا حتى يدعوك الرّجل ذو الشّأن بأن تقترب وتضع نفسك في وضع أكثر راحة باستنادك إلى المخدّة. وبوضعك هذا فهو يتحدّث إليك حسب ما تقتضيه المناسبة. ويقف الخدم حولكما كل الوقت

---

(1) ذكرنا أعلاه أن الصّواب في الاسم: أرسلان باشا المطره جي، والي طرابلس بين عام 1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

بعـدد كبير، مع أشـد الاحترام والسّـكوت والنظام الممكن تصـوره. وعندما تكون قد تحدثـت حول عملـك أو المجاملات أو أي موضوع آخر، يقوم بإعطاء إشـارة لتقديم أشـياء الضيافـة التي هـي بصورة عامة قليل مـن الحلوى وكأس شـراب وآخر للقهوة، يجـري إدخالها جميعاً مباشـرة من قبل الخدم وتقدّم لجميـع الضيـوف بانتظام مع أكبر العنايـة والمهابة التي يمكن تصورها. وعندهم سـبب لأن يهتمـوا بها، لأنه إذا ارتكب أي خـادم أقـل هفـوة أو غلطة إما بتقديم أو اسـتلام طبقه فمن الممكـن أن يكلفه ذلك خمسين وربما مئة ضربة بالعصا على قدميه العاريتين ليكفّر عن جريمته.

وأخيراً يأتي القسـم النهائي لضيافتك ألا وهـو تعطير لحى المجموعة؛ وهذا عُرفٌ يعني تلميحاً لبقاً للزوار بالانصراف؛ مشـيرين لهم بأن سـيد الدّار لديه عمل أو شـغل للقيام به حيث يُسـمح لهـم بأن ينصرفوا حالما يريدون والأسـرع بعد هذا الاحتفاء هو الأحسن.

* * *

بعد إنهاء زيارتنا لأوسـتان[1] باشـا ركبنا خارجين بعد العشـاء لنرى البحرية، وهي حوالي مسـافة نصف سـاعة من المدينة. إن المرفأ هو بحر مفتوح أكثر منه ميناء مغلق؛ وعلـى كل حـال فإنه محمي في جـزء منه من قوة الأمواج بجزيرتيـن صغيرتين حوالي فرسـخين من الشّـاطئ؛ تدعى الأولى الطّير[2] والأخرى جزيرة الأرنب[3] وقد سمّيت بتلـك من المخلوقـات التي تنتجها كلّ منهمـا. ولحمايتها من القراصنـة فإن فيها عدة قلاع أو بالأحرى أبراج مربعة، مبنية على طول الشّـاطئ على مسافات مناسبة. وأعتقد أنّ عددها ستٌّ؛ ولكنها حالياً خالية من جميع أشكال القوة بالنسبة للرجال والذخيرة.

---

(1) ذكـرنا أعـلاه أن الصّـواب فـي الاسم: أرسلان باشا المطره جي، والي طرابلس بين عام 1693-1697 م، ثم بين عام 1698-1704 م.

(2) الجزر الواقعة قبالة طرابلس ثلاث: سنتي ورامكين وجزيرة الأرانب، وتدعى مجموعة بجزر النّخل.

(3) المقصود جزيرة الأرانب كما قلنا.

وتظهر في الحقول قرب الشّاطئ أكوام كثيرة من الآثار وأعمدة الغرانيت وعدة مؤشرات أخرى بأنه كان هنا قديماً بعض الأبنية الكبيرة في هذا الطّريق.

الأحد 14 مارس: تابعنا إقامتنا في طرابلس.

الاثنين 15 مارس: قرّرنا بأن نتابع رحلتنا في هذا اليوم، فأعطينا الأوامر لبغّالينا قبل بعض الوقت ليستعدوا لخدمتنا. ولكنهم كانوا خائفين جداً من خدم باشا صيدا الذين كانوا في الخارج بطلب بغال لخدمة سيّدهم حيث كانوا قد فرّوا ولم يُسمع عنهم. كانت تلك خيبة أمل سبّبت لنا كثيراً من المضايقة ولم تترك لنا أيّ مخرج آخر سوى أن نزوّد أنفسنا بحيوانات جديدة حيث نستطيع إيجادها.

بعد كثير من الإزعاج وترتيب أنفسنا في وضع جديد للسفر، غادرنا طرابلس في السّاعة الثّالثة بعد الظهر. تابعنا سيرنا قريباً من البحر ووصلنا بعد ساعة ونصف إلى القلمون[1] وهي قرية صغيرة تماماً تحت دير البلمند Bell-mount. وتقدّمنا من هنا حتى حوالي السّاعة الثّامنة حيث وصلنا إلى رأس عالٍ يقع مباشرة عبر طريقنا وينقطع فجأة على ساحل البحر، ومن ثم رأس عالٍ جداً وتقريباً عمودياً. ولكي نقطع هذا الحاجز اتجهنا إلى جهة اليسار إلى وادٍ ضيق حيث كان يقع طريقنا. وبما أن الوقت كان متأخراً اتخذنا مواقعنا هناك تحت بعض أشجار الزّيتون واستغرق ذلك حوالي خمس ساعات.

الثلاثاء 16 مارس: لم نكن قد تحركنا كثيراً هذا الصّباح حتى شغلنا العمل الصّعب لاجتياز الرّأس المذكور سابقاً. يقع الممرّ فوقه على ارتفاع حوالي ميل فوق البحر، ووجدناه منحدراً جداً ومعرقلاً؛ ولكن سيطرنا عليه خلال ساعة ووصلنا إلى وادٍ ضيق على الجانب الآخر، ممّا جعل البحر مفتوحاً لنا ثانية. تقع قرب مدخل هذا الوادي قلعة صغيرة مبنية على صخرة عمودية على جميع الجهات، وكانت جدران الأبنية مناسبة تماماً لجوانب الصّخرة وظهرت كأنها تقريباً قطعة متمّمة لها. تسمّى هذه القلعة

---

(1) تقع القلمون على بعد 7 كم من طرابلس، ويجاورها من جهة الشرق رأس مسقا، ومن الغرب قلحات.

مسيلحة[1] Temseida وتسيطر على الممرّ إلى الوادي.

بعد حوالي نصف ساعة من هذا المكان أتينا إلى محاذاة البَترون[2] Patrone؛ وهو مكان يُظن بأنه بطرس Botrus القديم. وهو واقع قريباً من البحر؛ وبما أن طريقنا يقع نوعاً ما في أرض أعلى فقد تنحّينا قليلاً عن الطّريق لنراها. ووجدنا فيها بعض آثار كنيسة ودير قديمين؛ ولكنهما الآن مهدّمان كلياً ومدمّران، وذلك كبقية المدينة بكاملها. ولا يوجد فيها أي شيء باقٍ يدلّ على أنها كانت مكاناً ذا شأن كبير.

ووصلنا في حوالي ثلاث ساعات إلى جبيل التي يسمّيها اليونان ببيلوس Byblus. وهي واقعة بشكل مسار على شاطئ البحر، وهي تحوي في الوقت الحاضر على امتداد صغير للأرض، وذلك أكثر من كاف للعدد الصّغير من سكانها. وهي محاطة بخندق جاف وجدار ذي أبراج مربّعة يبعد كل منها عن الآخر حوالي أربعين يارداً، وفي جانبها الجنوبي قلعة قديمة؛ وفي داخلها كنيسة وهي تماماً بنفس الشّكل كتلك التي في طرطوس إلا أنها ليست كاملة كتلك. وعدا عن ذلك ليس فيها شيء جديد بالملاحظة، غير أنها بالنسبة للقدم كانت عبارة عن مكان غير معتدل الامتداد والجمال؛ كما يمكن أن يبدو من الأكوام الكثيرة للآثار والأعمدة الملساء المبعثرة هنا وهناك في الحدائق قرب المدينة. وعلى الأرجح أنّ جبيل هي بلد الجبليين Giblites المذكورين في سفر يوشع، (13: 5).

وبعد مغادرتنا جبيل وصلنا خلال ساعة إلى نهر كبير لا بأس به، وله جسرٌ حجري فوقه ذو قوس واحد فقط ولكنه كان عريضاً وعالياً للغاية. والأتراك يسمّون هذا النهر بنهر إبراهيم باشا[3]، ولكنه دون شك نهر أدونيس القديم الشّهير بالصّيت السّيء

---

(1) هي قلعة المسيلحة في بلدة حامات التابعة للبترون، وتمثل نقطة استراتيجية بين البترون وطرابلس على الضفة اليمنى لنهر الجوز جنوبي رأس الشقعة، ويعود بناؤها إلى أيام الصليبيين، وجدّد بناءها الأمير فخر الدّين المعني عام 1624 م.

(2) مدينة ساحليّة صغيرة معروفة في شمال لبنان، فيها غابة أرز بأعالي قرية تنّورين.

(3) ما زال يعرف إلى يومنا الحاضر بنهر إبراهيم، أجتازُه يومياً في طريقي من جبيل إلى جونية فبيروت.

وبالشعائر الوثنية التي كانت تُقام هنا رثاء لأدونيس. وعلى ضفّة هذا النهر أقمنا في الليلة التالية، حيث استغرقت رحلتنا هذا اليوم مدّة ست ساعات، وقضينا ليلة عاصفة بالرّيح والمطر دون توقف، وبهذا العنف الكبير لم يستطع خدّامنا بأن يحافظوا على خيمنا فوقنا. غير أن هذا الحادث الذي سبّب لنا كثيراً من الإزعاج في الليل عوّض علينا بالفضولية التي قدمت لنا فرصة إبصار الصّباح التالي.

الأربعاء 17 مارس: لأنه بهذه الوسيلة كان لنا الحظ بأن نرى ما يمكن أن يعتقد بأن الفرصة لتلك الفكرة التي يربطها لوقيانوس بهذا النهر، أيّ أن هذا النهر في فصول معينة من السّنة وخاصة عند احتفال أدونيس يكون ذا لون دموي؛ حيث أن الوثنيون نظروا إلى ذلك بأنه ناتج عن نوع من الحداد يبديه النهر لموت أدونيس الذي قتله خنزير بري في الجبال التي ينبع منها هذا النهر، ورأينا أن شيئاً كهذا قد حصل بالفعل؛ لأن الماء قد صُبغ بلون حُمرة مذهلة، كما لاحظنا في سفرنا، وغيّر لون البحر إلى مسافة كبيرة إلى لون محمرّ؛ وكان سبب ذلك دون شك نوع من الزّيرقون أو التراب الأحمر الذي غُسل إلى النهر بسبب عنف المطر وليس بسبب أيّ تلوّث من دم أدونيس.

وبعد ساعة وربع من هذا النهر مررنا فوق أسفل جبل الذّروة Clymax؛ وبعد مسيرنا عبر ممرّ وعر وغير مستوٍ وصلنا إلى خليج كبير يدعى جونية Junia. ولدى المدخل الأول إلى الخليج يوجد جسر حجري قديم[1] يعيّن الحدود بين طرابلس وصيدا. وتوجد في أسفل الخليج جبال عالية ومنحدرة للغاية، حيث يقع الطّريق بينها وبين البحر. وهذه هي جبال كسروان التي يسكنها الموارنة بصورة رئيسية، وهم مشهورون بصنع النبيذ الممتاز. وأسقف حلب له هنا مسكنه في دير هو حاميه. ورأينا أديرة صغيرة وكثيرة أخرى على أعلى هذه الجبال؛ ويدعى أحدها غَزير Oozier، كان كما أخبرونا هنا بأيدي عشرة أو اثني عشر راهباً لاتينياً.

(1) هو جسر المعاملتين الرّوماني القديم، ما زال ماثلاً للعيان وهو مبني بحجارة ضخمة، ويظهر إلى يسار المتجه من المعاملتين إلى جونية مباشرة.

ونحو الجانب الأبعد من الخليج، وصلنا إلى برج أو قلعة مربعة[1] كان يوجد من نوعها الكثير على طول السّاحل بالنسبة لرحلة أيام عديدة من هذا المكان؛ ويقال إنها بنتها الإمبراطورة هيلينا لحماية البلد من القراصنة. وعند هذه القلعة أو البرج يتوجّب دفع رسم رابع يأخذه الموارنة، وهم عبارة عن مجموعة من المحتالين الأوغاد أكثر ابتزازاً ووقاحة في منطقتهم من الأتراك أنفسهم. وبعد قليل من هذا المكان وصلنا إلى طريق منحوت عبر الصّخور، أخرجنا من الخليج حيث استغرق قطعه ساعة وربع. وخلال ساعة أخرى قضيناها في طريق وعر جداً قريب من البحر وصلنا إلى نهر ليكوس Lycus الذي يسمّى أحياناً أيضاً كانيس[2] Canis، ويسمّيه الأتراك في هذه الأيام نهر الكلب Nahor Kelp، الذي اشتق اسمه من صنم على شكل كلب أو ذئب كان يُعبد، ومن الواضح كما كان غير حقيقي وجود وَحي في هذا المكان.

ويجري هذا النهر إلى البحر من بين جبلين منحدرين وعاليين للغاية؛ وصخريين بشكل أنهما يبدوان بأن كل منهما يتألف من حجر كامل. ولقطع النهر يجب أن تصعد بين هذين الجبلين حوالي رمية قوس من البحر حيث تجد جسراً جيداً ذا أربعة أقواس؛ وتوجد قرب أسفله قطعة من الرّخام الأبيض موضوعة في جانب صخرة عليها كتابة عربية تشير إلى مؤسّسه الذي كان الأمير فخر الدّين، الذي سأتكلم عنه أكثر عندما آتي إلى بيروت.

وبعد قطع النهر تبدأ مباشرة بصعود الجبل، أو بالأحرى الصّخرة الكبيرة المعلقة فوقه من ذلك الجانب. ولتأمين الاجتياز كان هناك ممرٌّ أكثر من ياردين عرضاً محفور على جانبه، وذلك على ارتفاع كبير فوق الماء. وكان ذلك من شغل الإمبراطور أنطونيوس. بالنسبة للرأس (في البحر) الذي لا يسمح بالمرور بينه وبين البحر، فإن ذلك الإمبراطور قام بعمل مدهش لفتح هذا الطّريق. وقد جرى تخليد ذكرى هذا

---

(1) لا يوجد مثل ذلك في أيّامنا، وكلامه يدلّ على منطقة ذوق مكايل.

(2) وهذه التّسمية في اللاتينيّة تعني الكلب.

العمـل الجيـد بكتابة محفورة علـى لوحة قد وُضعت في جانب الصّخـرة الطّبيعية غير بعيد عن المدخل إلى الطّريق.

ولـدى اجتياز هـذا الطّريق، لاحظنا في جوانب الصّخر فوقنـا عدة لوحات منحوتة لصـور؛ بدت كأنها تعد بشـيء من القيمة الأثرية؛ وقام بعضنا للتأكد منها بالتسـلّق إلى ذلك المكان فوجدوا هناك بعض العلامات التي تبيّن كما لو أن الطّريق القديم قد امتد في تلك المنطقة قبل أن يقوم أنطونيوس بفتح الطّريق الآخر الأكثر ملاءمة إلى الأسفل قليـلاً. ورأينا في عدة أمكنة مـن هذه المنطقة صوراً أثرية غريبة لعدة رجال منحوتة في الصّخـر الطّبيعي وحجمهـا بالحجم الطّبيعي. وكانت توجد لوحـة كبيرة قريبة من كل صورة موضوعة بجانب الصّخرة ومحاطة بأفاريز. وقد بدت كل من الصّور واللوحات بأنهـا قـد جرى نقشـها منذ القدم فـي جميع جوانبها؛ ولكن أشـكال الأشـخاص الآن مشـوّهة بشـكل لا يسـمح برؤية شـيء سـوى آثار الأقدام؛ وكان يوجد واحد فقط من الأشخاص له كلٌّ من ملامح وجهه وكتاباته كاملة.

وكان لسـوء طالعنا أننا تعرّضنا في هذا المكان إلى عاصفة عنيفة من الرّعد والمطر حيث جعلت جماعتنا بسـرعة كبيرة للإقامة هنا لوقت طويل؛ ولسوء الحظ فقد مُنعتُ لأسـفي الكبير، من نسـخ الكتابة والقيام بفحص دقيق لهذا الأثر الذي بدا بأنه يسـتحق ذلك كثيراً، وإني آمل بأن مسافراً فضولياً سيكون له نجاح أكبر بالمرور في هذا الطّريق فيمـا بعـد، وبدا الأشـخاص بأنهـم يشـبهون الموميـاءات، وربما كانـوا يمثلون بعض الأشخاص المدفونين هنا؛ ويمكن ربما لقبورهـم أن يكتشفها ملاحظ جاد.

يمتدّ طريق أنطونين حوالي سـفر ربع سـاعة. وهو في الوقت الحاضر متقطّع وغير مستوٍ بحيـث أن إصلاحـه يتطلب عملاً هنـا لا يقلّ عمّـا تطلّبه عندما بُنـي أولاً. وبعد هـذا الطّريق تصل إلى سـاحل رملـي ناعم يوصلك بعد حوالي سـاعة ونصف إلى نهر بيـروت حيـث أنني لا أعلم اسـماً آخر له. إنه نهر كبير وله فوقه جسـرٌ حجري ذو سـتة أقـواس. ويوجد على جانبه الآخر سـهل قـرب البحر حيث يقال إنـه المكان الذي قام فيـه القديـس جورج بقتال التنيـن وصرعه. ويوجد لذكرى هذا الإنجـاز دير صغير بُني

في هذا المكان وخُصّص أولاً لذلك البطل المسيحي؛ ولكنه جرى تحويله الآن إلى مسجد. ووصلنا من هنا وبعد ساعة إلى بيروت Beroot، مبللين جداً بسبب هطول المطر الطّويل والغزير. وعلى كل حال وجدنا هنا ملجأ في خان جيّد على ساحل البحر، وهناك اتخذنا إقامتنا. وكان كامل مشوارنا في هذا اليوم حوالي ست ساعات ونصف.

الخميس 18 مارس: قضينا اليوم التالي في بيروت، وقد جرى إعلامنا بثقة بأن نهر الدّامور Damer الذي يقع في مشوارنا التالي كان مملوءاً بسبب الأمطار الأخيرة بحيث أصبح لا يمكن اجتيازه. كان هذا المكان يدعى قديماً بيريتوس **Berytus**؛ ومن المعتقد بأن الصّنم بعل بيريت[1] **Baal Berith** قد اكتسب اسمه من ذلك الاسم. وفيما بعد جرى إجلال المدينة بشكل كبير وسميت أوغسطس، وكان لها ميزات عديدة منحت لها؛ بما فيها اسم جديد وهو جوليا فيليكس. ولكنها في الوقت الحاضر لا تحتفظ بأي شيء من نعيمها القديم إلا وضعها الحالي؛ وهي بهذه الخصوصية حقاً سعيدة جداً.

إنها تقع على ساحل البحر في تربة خصبة وبهيجة، وترتفع عالياً فوق الماء المالح لكي تكون آمنة من فيضانه وجميع التأثيرات الأخرى المؤذية وغير الصّحية لها. وتتمتع بمنفعة ينابيع جيدة وعذبة تجري إليها من التلال المجاورة وتتوزع في جميع أنحاء المدينة على شكل نوافير مناسبة وأنيقة، ولكن بالرّغم من هذه الميزات بالنسبة لوضعها، ليس لها في الوقت الحاضر أي شيء آخر لتتباهى به.

كان المسكن الرّئيسي للأمير فخر الدّين في هذه المدينة. وعاش هذا الأمير في أيام حكم السّلطان مراد، وهو الأمير الرّابع أو أمير الدّروز؛ الذن هم شعب من المعتقد أنه

(1) هذا هو الصّواب في اسم المدينة باللغة الكنعانيّة: بيريت، وليس بيروت! والسبب في هذا التصحيف هم اليونان الذين يلفظ حرف إيسيلون Y في لغتهم ياءً أو واواً، فغلب على المدينة اسم بيروت وما زال إلى اليوم. ومعنى اسم بيريت الأصلي: المدينة، الحاضرة. وما زال منه بقيّة في دمشق الكنعانيّة: باب بْريد (بتسكين الباء حسب النطق الكنعاني)، وهي مصحفة عن: باب بريت. ومنه أيضاً في لبنان: بريتال، مدينة إيل.

تحـدّر من بعض البقايا المشـتتة لتلك الجيوش المسـيحية التي شـاركت في الحروب الصّليبيـة لاسـترجاع الأرض المقدّسـة؛ وفيمـا بعد اسـتقرّوا كلياً بـالأرض وأصبحوا يائسـين من العودة إلى بلدهـم الأصلي ثانية، ولاذوا بالجبال فـي هذه المناطق؛ حيث اسـتمرّ أحفادهـم منذ ذلك الوقـت[1]. وكان فخر الدّين، كما قلـت، أمير هؤلاء الناس وغيـر مقتنـع بأن يُحبس في الجبال؛ ولكن بموجب قوته وخداعه زاد أملاكه نزولاً إلى السّهل على طول ساحل البحر من هذا المكان إلى عكّا. وأخيراً لما زادت غيرة السّيد الكبير (السّـلطان) من هذه القوة المتنامية ردّ الوحش البري ثانية إلى الجبال من حيث انطلق؛ وهناك تحافظ ذريته على سلطتهم إلى هذا اليوم.

ذهبنا لنرى قصر هذا الأمير، الذي يقع في الجانب الشّـمالي الشّرقي من المدينة[2]. ويوجـد عند مدخله نافـورة رخامية ذات جمال أكبر مما يُرى عـادة في تركية. ويتألف القصـر في الدّاخل من عدة قاعات جميعها الآن خربة، أو ربما لم يجر إتمامها إطلاقاً. إنّ الإصطبـلات، أي حظائـر الخيـول، ومخـادع الأسـود والمخلوقـات المتوحشـة الأخرى، والحدائق الخ.. هي جديرة بصفة أمير في بلدان أوروبا، حيث صنعت بذلك الإتقان المعهود هناك، والذي يبدو أنه قد تمّ تصميمه على يد مبدعه الأول.

ولكن أحسنَ منظر الذي يمكن لهذا المكان أن يقدّمه والذي يعدّ جديراً بالتذكر هي حديقة البرتقال. فهي تحوي بقعة أرض مربعة مقسـمة إلى سـتة عشر مربعاً أصغر، كل أربعـة منها بصـف واحد مع ممرّات بينها. والممرّات مظللة بأشـجار البرتقال التي لها حجم امتداد كبير، وجميعها ذات نمو جميل لكل من السّـاق والرّأس، بحيث أن المرء

---

(1) هذا غلط فادح ينمّ عن جهل، فالدّروز عرب أقحاح من بني تنوخ.

(2) كان قصر الأمير فخر الدّين المعني الثاني في منطقة البرج شمال شرق بيروت، ولا تزال تعرف باسم ساحة البرج، نسبة إلى برج الكشّاف الذي بناه لمراقبة السّفن الآتية من البحر. وكان القصر يتألف من غرف كثيرة وإصطبلات للخيل، وحديقة للوحوش. وكانت المياه تجري بأنابيب فيَ الجدران، وفي الوسط حديقة البرتقال وهي بستان كبير، كان الأمير يجلس مع بطانته في مكان مرتفع منه شرقاً. وقد شاهد عبد الغني النّابلسي حمّام الأمير فخر الدّين في رحلته لبيروت سنة 1700 في أيام موندرل ذاته.

لا يمكن أن يتصور أي شـيء أكثر إتقاناً في هذا المجال. وكانت هذه الأشـجار عندما كنـا هناك مذهبـة بالفاكهة التي كانت مدلاّة عليها بشـكل أكثف من التفـاح الذي رأيته في إنكلترا. وكان كل واحد من هذه المربعات الأصغر السّـتة عشر في الحديقة محاط بالأحجار؛ وكانت في الأعمال الحجرية فجوات مصنوعة بشكل اصطناعي لنقل الماء إلى جميع أنحاء الحديقة؛ وكانت هناك مخارج صغيرة محفورة عند كل شجرة لتسمح للساقية عند مرورها بالخروج لسقايتها.

لو كان هذا المكان يقوم بزراعته مزارع انكليزي، لكان من المستحيل أن يكون أكثر بهجـة. ولكن هـذه الحديقة الجميلة عندمـا رأيناها لم يجر اسـتخدامها لغرض أفضل مـن أن تكـون حظيرة للخـراف والماعـز؛ وكانت في أماكـن كثيرة منها تصـل القذارة إلـى الرّكـب؛ لأن الأتراك كان عندهم إحسـاس قليـل لمثل هذا الإحسـاس اللطيف؛ لأنهـم كانـوا بصـورة عامة شـعباً ذا إدراك سـمج ولا يعرفون أيّة ملذات أخرى سـوى حب الشّـهوات، التي كانت شائعة بالتساوي بين البشـر والوحوش. وكان في الجانب الشّـرقي لهذه الحديقة ممرّان مدرّجان أحدهما فوق الآخر وكان لكل ممرّ اثنا عشـرة درجة للصعود إليه. وكان فوقهما عدة امتدادات لطيفة لأشـجار البرتقال، لتقدّم ظلالاً فـي الأماكن المناسـبة. وكانت نهايتها الشّـمالية تؤدّي إلى خيم وبيوتٍ صيفية وشـقق أخرى ممتعة جداً؛ وقد صمم هذا المكان فخر الدّين لمجلسه الرّئيسي لأجل متعته.

وربما ما يدعو للعجب كيف أن هذا الأمير قد استطاع أن يبدع شيئاً أنيقاً ومنظماً إلى هذا الحدّ كهذه الحديقة؛ وتشـاهدُ الحدائق التركية بأنها عادة لا شـيء سوى مجموعة أشجار مرتبكة، متلخبطةً سويةً دون أية عقدٍ أو ممرّات أو عرائش، أو أي شيءٍ من الفن والتصميـم، لذلـك تبدو كالأدغال أكثر من الحدائق. ولكـن فخر الدّين كان في إيطاليا حيث رأى أشياء ذات طبيعة أخرى، وعرف جيداً كيف ينسخها في بلده. لأنه يبدو حقاً بهذه البقايا منه بأنه كان رجلاً فوق المستوى العادي لعبقري تركي.

وفـي حديقـة أخرى رأينا عدة قواعد لتماثيل؛ يمكن أن يسـتنتج منها بأن هذا الأمير لـم يكن مسـلماً غيوراً جداً. وفي إحـدى زوايا الحديقة نفسـها كان يوجد برج ارتفاعه

حوالـي سـتين قدماً، وكان مصمّماً بارتفـاع كبير ليكون برج مراقبـة، ولتلك الغاية فقد بنـي بقـوة غيـر عادية، حيث كانت جدرانه بسـماكة اثني عشـر قدمـاً. وكان لنا من هذا البرج منظر لكامل المدينة؛ فمن بين نواحٍ أخرى قدّم لنا رؤية كنيسة مسيحية يقال بأنها كانت أولاً مخصّصة للقديس يوحنا الإنجِيلي. ولكن الآن اغتصبها الأتراك لمسجدهم الرّئيسـي فلم نتمكن من رؤيتها إلا على هذه المسافة، ويوجد في المدينة كنيسة أخرى تبدو بأنها قديمة؛ وهي ذات بناء متواضع جداً وتعاني بأنها لا تزال في أيدي اليونان.

وعلـى الجانـب الجنوبي لا يزال جدار المدينة كاملاً، ولكنـه مبني من بقايا المدينة القديمـة كما يبدو من قطع الأعمدة والرّخام التي سـاعدت على بنائه، وبعيداً قليلاً من هـذا الجدار رأينا أعمدة غرانيـت وبقايا أرضيات من الفسيفسـاء (الموزاييك)؛ ورأينا فـي كومة مـن القمامة عدة قطع من الرّخام المصقول وكسـر من التماثيـل وبقايا فقيرة أخـرى تعود للفخامـة القديمة لهـذه المدينة. ويوجد على سـاحل البحـر قلعة مخرّبة قديمة وبعض بقايا رصيف في البحر.

الجمعـة 19 مـارس: بعد مغادرتنا بيروت وصلنا خلال ثلث سـاعة إلى سـهل كبير يمتـدّ من البحر إلى الجبال. وكان في بداية السّـهل غيضة مـن الصّنوبر[1] لمزرعة فخر الدّيـن. وخمّناها بأنها بعرض أكثر من نصف ميل؛ وكانت ظلالها مبهجة وراقية للغاية بحيـث لـم نمرّ بجانبها بغير بعض الأسـف. وباسـتمرارنا في هذا السّـهل رأينا عن بعدٍ علـى يسـارنا قرية صغيـرة تسـمّى الشـويفات Suckfoat. وهي تخص الـدّروز الذين يملكـون حتـى هذا اليوم امتداداً طويلاً من الجبال من كسـروان إلى الكرمِل. وأميرهم الحالي هو أحمد حفيد فخر الدّين.

ووصلنـا بعد سـاعتين من مزرعة فخـر الدّين إلى الخفارة caphar الخامسـة، وبعد سـاعة أخرى وصلنا إلـى نهر دامـر Damer أو تاميراس[2] Tamyras؛ فالاسـم الأول

(1) هي غابة الصنوبر (الحرش) الشهيرة في ضاحية بيروت جنوباً، وقد جدّد الأمير فخر الدّين المعني زراعتها، ولم يكن أول من غرسها.

(2) يقصد نهر الدّامور، إلى الجنوب من خلدة بأول طريق صيدا.

هو اسـمه الحديث والاسـم الأخير هو اسـمه القديم. إنه نهر قابل لأن يزداد كثيراً لدى سـقوط أمطار مفاجئـة، وفي هذه الحال يجري من الجبال بسـرعة كبيـرة، وهو مميت لكثير من المسـافرين؛ ومن بين هؤلاء كان مسـيو سـپون Spon حفيد الدّكتور سـپون Spon آتيـاً مـن القدس منذ حوالي أربعة سـنوات برفقة بعض السّـادة الانكليز، فجرفه النهـر بسـرعته وهلـك في البحر الذي كان يقـع على بعد حوالي ثمـن ميل أخفض من الممرّ.

وكان حظنـا جيـداً بأن نجد النهـر بمزاج أحسـن؛ حيث كانت مياهـه قد انخفضت منذ الأمطار الأخيرة. وعلى كل حال كان الرّيفيون جاهزين حسـب مهنتهم لمساعدتنا لاجتياز النهر. لذلك خلعوا ملابسهم لدى قدومنا؛ وذلك بغاية أن يضطرونا للاستفادة من مسـاعدتهم التي سـيتناولون عليها أجراً جيداً، فأخذونا إلـى مكان حيث كان الماء فيه أعمق شيء وهم يتظاهرون بأنه كان لا يوجد أي ممرّ آخر غيره؛ ورأيناهم يفرضون هذه الخدعة على بعض المسافرين الآخرين الذين أتوا بعدنا بوقت قصير. ولقد جرى إعلامنـا بمكان أعلى قليـلاً على النهر حيث كان النهر أعرض وأقـل عمقاً، فمررنا من هناك بسـهولة ودون مسـاعدتهم. ويوجد في هذا المكان تماماً أطلال جسـر حجري؛ يمكن للمرء أن يخمّن بسبب صلابة بقاياه بأنه لا يزال كاملاً لولا أن هؤلاء الأشرار قد هدمـوه وذلك للحصول على منافعهم من المسـافرين؛ حيـث يقودونهم من أجل أجر كبير، وإلا إن سنحت لهم الفرصة يغرقونهم للحصول على ممتلكاتهم.

وعلـى الجانب الآخر من النهـر تقترب الجبال أكثر من البحـر، تاركة ممرّاً صخرياً ضيقـاً بينهما. وخلال سـاعتين من نهر دامر (الدّامور) وصلنا إلـى نهر آخر، غير أنه لم يذكر مرة من قبل أي جغرافي أعرفه. وهو يبعد حوالي ساعة من صيدا. إن قناته عميقة وتحوي مياهاً جيدة، وله جسـر حجري كبير فوقـه. وبالحديث عن هذا النهر مع الأب المحتـرم سـتيفانو[1] (اسـطفان) البطريرك المارونـي، أخبرني بأنـه كان يدعى الأولي

---

(1) يقصد البطريرك اسطفان الدّويهي الإهدني، وسيرد ذكره أدناه عند ذكر دير قنّوبين.

Awle وأنّ نبعه قرب الباروك[1] Berook وهي قرية في جبل لبنان.

وعند هذا النهر قابلنا عدة تجار فرنسيين من صيدا؛ وكان لهم مصنع هناك من أكبر مصانعهم في منطقة البحر المتوسط. وبوصولنا إلى صيدا ضربنا خيامنا قرب حوض ماء خارج المدينة؛ ولكن قادنا السّادة الفرنسيون إلى مكان إقامتهم الذي هو خان كبير قريب من البحر، حيث يقيم القنصل والشّعب سوية. ويوجد قبل مقدّمة هذا الخان رصيف يمتد إلى البحر بزاوية قائمة؛ ولم يكن ذا سعة كبيرة في أحسن أحواله، ولكنه الآن عديم الفائدة كلياً لأنه قد جرى عن قصد ملؤه بالقمامة والتراب من قبل فخر الدّين، وذلك لمنع الأفراد الأتراك من القيام بزياراتهم غير المرحّب بها إلى هذا المكان. وبما أن الرّصيف قد جرى تخريبه فإن جميع السّفن التي تأخذ حمولتها هنا مجبرة بأن ترسو تحت حماية سلسلة آكام صغيرة من الصّخر، وهي على بعد حوالي ميل من السّاحل على الجانب الشّمالي للمدينة.

إنّ صيدا مملوءة بشكل كاف بالسكان، ولكن تقلّص الكثير من امتدادها القديم ومن بهائها ورونقها؛ وذلك كما يبدو من الأعمدة الكثيرة الجميلة المبعثرة على طول الحدائق دون الجدران الحالية. وأية آثار يمكن أن تكون موجودة هنا في أي وقت هي الآن جميعها محجوبة ومطمورة بالمباني التركية. في الجانب الجنوبي من المدينة وعلى تلة تقع قلعة قديمة يقال إنها كانت من عمل لويس التاسع الفرنسي المسمّى بالقديس؛ وغير بعيد عن القلعة يوجد قصر غير مكتمل لفخر الدّين وهو على كل حال يخدم الپاشا كدار للحريم؛ ولكن كلاً منهما لم يكن جديراً بالذكر لو أن المدينة قدّمت لنا أي شيء آخر جدير بالاعتبار بصورة أكثر. وبالقرب من صيدا تبدأ حدود الأرض المقدّسة، وخاصة من ذلك القسم الذي كان مخصصاً لِسبط أشير Asher، وحدود هذا السِّبط امتدت من الكرمِل حتى صيدا Zidon الكبرى، كما يبدو من سفر يشوع (19: 26، 28) ولكن الناس على سواحل البحر لم يكونوا أبداً حقاً خاضعين لبني إسرائيل، بل تُركوا لحكم الله العادل بأن يكونوا أشواكاً على جوانبهم، وذلك لسبب

(1) من الطريف ملاحظة أنّ موندرل ينقل اسم الباروك بألف لبنانيّة ممالة: Berook.

يمكن رؤيته في سفر القضاة (2: 1، 2، 3).

* * *

إن الشّخص الذي هو القنصل الفرنسي في صيدا له أيضاً لقب القنصل في القدس؛ وهو ملزم من قبل سيّده الملك الفرنسي بأن يقوم بزيارة إلى المدينة المقدّسة كل عيد فصح بحجة الحفاظ على الكنيسة هناك من التعدّيات والحفاظ على الرّهبان الذين يقومون بخفارتها من ابتزاز الأترك. ولكن الرّهبان يعتقدون أنفسهم بأنهم في أمان أكثر دون هذه الحماية. وكنا راغبين بأن ننضم إلى المسيو الإمبراطور، أعني القنصل الحالي في حجّته لهذه السّنة؛ وبناءً على ذلك كنا قد أرسلنا له كتاباً من حلب بغرض طلب ذلك المعروف؛ آملين بحمايته أن نمرّ بأمان أكثر من إساءات العرب والأتراك الذين ليسوا بأي مكان وقحين كما هم في فلسطين وحول القدس. وتلقينا وعده بأن ينتظرنا؛ ولكن التأخيرات وخيبات الأمل التي واجهتنا في الطّريق قد أخّرتنا كثيراً في رحلتنا، بحيث تخوّفنا بأن نكون متأخرين جداً إلى القدس، فانطلق من صيدا في اليوم السّابق لوصولنا إلى هناك تاركاً لنا على كل حال بعض الآمال، وذلك إذا بذلنا أقصى جهدنا في طريقنا فمن الممكن أن نجتمع به في عكّا Acra حيث وعدنا بأن ينتظر قدومنا متى جئنا.

السبت 20 مارس: بما أننا كنا راغبين بألا نفقد مزيّة صحبته، فقد انطلقنا باكراً في الصّباح التالي من صيدا؛ وبسفرنا في سهل مثمر جداً وصلنا بعد نصف ساعة إلى مكان وجدنا فيه عموداً كبيراً من الغرانيت ملقى عبر الطّريق الرّئيسي وجزء كبير منه مغمور تحت الأرض مع كتابة متأخرة عليه.

وقليلاً بعد هذا العمود رأينا الغازيّة[1] Ko-ri-e وهي قرية كبيرة على جانب الجبال؛ وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى الصَّرَفند Sarphan وهي من المفروض أن تكون صيريفات Serephath القديمة أوصاريبتا Sarepta وهي مشهورة جداً بإقامة

(1) هذا هو الاسم الذي ينطبق على الموقع اليوم.

النبي إيليا Elijah ومعجزاته فيها. ويبّن لنا المكان بالنسبة لهذه المدينة بأنه كان يتألف من عدة بيوت فقط في أعالي الجبال وذلك على بُعد حوالي نصف ميل من البحر. ولكن من الأكثر احتمالاً بأن القسم الرّئيسي للمدينة كان يقع في الأسفل في المسافة بين التلال والبحر؛ حيث كانت هناك أطلال على امتداد واسع لا تزال ترى في ذلك المكان.

وبعد ثلاث ساعات من هناك وصلنا إلى كازيمير[1] Casimeer وهو نهر كبير وعميق يجري إلى البحر عبر سهل يتعرّج ويدور فيه. وكان له مرة جسر حجري جيد مشيّد فوقه وله أربع أقواس؛ ولكن في الوقت الحاضر لم يبق منه أي شيء سوى الدّعامات؛ التي وضعت بينها عوارض وألواح لتعطي مسافة للأقواس ولتجعل ممرّاً فوقها. ولكن البناء متهاوٍ وغير متماسك إلى حدّ يبدو وكأنه مصيدة وليس جسراً. انهار أحد خيولنا بالرّغم من حرصنا الكبير لمنع مصائب كهذه؛ ولكن من حسن حظنا فقد تعافى ثانية على السّاحل. وعلى بعد رمية قوس من هذا النهر يوجد خان بنفس الاسم والذي منه، إذا حافظنا على قرب ساحل البحر، نصل خلال ساعة إلى صور.

تقع هذه المدينة في البحر على شبه جزيرة وهي تعدّ عن بعد شيئاً رائعاً جداً. ولكن عندما تأتي إليها لا تجد شبهاً لذلك المجد الذي كانت مشهورة به جداً في الأزمنة القديمة والتي يصفها النبي حزقيال Ezekiel في الأصحاح 26 و27 و28. وفي الجانب الشّمالي فيها قلعة تركية قديمة غير محصّنة، وبالقرب منها لا ترى شيئاً سوى مجرد جدران وأعمدة بابلية محطمة وسراديب الخ. ولا تجد فيها كثيراً باقياً سوى بيت واحد كامل. وسكانها الحاليون هم لا أكثر من بضعة أشقياء فقراء يلجأون إلى الأقبية والسّراديب ويعيشون بصورة رئيسية على صيد السّمك، وهم يبدون بأنهم محميون في هذا المكان بالعناية الإلهية، وكمجادلة مرئية، كيف أن الله أوفى بكلمته بخصوص صور: «وأصيّرك كضحّ الصّخر فتكونين مبسطاً للشّباك. ولا تُبنين بعد». (سفر حزقيال، 26: 14).

---

(1) أي نهر اللّيطاني المعروف في جنوب لبنان.

في وسط الأطلال توجد كومة أعلى من الباقي، وهي النهاية الشّرقية لكنيسة كبيرة، ربما عائدة لكاتدرائية صور؛ ولم لا وهي نفسها تماماً التي بناها مطرانها پولينوس Paulinus وتشرّفت بموعظة التقديس ليوسيبيوس التي سجلها نفسه في «تاريخ الكنيسة» Eccl. Hist. Lib. X. cap. 4. وكانت مركز رئيس الأساقفة في الأزمنة المسيحية.

* * *

ولا يسعني في هذا المقام أن أغفل ملاحظة قالها معظم جماعتنا في هذه الرّحلة، وهي أنه في جميع أطلال الكنائس التي رأيناها، بالرّغم من أن أقسامها الأخرى كانت مهدّمة كلياً، كنا دائماً نجد النهاية الشّرقية قائمة وتقريباً كاملة. وسواء كان المسيحيون عندما اجتاحهم الكفار أنقذوا مذابحهم من الخراب بالمال؛ أو أن البرابرة عندما هدموا الأقسام الأخرى من الكنائس قد يكونوا بصورة طوعية قد استبقوا هذه الأقسام بسبب الخوف والاحترام؛ أو أنها بقيت قائمة لهذه المدة الطّويلة بسبب بعض الصّلابة الغريبة في طبيعة بنائها؛ أو أن بعض العناية الإلهية السّرية قد حفظتها، حيث أن كثيراً من النُصب التذكارية القائمة للمسيحية في هذه المناطق غير المؤمنة والدّلالات على إصلاحها المستقبلي سوف لا أحدّده[1].

سأقول هذا فقط إننا وجدنا الأمر حقاً كما وصفته في جميع الكنائس المهدومة التي قابلناها في طريقنا، والتي كانت ربما لا تقل عن مئة؛ ولا أتذكر في حياتي بأني رأيت مثالاً واحداً على عكس ذلك. وهذا يمكن أن يبدو بعد ملاحظة طفيفة استندت إلى بضعة أمثلة فقط. ولكنه شيء يحدث غالباً وحقاً ملاحظ عالمياً من قبلنا خلال رحلتنا بكاملها، وفكرتُ بأنه يجب أن تحتاج إلى عوائد من شيء أكثر من فرصة عمياء يمكن أن تستحق هذا الانتقاد.

* * *

(1) حاشية للمؤلف: إن النهايات الشّرقية للكنائس كانت تبنى دائماً أولاً، وغالباً كانت تترك غير منتهية بسبب الحاجة للأموال أو أسباب أخرى.

لنعـد الآن إلـى ما كنّـا فيه؛ كان يوجـد درج قديم في هذه الأطـلال المذكورة أخيراً فصعـدت إلـى أعلاه؛ حيـث كان لي منظـر كامل للجزيـرة، وجزء من صـور والبرزخ والسّـاحل المجاور. فكرت بأنه يمكنني من هذا الارتفاع أن أرى البرزخ بأنه تربة ذات طبيعيـة مختلفـة عـن الاثنين الآخريـن؛ وهو يقع بصـورة أخفض مـن كل منهما، وهو مغطى كلياً بالرمل الذي يلقيه البحر عليه حيث علامات حته الطّبيعي للممرّ هناك الذي جرت تنحيته بضرر من قبل الإسكندر العظيم. إن جزيرة صور في حالتها الطّبيعية تبدو بأنهـا كانت ذات شـكل دائري وتحتوي على أرض لا تزيـد عن أربعين فداناً. ولا تزال تكتشف أساسات جدار أحاط بها منذ القدم في الحد الأقصى للأرض. وهي تشكّل من البرزخ خليجين كبيرين، أحدهما على الجانب الشّـمالي والآخر على جنوبها. وهذان الخليجان محميان جزئياً من البحر بواسـطة سلسـلة طويلة من الآكام تشـبه رصيفاً في البحـر يمتد مباشـرة إلى الخارج علـى الجانبين كليهما مـن رأس الجزيرة؛ ولكن هذه السّلاسل من الآكام فيما إذا كانت جدراناً أو صخوراً أوفيما إذا كانت من عمل الفن أو الطّبيعة، فإني كنت بعيداً جداً لأن أراها.

لدى خروجنا من هذه الأطلال، رأينا أساسات جدار قوي جداً يخترق رقبة الأرض ويخـدم كحاجـز لأمن المدينـة على هذا الجانـب. ومن هذا المكان وبعد ثلث سـاعة اخترنـا البـرزخ الرّملـي، وذلك قبـل أن نصل إلـى الأرض التـي أدركنا بأنها السّـاحل الطّبيعي. من هنا ومروراً على جزء من سـهل خصيب جداً يمتدّ إلى حدود واسـعة قبل صور وصلنا خلال ثلاث أرباع السّاعة إلى راس العين Roselayn. واستغرق مشوارنا كله من صيدا حتى هنا حوالي ثماني ساعات.

الأحـد 21 مـارس: راس العيـن Roselayn مكان توجد فيه الأحـواض التي تدعى أحواض سليمان Solomon، ومن المعتقد وفق العرف العام في هذه الأنحاء قد صنعها الملك العظيم كجزء من تعويضه للملك حيرام Hiram لتموينات لمواد أرسلها عند بناء المعبد. وهي دون شـك قديمة جداً، ولكن مع ذلك فإن تاريخها أقدم ممّا ينسـب هذا الخبـر المتواتر إليها. ولا يمكن أن تكون بُنيت منذ زمن الإسـكندر. ويمكن أن يُخمَّن

هذا بين مجادلات أخرى؛ لأن القناة التي تنقل الماء من هنا إلى صور ممتدة فوق رقبة أرض التي بها ضم الإسكندر المدينة إلى أوروبا وذلك لدى حصاره المشهور لهذا المكان. وبما أن الأحواض لا يمكن تصوّرها تماماً بأنها أكثر قدماً من القناة، لذلك يمكن للمرء بأن يكون متأكداً من أن القناة لا يمكن أن تكون أقدم من الأرض التي تقع عليها. ويوجد من هذه الأحواض ثلاثة كاملة حتى هذا اليوم. أحدها يبعد حوالي ثلاثمئة يارد من البحر، والاثنان الآخران أبعد بقليل.

والسابق ذو شكل مثمن ومحيطه اثنان وعشرون ياردا. وهو مرفوع فوق الأرض بتسعة ياردات في الجانب الجنوبي وستة ياردات في الشّمال؛ ويقال إن عمقه من الدّاخل لا يُدرك، ولكن خطاً ذا عشرة ياردات قد نقض هذه الفكرة. وجداره ليس من مادة غير الأحجار الصّغيرة والحصى؛ ولكنها مقسّاة بإسمنت دبق ومقوّى جداً، بحيث يبدو كله وعاءً واحداً كاملاً من الصّخر. ولديك على طرفه ممشى عرضه ثمانية أقدام، ومنه وبالنزول خطوة واحدة على الجانب الجنوبي، وخطوتين على الشّمال لديك ممشى آخر عرضه واحد وعشرون قدماً.

وكل هذه البنية بالرّغم من أنها بهذا العرض في الأعلى، قد جُعلت مجوّفة بحيث أن الماء يأتي من تحت المماشي؛ بحيث أنني لم أستطع بواسطة عصا طويلة أن أبلغ نهاية التجويف. وتحتوي كامل القناة على كمّية واسعة من الماء الممتاز الذي يأتي بإمداد جيد من منبعه، وذلك بالرّغم من أنه يتفرع عنها ساقية كالجدول تُشغّل أربعة مطاحن بين هذا المكان والبحر، فإنها دائماً مملوءة للحافة. وعلى الجانب الشّرقي لهذا الخزان كان يوجد المخرج القديم للماء وذلك بواسطة قناة مرفوعة حوالي ست ياردات من الأرض وتحوي على أخدود عرضه يارد واحد. ولكن هذا الآن متوقف وجاف، وقد كسر الأتراك مخرجاً على الجانب الآخر ليحصلوا منه على ساقية لطحن حبوبهم.

إن القناة الآن جافة وتمتدّ شرقاً حوالي مئة وعشرين خطوة، ومن ثم تقترب من الخزانين الآخرين حيث أن واحداً منهما يبلغ اثني عشر والآخر عشرين ياردا مربعاً.

ولكل منهما أخدود صغير كانت مياههما ممدودة قديماً إلى القناة، وهكذا فإن السّواقي المتحدة للخزانات الثّلاث كانت تجري سوية إلى صور. يمكنك أن تتبع القناة بطولها وذلك بالقطع الباقية منها. وهي تذهب حوالي ساعة نحو الشّمال، ومن ثم تنحرف إلى الغرب عند جبل صغير حيث كانت تقع قديماً قلعة، ولكنها الآن مسجد[1]، وتمتدّ فوق البرزخ إلى المدينة.

عندما مررنا بالقناة، لاحظنا في عدة أماكن على جوانبها وتحت أقواسها أكواماً خشنة لمادة تشبه الصّخور، حيث جرى انتاجها من تنقيط الماء الذي تحجّر لدى تنقيطه من الأعلى؛ وبالتماسك المستمرّ للمادة الجديدة فقد نمت إلى كتلة كبيرة. والشّيء الأكثر ملاحظة فيها كان الإطار وشكل أجزائها، التي كانت مؤلفة من أنابيب من حجر لا يمكن إحصاؤها، وهي ذات قياسات مختلفة ملتصقة ببعضها كالنوازل. وكان لكل أنبوب تجويف صغير في وسطه ظهرت منه أجزاؤه بشكل أشعة نحو المحيط، ووفق شكل الأحجار التي تدعى بالخطأ أحجاراً رعدية.

إن نبع هذه المياه غير معروف كالذي استنبطه. ومن المؤكد من ارتفاع هذه المياه العالي بأنها جُلبت من جزء ما في الجبال التي تبعد حوالي فرسخ. ومن المؤكد بأن العمل قد جرى تنفيذه بصورة حسنة في البداية، ونرى بأنه يقوم بعمله جيداً وذلك خلال وقت طويل.

* * *

ولدى مغادرة هذا المكان البهيج، وصلنا خلال ساعة ونصف إلى الرّأس البحري الأبيض؛ وهو مسمى هكذا من الناحية التي يفضي بها نحو البحر. وفوق هذا الرّأس تمرّ بطريق عرضه حوالي ياردين، مقطوع على طول جانبه؛ والمنظر منه إلى أسفل مخيف جداً، وذلك بسبب العمق البالغ والانحدار للجبل، والأمواج الهائجة في الأسفل. ويبلغ طول هذا الطّريق حوالي ثلث ساعة، ويقال بأنه كان من عمل الإسكندر الأكبر.

---

(1) حاشية للمؤلف: المسجد هو مكان العبادة الجماعيّة لدى الأتراك.

وبعد حوالي ثلث ساعة تمرّ بكومة من الرّكام قريبة من ساحل البحر، وهي عبارة عن أطلال قلعة إسكندرونة[1] Scandalium. وتبلغ مساحة الأطلال مئة وعشرين خطوة مربعة يحيط بها خندق جاف؛ ومن تحته على الجانب وقرب البحر تنبع عين ذات ماء عذب جداً. وخلال ساعة من هنا تصل إلى القرية السّادسة المسماة النّاقورة Nachera وبعد ساعة أخرى تصل إلى سهل عكّا Acra فوق جبل عميق جداً ووعر، ومن المعتقد بأنه جزء من جبل سارون Saron. وعلى طول الطّريق من الرّأس الأبيض إلى هذا السّهل منطقة صخرية جداً، ولكن جمال الطّريق هنا يعطيك تعويضاً للجهد السّابق.

يمتدّ سهل عكّا بطوله من جبل سارون حتى الكرمل Carmel، وهو على الأقل مسيرة ست ساعات كاملة؛ وعرضه بين البحر والجبال وفي معظم الأماكن أكثر من ساعتين. وهو يتمتع بجداول ماء على مسافات ملائمة وبكل شيء آخر يمكن أن يجعله مُسرّاً ومثمراً. ولكن هذا السّهل النّضر مهجور الآن تقريباً؛ حيث يعاني من نقص الحراثة لإزالة الأعشاب البرية الكثيفة التي كانت في الوقت الذي مررنا به عالية بحيث تصل إلى ظهور خيولنا.

وبعد سفرنا حوالي ساعة واحدة في سهل عكّا Acra، مررنا بمدينة قديمة تدعى الزّيب Zib موجودة على مرتفع قريب من ساحل البحر. وهذه المدينة قد تكون أكزيب Achzib القديمة المذكورة في (سفر القضاة، 1: 31؛ وسفر يوشع، 19: 29) والتي سميت فيما بعد أكديبا Ecdippa، لأن القديس إيرونيموس Jerome يضع أكزيب على بعد تسعة أميال من بتولمايس Ptolemais نحو صور، وبهذا الحساب وجدنا وضعية الزّيب Zib موافقة تماماً. وهذه إحدى الأماكن التي لم يستطع فيها الآشوريون طرد السّكان الأصليين الكنعانيين. وبعد ساعتين وصلنا إلى نبع ذي ماء جيد جداً يسمّيه التجار الفرنسيون في عكّا نبع العذراء المباركة، وبعد ساعة وصلنا إلى عكّا. ومشوارنا الكامل من راس العين Roselayn إلى هنا استغرق حوالي ثماني ساعات ونصف.

(1) إسكندرونة حصن صليبي يقع إلى الجنوب من صُور عند رأس الناقورة، ذكر الرحالة ابن جبير الأندلسي عام 580 هـ في رحلته (ص 277): حصن الزّاب وقرية اسكندرونة.

وكان يطلق على عكّا Acra قديماً اسم عكّو Accho، وهذا مكان آخر من الأماكن التي لم يستطع أولاد إسرائيل طرد السّكان الأولين منها (سفر القضاة، 1: 31). وبتوسيعها بعد وقت من الزّمن على يد بطليموس سمّاها على اسمه بتولمايس Ptolemais. ولكنها بما أنها أضحت الآن بملكية الأتراك، فوفق مدن أخرى كثيرة من تركية تخلّت عن اسمها اليوناني واستعادت بعض الشّبه لاسمها العبري القديم ثانية[1]، وأصبحت تسمّى عكّا أو Acra.

كانت هذه المدينة لمدة طويلة مسرحاً للنزاع بين المسيحيين والوثنيين؛ وحتى أخيراً بعد أن تعاقبت عليها عهود مختلفة تبدّل فيها حكّامها، وبعد حصار طويل فتحها الأتراك وخرّبوها بشكل وكأنهم ظنّوا أنهم لا يقدرون أبداً أخذ انتقام كامل بالنسبة للدّماء التي تكلفوها، أو أن يمنعوا بشكل كافٍ مثل هذه المذبحة في المستقبل. وبالنسبة لوضعها فإنها تتمتع بجميع الميزات الممكنة لكل من البحر والبر. وهي على جانبيها الشّمالي والشّرقي محاطة بسهل واسع وخصيب. وعلى الغرب يغسلها البحر الأبيض المتوسط، وعلى الجنوب يحدّها خليج كبير يمتدّ من المدينة حتى جبل الكرمِل Mount Carmel.

ولكن على الرّغم من جميع هذه المزايا، لم تستطع مطلقاً أن تستعيد نفسها منذ انقلابها المميت الأخير. لأنه علاوة على خان كبير يتخذ فيه الفرنسيون إقامتهم، ومسجد وعدة أكواخ فقيرة، فإنك لا ترى هنا سوى أطلال ممتدة واسعة. وعلى كل حال فإنها أطلال تبيّن بشكل كافٍ شأن المكان في الأزمان السّابقة. وهي تبدو بأنها كانت محاطة على الجانب البري بجدار مضاعف محمي بأبراج على مسافات صغيرة، وخارج الجدران توجد خنادق ومتاريس ونوع من الأبراج يواجهها حجر منحوت.

(1) هذا غلط، فتسميات بلدان فلسطين كنعانيّة وليست عبريّة، وكذلك في سوريا ولبنان. مع الإشارة إلى أنّ العبريّة قد أخذت الكثير من قواعد الكنعانية وألفاظها وتراثها الأدبي العظيم. وكانت نشأة الكنعانيّة كما أعتقد في جنوب شرق جزيرة العرب، وانتقلت عبر العصور من منطقة الخليج العربي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

ورأينـا في الحقول خارج هذه الأعمال عدّة كـرات حجرية كبيرة مبعثرة هنا وهناك على الأرض، وهي ذات محيط عل الأقل ثلاثة عشـر أو أربعة عشـر إنشـاً؛ وهي كانت جزءاً من الذخيرة المستعملة في هدم المدينة، حيث كانت المدافع غير معروفة آنذاك. ولا يزال يظهر ضمن الجدران عدة أطلال تميّز نفسها من الكومة العامة ببعض العلامات من القوة الأكبر والعظمة. أولها تلك العائدة للكنيسة الكاتدرائية والمخصّصة للقديس أندراوس، وهي تقع غير بعيد من ساحل البحر وتبدو أعلى وأكثر وضوحاً من الأطلال الأخرى. وثانيها كنيسـة القديس يوحنّا، وهو القديـس المختص بهذه المدينة. وثالثها دير فرسان المشفى (الإسبتاريّة) Hospitaller؛ وهو مكان تشهد جدارنه الباقية بشكل كافٍ علـى قوتـه القديمة. وغير بعيد عن الدّير يوجد قصر السّـيد الكبير لذلك الحكم؛ ويمكـن تخمين عظمته من درج كبير وقسـم من كنيسـة لا تزال موجـودة فيه. ورابعها بعض بقايا كنيسة كبيرة كانت سابقاً تخصّ دار راهبات.

وهنـا توجد أطلال أخرى لكنائس وقصور وأديار وقلاع الخ، تمتدّ لأكثر من نصف ميل طولاً؛ ويبدو كأن كل بناء في المدينة قد صُمّم للحرب والدّفاع.

ولكن الشّيء الذي سرّنا كثيراً في عكّا كان وجود القنصل الفرنسي السّيد الإمبراطور هنـاك؛ الذي كان كريماً جداً بتوقفه لمدة يومين متوقعاً وصولنا. ولكنه بقي هناك للحدّ الأقصـى مـن وقته، ولذلك قـرّر الانطـلاق ثانية في الصّبـاح التالي. وكانـت صعوبتنا الكبـرى فـي أن نقـرر أي طريـق نأخذ، إمـا ذلك الطّريـق على السّـاحل عنـد قيصريّة Casarea ويافا Joppa؛ أو ذاك الذي عند النّاصرة Nazareth، أو الطريق المتوسط بين كليهما فوق سهل إسدرايلون[1] Esdraelon.

إن سـبب عـدم التأكد هذا كان الخصام والشّـقاق بين العرب؛ الـذي جعلنا راغبين بـأن نبقى قـدر الإمكان بعيدين عـن طريقهم، إن سياسـة الأتراك هـي أن يزرعوا دائماً الانقسامات بين هؤلاء الناس، وذلك بتعيين عدة رؤساء على قبائلهم، وغالباً ما يعزلون القدامـى ويعيّنون رؤسـاء جـدداً عوضاً عنهـم؛ ويخلقون بهذا الفـن مصالح وأحزاب

---

(1) هذه التسمية يونانيّة ويقابلها في العربيّة: مرج ابن عامر.

متضاربـة فيما بينهم، مما يمنعهـم دائماً من الاتحاد تحت أي أمير واحد، حيث لو كان بينهم الشّـعور بأن يتحدّوا (وهم متعددون كثيراً ويؤلفون تقريباً السّـكان الوحيدين في تلك المنطقة) فمن الممكن أن ينفضوا النير التركي ويضعوا أنفسـهم في سُـدّة الحكم العليا للبلد.

ولكـن مهمـا تكن هذه الاختلافـات مفيدة للأتـراك بهذا الخصوص، فـإن الغريب دون ريب يقاسـي بسببهم؛ بحيث أنهم يجعلونه فريسة لكل حزب، وفق ما قد يعترض طريقهم. ولتجنيب أنفسنا أيّة إساءات، قرّرنا أن نأخذ الطّريق الأوسط وهو الأكثر أماناً في هذا الوقت.

الاثنين 22 مارس: وحسـب هـذا الغرض انطلقنا باكراً في الصّبـاح التالي من عكّا، ومعنا مجموعة من الجنود الأتراك لأمن قافلتنا بصورة أكبر. ويقع طريقنا لمدّة حوالي نصف سـاعة بجانب خليج عكّا؛ ومن ثم لدى وصولنا إلى أسـفل الخليج تحولنا نحو الجنوب. ومررنا هنا على نهر صغير علمنا بأنه نهر بيلوس Belus، وهو مشهور برماله التي يقال بأنها مادة ممتازة لصنع الزّجاج؛ وقد ساعدت أيضاً على ظهور ذلك الاختراع للمرة الأولى.

وهنا بدأنا النزول من سـاحل البحر الذي سـافرنا فيه لأيام عديدة من قبل، واتجهنا بصـورة أكثـر نحو الشّـرق مجتازين بصـورة مائلة في السّـهل، وبعد سـاعتين كاملتين وصلنا إلى جانبه الأبعد حيث أنه محاط بجبل الكرمِل Carmel. وهنا تجد وادياً ضيقاً يخرجك من سهل عكّا Acra إلى سهل إسدرايلون[1] Esdraelon. وفي هذه النواحي توجد نهاية سِبط آشر Asher، وبداية سِبط زبولون Zabulun؛ وحدود هذين السِبطين موصوفة في سفر يوشع، 19: 26.

وبالمرور خلال الوادي الضيّق الذي يصل بين السّهلين، وصلنا خلال ساعتين إلى ذلك النهر القديم قيشـون Kishon الذي يفتح طريقه نزولاً في وسط سهل إسدرايلون

---

(1) هذه التسمية يونانيّة ويقابلها في العربيّة: مرج ابن عامر.

Esdraelon، ومـن ثـم يتابع مجراه قريباً من جانب جبـل الكرمل Carmel ويصبّ في البحر في مكان يُسـمّى حيفا Caypha. وفـي الوضع الذي رأيناه كانت مياهه منخفضة وغيـر كثيـرة. ولكن بالمرور على طـول جانب السّـهل رأينا مجاريَ كثير من السّـيول تسقط فيه من الجبال وتجعله يزداد إلى حدّ كبير لدى سقوط أمطار مفاجئة، كما فعلت دون شك حقاً في هلاك جيش سيسرا Sisera.

وخلال ثلاث ساعات ونصف من قيشون Kishon وصلنا إلى جدول صغير، بقربه قريـة قديمة وخان جيد يدعى اللّجون Lagune، وغيـر بعيد عنه أقمنا هذه الليلة. ومن هذا المكان أتيح لنا منظر كبير لسـهل إسـدرايلون Esdraelon، وهو ذو امتداد واسـع وخصيب جداً لكنه غير مزروع؛ فهو يخدم العرب للرّعي فقط. وعلى مسـافة سـت أو سبع ساعات تقريباً شرقاً كانت تقع على مرمى نظرنا النّاصرة Nazareth، وجبلا تابور Tabor وحرمون Hermon. وجرى إعلامنا بصورة كافية بالخبرة ماذا يعني النبي داوود المقـدّس بندى حرمون Hermon، حيث غدت خيامنـا مبللة به كما لو أن المطر هطل كل الليل. وفي حوالي مسـافة ميل منا عسـكر شـبلي Chibly أمير العرب مع جماعته وأبقاره؛ وتحتنا وعلى جدول قيشون Kishon عسكرت قبيلة أخرى من العرب، وهي مجموعـة معاكسـة لشـبلي Chibly. وكان ارتياحنـا أقل بكثير في هـذا المكان، حيث لبثنا في الوسـط، بين جارين سيئتين جداً. كان مشوارنا هذا اليوم بوجه الإجمال ثمانية ساعات؛ واتجاهنا صوب الجنوب الشرقي والجنوب أو حوالي ذلك.

الثلاثـاء 23 مـارس: تركنـا محـلّ الإقامة هذا ووصلنـا خلال ثلث سـاعة إلى خيام الأميـر الذي خرج شـخصياً ليقوم بواجباتـه نحونا. دفعنا له رسـمين أي واحد للّجون Legune وآخر لجنين Jeneen، وفوق الرّسـمين أيّ شـيء آخر كان يحلو له أن يطلبه. وأراحنا بطريقة لبقة من بعض معاطفنا التي بدأت أن تكون لا مجرّد غير ضرورية فقط بل متعبة أيضاً.

بمغادرتنـا شـبلي Chibly خرجنا مـن سـهل إسـدرايلون Esdraelon ودخلنا إلى جوار نصف سـبط منسّـى Manasses. ومن هنا امتد طريقنا حوالي أربع سـاعات عبر

وديان ضيقة مشجرة بصورة نضرة على كل من الجانبين. وبعدها اخترقنا سهلاً مثمراً صغيراً آخر، ووصلنا خلال نصف ساعة إلى كفر عرب حيث أقمنا. إن كامل مشوارنا لم يتجاوز خمس ساعات؛ وطريقنا كان كاليوم السّابق.

الأربعاء 24 مارس: بعد أن دفعنا رسمنا انطلقنا باكراً في الصّباح التالي؛ مغادرين أولاً عرب ومن ثم الرّامة Rama وهما قريتان جبليتان على الجانب الأيمن، ووصلنا خلال ساعة إلى نبع ظريف يسمّى سيلي Selee، وقد أخذ اسمه من قرية مجاورة.

وبعد ساعة واحدة وصلنا إلى سبسطية Sebasta. وهنا تغادر حدود النصف سبط منسّى Manasses وتدخل حدود القبيلة أفرايم Ephraim.

سبسطية Sebasta هي السّامرة Samaria القديمة، المدينة الإمبراطورية للأسباط العشرة بعد ثورتهم من بيت داوود David. وقد فقدت اسمها السّابق في زمن هيرود Herod العظيم الذي رفعها من دولة مخربة إلى دولة عظيمة جداً، وسمّاها على شرف أوغستوس قيصر Augustus Caesar سبسطية Sebasta. وهي واقعة على جبلةٍ طويلة ذات شكل بيضوي، ولها أولاً وادٍ مثمر، ثم حلقة من التلال حولها. وهذه المدينة العظيمة الآن قد تمّ تحويلها كلياً إلى حدائق؛ وجميع الرّموز الباقية تشهد بأنه لم يكن يوجد في أي وقت مثيل لها وخاصّة في جانبها الشّمالي، وهي عبارة عن ساحة مربعة محاطة بأعمدة، وفي الشّرق بعض بقايا ضئيلة لكنيسة عظيمة، يقال إنّ الإمبراطورة هيلينا بنتها في المكان الذي كان القديس يوحنا المعمدان قد سُجن فيه وقُتل. وفي قلب الكنيسة تنزل درجاً يؤدي إلى نفس السّجن حيث أُهرق ذلك الدّم المقدّس. إن الأتراك الذين يوجد منهم هنا بضعة عائلات فقيرة، يحافظون على هذا السّجن باحترام كبير وقد بنوا فوقه مسجداً صغيراً؛ ولكن بقليل من المال يدعونك تدخل وتشبع فضولك بسرور.

وبمغادرة سبسطية مررنا خلال نصف ساعة بدير شرف Sherack، وبعد نصف ساعة أخرى مررنا بقرية Barseba وهما قريتان على الجانب الأيمن؛ ومن ثم لدى دخولنا في وادٍ ضيق يقع شرقاً وغرباً ويرويه نهر ظريف، وصلنا خلال ساعة إلى نابلس.

إن نابلس هي شـكيم Sychem أو سـيخار Sychar، كما تسـمّى في العهد الجديد. وهي تقع في وادٍ ضيق بين جبل جرزيم Gerizim في الجنوب وإيبال Ebal في الشّمال، وقد بُنيت عند أسـفل جبل جرزيم؛ لذلك فإن وضعية كل من المدينة والجبال وصفها يوسيفوس Josephus (Antiq. Jud. Lile. v. Cap. q.) وعن جبل جرزيم Gerizim يقـول بأنـه معلق فـوق شـكيم Sychem، و Libe. iv. cap. ult. ولقد أمر موسـى بأن ينصبوا مذبحاً نحو الشّـرق غير بعيد عن شـكيم Syehem، بين جبل جرزيم Gerizim على اليمين (وذلك نحو الذي يطل شرقاً على الجنوب) وإيبال Ebal على اليسار (أي في الشّـمال)؛ الذي يحدّد بسـهولة مركز هذين الجبلين، ومـن جبل جرزيم Gerizim حيـث أمر الله بـأن تُلفظ البركات على أبناء إسـرائيل، ومن جبل إيبـال Ebal اللعنات (سـفر التثنية، 11: 29). وعلـى الجبل الأول كان للسّـامريين Samaritans الذين كان سـكنهم فـي شـكيم Sychem، معبد صغير أو مـكان للعبادة، لا يزالـون معتادين على زيارته في فصول معينة، للقيام بطقوس ديانتهم، ولم أسـتطع أن أعلم بالتأكيد ما كانت هذه الطّقوس أو الشّعائر.

وعلى أحد هذه الجبال أيضاً كان أن أمر الله بني إسـرائيل بأن يقيموا أحجاراً كبيرة وينقشـوا عليها مجمل شـريعتهم؛ وأن يبنوا مذبحاً، وأن يقدّموا أضحيات ولائهم وأن يبتهجوا أمام المولى (سفر التثنية، 26: 4).

نابلـس Naplosa في الوقت الحاضـر بحالة زريّة جداً، وذلـك بالمقارنة بما كانت عليـه قديمـاً. وهـي تتألف بصورة رئيسـية مـن شـارعين متوازيين تحت جبـل جرزيم Gerizim؛ ولكنها مملوءة بالناس، وهي مجلس الپاشا.

بعد أن دفعنا رسـومنا هنا، انطلقنا ثانية في المسـاء وتابعنا مسـيرتنا في نفس الوادي الضيـق بين جرزيـم Gerizim وإيبال Ebal (لا أكثر من ثُمـن ميل عرضاً)، ورأينا على يميننـا وخـارج المدينة تماماً مسـجداً صغيراً يُقال إنـه بُني فوق الضريح الذي اشـتراه يعقـوب Jacob مـن حَمـور Hamor وهو أبو شـكيم Shechem (سـفر التكوين، 33: 19). وذلك ينسجم مع اسم ضريح يوسف Joseph، حيث دُفنت عظامه هنا بعد نقلها

خارج مصر (سفر يوشع، 25: 32).

بعد حوالي ثلث ساعة من نابلس Naplosa، وصلنا إلى بئر يعقوب Jacob's Well، وهو مشهور ليس فقط بسبب صاحبه، ولكن أكثر بكثير بسبب تلك المحاورة التذكارية التي أجراها هنا مخلّصنا المبارك مع المرأة السّامريّة (إنجيل يوحنّا، 4). وإيبال Ebal على اليسار (أي على الشّمال). إذا كان يجب الاستفسار فيما إذا كان نفس البئر الذي جرى الادعاء من أجله أو لا. ويبدو بأنه من المشكوك فيه بأن يقع بعيداً من سيخار Syechar بالنسبة للنساء بأن يأتين كل هذا البعد ليستقين الماء؟ والجواب على ذلك بأنه من المحتمل أن المدينة امتدّت بشكل أبعد بهذا الاتجاه في العصور السّابقة أكثر مما هي عليه الآن، كما يمكن أن يُخمّن من خلال بعض قطع من جدار سميك جداً، لا يزال يُرى غير بعيد من هنا.

وكانت سابقاً فوق البئر كنيسة كبيرة بنتها تلك الوليّة المتعبّدة العظيمة المولّهة بالأرض المقدّسة الإمبراطورة هيلينا Helen؛ ولكن عوادي الزّمن بالإضافة إلى أيدي الأتراك لم تترك شيئاً باقياً من هذه الكنيسة سوى بضعة أساسات. والبئر في الوقت الحاضر مغطى بسرداب حجري قديم يمكنك النزول إليه عبر ثقب ضيّق جداً؛ ثم بإزالة حجر منبسط عريض تكتشف فم البئر نفسه. وهو محفور في صخر صلب وقطره حوالي ثلاثة ياردات، وعمقه خمس وثلاثون يارداً؛ وخمسة منها وجدناها مملوءة بالماء.

عند هذا البئر ينتهي وادي شكيم Sychem الضيق، ويفتح نفسه على حقل عريض من المحتمل أنه جزء من حصة الأرض تلك التي أعطاها يعقوب Jacob لابنه يوسف Joseph (إنجيل يوحنّا، 4: 5) وهي تُسقى من جدول حديث يجري بينه وبين شكيم Sychem، وهو يجعله إلى درجة كبيرة أخضر ومثمراً بحيث يمكن النظر إليه كرمز قائم للحنان الليّن لذلك الأب الصّالح لأحسن أبنائه (سفر التكوين، 48: 22).

ومن بئر يعقوب اتجه طريقنا نحو الجنوب على طول وادٍ فسيح جداً وخصيب، وقد مررنا بقريتين على جهة اليمين، إحداهما تسمّى حوارة Hower والأخرى السّاويّة

Sawee، وقد وصلنا خلال أربع ساعات إلى خان لبنان وأقمنا هناك. ومشوارنا كله اليوم استغرق حوالي ثماني ساعات، وكان اتجاهنا يتراوح بين الشّرق والجنوب.

ويقع خان لبنان على الجانب الشّرقي من وادٍ طيب فيه قرية بنفس الاسم تقع مقابله على الجانب الآخر من الوادي. وأحد هذين المكانين إما الخان أو القرية من المفروض بأنه كان لبنان المذكور في سفر القضاة (11: 19) بحيث أنّ كلاً من الاسم والموضع يبدوان متطابقين.

الخميس 25 **مارس**: يمتدّ طريقنا من خان لبنان عبر ريف جبلي وصخري أخذنا منه عينة حالما ركبنا في الصّباح التالي، وكانت مهمتنا الأولى أن نتسلق جبلاً وعراً وصعباً جداً، وبعد ثلاثة أرباع السّاعة وعلى مسافة ما على الجهة اليمنى غادرنا قرية تسمّى سنجل[1] Cinga؛ وخلال ساعة أخرى دخلنا في وادٍ ضيق جداً، بين تلتين عاليتين وصخريتين، وفي نهايته الأبعد وجدنا أطلال قرية ودير. وفي نفس هذا المكان أو حوله يُفترض أنه كان يوجد دير يعقوب Jacob حيث كان له مضجعه الحجري الذي جعل مريحاً بتلك الرّؤية البديعة للرّب وللملائكة الصّاعدين والنازلين على سلّم يصل بين الأرض والسّماء (سفر التكوين، الأصحاح 28). وقرب هذا المكان توجد الحدود التي تفصل بين أفراييم Ephraim وبنيامين Benjamin (سفر يوشع، 18: 13).

ومن هنا مررنا خلال مزارع زيتون واسعة؛ ولدى مغادرتنا الجيب Geeb أولاً ثم سِلواد[2] Selwid، وهما قريتان عربيتان على الجانب الأيمن، وصلنا خلال ساعة ونصف إلى طريق قديم مفتوح بعمل كبير فوق شفير صخري، ووصلنا خلال ساعة أخرى إلى البيرة Beer. هذا هو المكان الذي هرب إليه يوثام Jotham من انتقام أخيه أبيميلك Abimelech (سفر القضاة، 9: 21). ومن المعتقد أيضاً بأن المكان هو نفسه مِخماس (سفر صموئيل الأول، 14: 5).

---

(1) سمّيت في أيام الغزو الصّليبي نسبة لكونت تولوز ريمون دى سان جيل Raymond de Saint-Gilles الذي دعاه المؤرخون المسلمون: ريموند صنجيل.

(2) تقع سِلواد في الشمل الشرقي من رام الله على طريق القدس - نابلس.

تتمتع البيرة Beer بموقع مبهج جداً على منحدرٍ سـهلٍ جنوباً. ولها في أسـفل التلة ينبوع وافر ذو ماء ممتاز، اكتسبت اسمها منه. وفي الجهة العليا توجد بقايا كنيسة قديمة بنتهـا الإمبراطورة هيلينا Helena في ذكرى العـذراء المباركة التي ذهبت للتفتيش عن ولدها عيسـى، كما هو مذكور في إنجيل لوقا (2: 24) فذهبت، كما تقول الرّواية، إلى هذه المدينة فلم تجد الذي أحبّته روحها، فجلست مع رفقتها متعبة ومكتئبة بخيبة أمل حزينة جداً، وذلك في نفس المكان الذي تقع فيه الكنيسـة الآن. ولكن فيما بعد ولدى عودتهـا إلـى القدس تحولت مخاوف الأمومة لديها إلى فرح عندما وجدته جالسـاً في الهيكل بين الأطباء يستمع إليهم ويسألهم أسئلة.

وعلـى طـول سـفر هذا اليوم مـن خان لبنـان إلى البيـرة Beer وأيضاً علـى مدى ما اسـتطعنا أن نـرى حولنا، أبدى الرّيـف وجهاً مختلفاً تماماً عمّا كان عليه سـابقاً، فصار لا يقدّم شـيئاً للنظر في معظم الأماكن سـوى صخور عارية وجبال وانحدارات. وترى الحجّاج بالنظر إليها عُرضة لأن يكونوا مندهشين كثيراً وقد خابت توقعاتهم.

ولكـن مـن الواضح لأيّ امـرئ أن يلاحظ بأن هـذه الصّخور والتـلال كانت قديماً مغطاة بالتربة ومزروعة، ومهيئة لتسـاهم بإعالة السّـكان كما لو كان الرّيف كله سـهلاً، لا بل ربما أكثر بكثير، نظراً لأن سـطحاً جبلياً وغير مسـتوٍ كهذا يعطي مسـاحة أكبر من الأرض للزراعة مما يصل إليه هذا الرّيف فيما لو سُوّي إلى سطح كامل.

لزراعـة هذه الجبـال كانت طريقتهم بـأن يجمعوا الأحجـار ويضعوها في صفوف متعـدّدة على طول جوانب التلال وذلك على شـكل جـدار. وبحدود كهذه فقد دعموا التراب من التسـاقط ومن أن ينجرف إلى الأسـفل؛ وشكّلوا مدرّجات عديدة ذات تربة ممتازة، ترتفع تدريجياً واحداً فوق الآخر من أسفل إلى أعلى الجبال.

من خلال هذه الطّريقة في الزراعة فإنك ترى آثار أقدام حيثما ذهبت في جميع جبال فلسطين. وهكذا فإن نفس الصّخور جُعلت مثمرة. وربما لا يوجد بقعة في جميع هذه الأرض لم يجر تحسـينها سـابقا لإنتاج شـيء ما أو غيره، لتوفير قوت الحياة البشـرية، لأنه لا شـيء يمكن أن يكون مثمراً أكثر من البلدان المنبسـطة، سـيما لإنتاج الحبوب

أو المواشـي وبالتالـي إنتاج الحليب، بالرّغـم من أن التلال غير صالحـة لجميع أنواع المواشـي ما عدا الماعز، حيث تـوزع على المدرجات كما هي موصوفة سـابقاً والتي قدّمـت بصـورة جيـدة لزراعة الحبـوب والبطيخ واليقطيـن والخيار ومنتجـات حقلية مشابهة توفّر الطّعام الرّئيسي لهذه البلدان لعدة أشهر في السّنة.

ومعظـم الأقسـام الصّخرية التي لم يمكـن تعديلها بتلك الطّريقـة لإنتاج الحبوب، يمكن أن تخدم لزراعة أشـجار العنب والزّيتون؛ التي تُسـرّ باسـتخراج عصيرها الماتع بالنسبة للأولى ودَسمها بالنسبة للأخرى، وذلك بصورة رئيسية في هذه الأماكن الجافة و الصّلبة، والسّهل الكبير الذي يصل إلى البحر الميت والذي بسبب ملوحته كان يُظنّ بأنه لا يقدّم خدمة لكل من المواشي والحبوب والزّيتون والعنب، ولكن فائدته المناسبة هي تغذية النحل لصناعة العسـل، التي يعطينا يوسـيفوس Josephus شهادته عن ذلك De Bell. Jud. lib. v. cap. 4. ولدي سبب لأعتقد أنه بدا أصدق، ذلك لأنني عندما كنت هناك شعرت في أماكن كثيرة برائحة عسل وشمع قوية كما لو كنت في منحلة. إن هذا البلد إذن يمكن أن يحافظ على التعداد الكبير لسـكانه، وهو في كل جزء منه مُنتج إمـا للحليب أو القمح أو الخمر أو الزّيت أو العسـل، وهي عبارة عن الطّعام الرّئيسـي لهذه الأمم الشّـرقية. إن بنية أجسـامهم وطبيعة مناخهم جعلهم يميلون إلى طعام أكثر تقشفاً مما نستهلك في إنكلترا وفي مناطق أبرد أخرى. ولكنني أسرع الآن إلى القدس.

لدى مغادرتنا البيرة Beer، تابعنا كما سـبق في ريف حجري وعر قدّم لنا منظر عدّة قـرى قديمة مخربة، ووصلنا خلال سـاعتين وثلث إلى أعلى تـل ظفرنا منه بأول منظر للقـدس؛ كانت الرّامـة Rama التي تدعى قديماً جبعة شـاؤل Gibeah of Saul، ماثلة على الجهة اليمنى مع سهل أريحا Jericho وجبال جلعاد Gilead على اليسار. وخلال سـاعة أخرى اقتربنا من أسـوار المدينة المقدّسـة؛ ولكنا لـم نسـتطع الدّخول مباشـرة، حيث كان من الضروري أولاً أن نرسـل موفداً ليعرّف الحاكم بوصولنا وبرغبتنا بحرية الدّخول، ودون ذلك الاحتفال المسبق لا يجرؤ أي فرنجي أن يدخل الأسوار.

لذلـك مررنا على طول الجانـب الغربي للمدينة، وبوصولنا إلـى الزّاوية فوق بوّابة

بيـت لحم توقفنا هنـاك لكي نتوقع عودة موفدنا. لم ننتظر أكثر من نصف سـاعة عندما جلـب لنا السّـماح بالدخـول، ودخلنا وفق ذلك مـن بوّابة بيت لحـم، والمطلوب من جميع الفرنجة، ما لم يحدث بأن يأتوا بصحبة معتمد عام، بأن يترجّلوا عند البوّابة وأن يسـلّموا أسلحتهم ويدخلوا مُشـاة. ولكن بما أننا أتينا بصحبة القنصل الفرنسي، كانت لنـا مزيّـة الدّخول راكبين ومسـلحين. ومن ضمن البوّابة رأسـاً وصلنا إلى شـارع على الجانـب الأيسـر، واصطحبنا القنصل إلى بيته الخاص بدعـوات ودّية وكريمة جداً بأن نعتبر ذلك بيتنا طالما بقينا في القدس.

وبعـد أن تناولنـا قليلاً من المرطبات ذهبنا إلى الدّيـر اللاتيني حيث كانت العادة أن يُحتفى بجميع الحجّاج الفرنجة، فاستقبلنا الحارس والرّهبان بترحيبات كثيرة ولطيفة، واسـتبقونا للعشـاء، وعُدنا بعد ذلك إلى بيت القنصل الفرنسـي للمبيت، وهكذا تابعنا إقامتنا في بيت القنصل الفرنسي وظللنا نتناول طعامنا مع الرّهبان طيلة إقامتنا كلها في القدس.

الجمعة 26 مارس: اليوم التالي كان الجمعة العظيمة حسب التقويم اللاتيني، وتعيّن على القنصل الذهاب إلى كنيسة الضريح لكي يحتفل بعيده؛ حيث قمنا بمرافقته بالرّغم مـن أن عيد الفصح لنا كان بعد أسـبوع من عيدهم، فوجدنا أبواب الكنيسـة محروسـة بعـدّة جنـود إنكشـارية وضباط أتـراك آخرين؛ جرى وضعهـم هنا ليراقبـوا بألا يدخل أحد إلا بعد أن يكون قد دفع أولاً رسـومه المعينة. وهذا تقريباً حسـب بلد أو شخصية الأشخاص الدّاخلين. وبالنسبة للفرنجة من المعتاد أن يكون الرّسم أربعة عشر دولاراً للشخص الواحد، مالم يكونوا كنسيين؛ حيث بهذا الحال يدفعون نصف الرّسم.

ويمكنك بعد دفع هذا الرّسـم الدّخول والخروج مجاناً حسـبما تريد كل أيام العيد؛ شـريطة أن تغتنم المناسـبات العادية التي من المعتاد أن تفتح الأبـواب فيها؛ ولكن إذا فُتحت لك الأبواب في أي وقت خارج الأوقات العادية وذلك بقصد حاجتك الخاصة عندها يتوجّب دفع الرّسم الأول ثانية.

بعد أن يجرى إدخال الحجّاج جميعاً في هذا اليوم، كانت أبواب الكنيسـة تُغلق في

المساء، ولا تفتح حتى يوم عيد الفصح؛ وبذلك كنا نُحتجز في حيّز ضيق ولكن محبّب جداً لمدة ثلاثة أيام. وقضينا وقتنا برؤية الاحتفالات التي كان يقوم بها اللاتين في هذا العيد، وبزيارة الأماكن المقدّسة المتعددة؛ التي كانت لنا الفرصة بأن نعاينها بكثير من الحرية والتأمل كما أردنا.

الأحد 28 مارس: في صباح عيد الفصح جرى فتح الضريح ثانية باكراً جداً، انقشعت غيوم الصّباح السّابق، وظهر على وجوه الرّهبان البِشر والصّفاء كما لو كانت ساعة الحضور الحقيقية لقيامة سيدنا.

وجرى الاحتفال بالصّلاة هذا الصّباح وذلك أمام الضريح المقدّس لكونه أرفع مكان في الكنيسة؛ حيث كان قد أقيم للأب الحارس عرشٌ مزيّن بأكسية أسقفية مع قلنسوة على رأسه، وعلى مرأى من الأتراك أعطى الخبز المبارك لكل من كان ميالاً لأخذه؛ وكان غير متمنّع على الأطفال في سن السّبع أو الثّماني سنوات، وبانتهاء هذا القدّاس خرجنا من الضريح وعدنا إلى الدّير وتناولنا العشاء مع الرّهبان.

وبعد العشاء اغتنمنا فرصة الذهاب لزيارة بعض الأماكن الجديرة بالملاحظة خارج أسوار المدينة؛ وبدأنا بتلك التي كانت في الجانب الشّمالي.

كان أول مكان توجهنا إليه كهفاً كبيراً خارج بوّابة دمشق بقليل؛ قيل إنه كان في وقت ما مسكن النبي إرميا Jeremiah. وعلى الجانب الأيسر يظهر سرير النبي وهو رفّ على الصّخر يعلو عن الأرض حوالي ثمانية أقدام؛ وغير بعيد منه المكان الذي يقال بأنه كتب فيه رثاءَ، أي أن هذا المكان هو حالياً مدرسة الدّراويش، وهو محفوظ باحترام كبير من قبل الأتراك واليهود بالإضافة إلى المسيحيين.

كان المكان التالي الذي ذهبنا إليه تلك الكهوف المسماة قبور الملوك؛ ولكن من الصّعب أن نتبيّن لأيّ سبب أُطلق عليه هذا الاسم؛ لأنه من المؤكد أن لا أحد من ملوك إسرائيل أو اليهود قد دفن هنا؛ إن الكتب المقدّسة تحدّد أماكن أخرى لقبورهم؛ ولكن يمكن التفكير بأنه ربما كان حزقيال Hezekiah قد دفن هنا، وكانت هذه قبور أبناء

داوود David، المذكور في (سفر أخبار الأيام الثاني، 32: 33). ومهما يكن الذي دفن هنا فمن المؤكد بأنه المكان نفسه يكشف عن تكاليف كبيرة لكل من العمل والثّروة، بحيث يمكننا أن نفترض تماماً بأن ذلك كان من عمل الملوك، ويمكنك أن تقترب منه عند الجانب الشّرقي عبر مدخل نُحت في الصّخر الطّبيعي، يُدخلك إلى ساحة مفتوحة مساحتها حوالي أربعين رهونة مربعة منحوتة في الصّخر، ويحيط بها عوضاً عن الجدران.

ويوجد على الجانب الجنوبي للسّاحة رواق ذو أعمدة طوله تسع رهونات وعرضه أربع رهونات، منحوت بصورة مماثلة من الصّخر الطّبيعي، وهذا نوع من الهندسة المعمارية يجري على طول الواجهة مزخرف بنقوش فواكه وأزهار ولا يزال يمكن رؤيته، ولكن مع مرور الزّمن انطمس كثيراً، وفي نهاية الرّواق على الجانب الأيسر تنزل إلى الممرّ ثم إلى القبر. والباب الآن مشعّث جداً بالأحجار والقمامة بحيث أن من الصّعوبة بمكان الزّحف خلاله. ولكنك تصل من الدّاخل إلى غرفة كبيرة نسبياً، مساحتها حوالي سبعة أو ثمانية ياردات مربعة منحوتة في الصّخر الطّبيعي، جوانبها وسقفها مربعة بصورة مضبوطة، وزواياها صحيحة جداً بحيث أنه ما من مهندس مع عدّة هندسية كان يستطيع أن يبني غرفة أكثر انتظاماً؛ وكامل الغرفة متين وتام بحيث يمكن أن يُقال بأنها غرفة قد جرى تجويفها من قطعة واحدة من الرّخام. ومن هذه الغرفة تمرّ إلى ستة غيرها الواحدة ضمن الأخرى. وجميعها من نفس البناء كالأولى. ومن بين هذه الغرف فالغرفتان الأخيرتان أعمق من الباقيات، حيث لهما نزول ثانٍ ذي حوالي ست أو سبع درجات فيهما.

في كل واحدة من هذه الغرف ما عدا الأولى، يوجد توابيت من الحجر موضوعة في تجاويف في جوانب الغرف. وكانت أولاً مغطاة بأغطية أنيقة ومنقوشة بالأكاليل الزّهرية؛ ولكن معظمها الآن قد جرى تحطيمها إلى قطع من قبل أيادٍ منتهكة لحرمة الأشياء المقدّسة، إن جوانب وسقف هذه الغرف كانت دائماً يتساقط منها رطوبات مبتلة حيث تتكاثف عليها، ولمعالجة هذا الإزعاج وللحفاظ على غرف الأموات

بحالـة نظيفـة، يوجد في كل غرفة قناة صغيرة محفـورة في الأرض لنزح القطرات التي تتساقط بصورة مستمرة إليها.

ولكـن الشّـيء الذي كان أكثر إدهاشـاً في هذه الغرف تحـت الأرضية كانت أبوابها التـي لم يبق منها سـوى واحد معلقاً، وقـد تُرك عمداً ليحيّر الناظريـن. وهو يتألف من لوح حجري بسـماكة سـتة إنشات، وبأبعاده الأخرى كان يسـاوي قياس باب عادي أو نوعـاً ما أقـل. وكان منحوتاً بطريقة ليشـبه قطعة من خشـب السّـنديان؛ وكان يبدو من نفس نوع كل الصّخر؛ وكان يدور على مفصّلتين بشكل جذوع. هذه المفصلات كانت مـن نفـس القطعة الكليـة الحجرية للباب؛ وكانـت متوضعة في ثقبين مـن الحجر غير المتحرك، واحد في الأعلى والآخر في الأسفل.

رجعنـا مـن هذه القبـور نحو المدينـة ثانية. وتماماً لـدى بوّابة هيـرود Herod ظهر لنـا كهفٌ مملوء بالمياه الوسـخة والوحل. وهذا ينطبق على السّـجن الذي كان إرمياه Jeremiah قـد حُبـس بـه مـن قبـل صدقيـاه Zedekiah حتى تحـرّر بحسـنة عبدملك Ebedmelech (سـفر إرميـا، الأصحـاح 38). وفي هذا المكان اختتمنـا زيارتنا لذلك المساء.

الاثنين 29 مارس: وكان اليوم التالي اثنين عيد الفصح، فانطلق والي المدينة حسب العـادة مـع مجموعات متعدّدة مـن الجنود، لينقل الحجّاج إلـى الأردن. لأنه دون هذه الحراسـة لا يمكـن الذهـاب إلى هناك، بسـبب كثرة وتعـدّي النّاس في هـذه الأجزاء، وتبلـغ قيمة الرّسـم للمحافـظ لمرافقته وجنوده بهذه المناسـبة اثني عشـر دولاراً لكل حاج من الفرنجة، ولكن إذا كان المرء كنسـياً فسـتة دولارات؛ يجب أن تدفعها فيما إذ كنت ميالاً إلى الذهاب في الرّحلة أو كنت مقيماً في المدينة. خرجنا لدى بوّابة القديس اسطفان St. Stephen وكنا جميعاً من كل أمة وجنس حوالي ألفي حاج.

ولـدى اجتيازنا وادي يهوشـافاط Jehoshaphat وجزءاً من جبـل الزّيتون Mount Olivet، وصلنـا خـلال نصف سـاعة إلى بيت عَنيـا Bethany؛ وهـي الأن مجرد قرية

صغيـرة، ولـدى مدخلهـا الأول يوجد أطـلال قديمة التـي يدعونها قلعـة لازاروس[1] Lazarus (إلعيـزر) التـي مـن المعتقد أنهـا كانت بيت خليل سـيدنا. وفي أسـفل نزلة صغيـرة ليسـت بعيدة من القلعـة نرى الضريح الـذي صعد منه إلى وفـاة ثانية، وبذلك الصّـوت المنعـش للمسـيح: (أيهـا الفقيـر تقـدّم). وأنت تنـزل إلى الضريـح بخمس وعشـرين درجـة منحـدرة؛ حيث تصـل فـي أسـفلها أولاً إلى غرفـة صغيرة مربعة، ومـن هنـا تزحف نازلاً إلى غرفة آخرى أصغر وأعمق حوالـي يارد ونصف، وهي التي يقـال بأن الجثة قد وضعت فيها، إن هذا المكان محفوظ باحترام كبير من قبل الأتراك، الذين يسـتعملونـه كمصلى، ويطلبون من جميع المسـيحيين رسـماً صغيراً لدخولهم إليه.

وعلى بُعد حوالي رمية قوس من هذا المكان تمرّ بالمكان الذي يقال بأنه كان منزل مريـم المجدليّـة Mary Magdalen؛ ومن ثم بالنزول على تلة منحدرة فإنك تصل إلى نبـع الحـواريـين Fountain of the Apostles؛ وقـد سـمّي بهذا الاسـم وفـق المتواتر لأن هـؤلاء الأشـخاص كانـوا معتادين بأن يريحوا أنفسـهم هنا، وذلك أثناء سـفراتهم المتكـررة بين القدس وأريحا. وحقاً إنه لشـيء محتمل جداً ولا أكثر مما أعتقد يجري مـن قبل جميع من يسـافرون في هذا الطّريـق. والنبع قريبٌ من جانـب الطّريق ويدعو كثيراً المسافر العطشان.

وإنـك تتابـع مـن هـذا المكان فـي طريـق معقد بين تـلال ووديـان علـى التعاقب؛ وجميعهـا ذات منظر قاحل حالياً، ولكننا اكتشـفنا علامـات واضحة لعمل المزارع في الأيـام القديمة. وبعد سـفر لبضعة سـاعات في هذا النوع من الطّريـق، فإنك تصل إلى الصّحـراء الجبليـة التـي قادت الـرّوح إليها مخلّنا المبـارك ليغويه الشّـيطان. إنه مكان تعيـس جداً وجـاف وقاحل يتألف من جبـال صخرية عالية ممزقة جـداً وغير منتظمة، كما لو أن الأرض قد عانت هنا من ارتجاج كبير حيث خرجت أمعاؤها من مكانها.

وعلى الجانب الأيسـر، ناظرين إلى الأسـفل في واد عميق عندما مررنا، رأينا بعض

(1) تعرف اليوم بالعيزريّة.

الأطلال لخلايا وأكواخ صغيرة؛ كانت سابقاً كما أخبرونا مساكن للزهّاد الذين تقاعدوا هنا للكفارة والتقشف. وبالتأكيد لم يمكن أن يوجد في كل الأرض مكان عديم الرّاحة ومهجور أكثر من هذا المكان لذلك الغرض. ومن أعلى تلال الخراب هذه كان لنا منظر مسر على كل حال لجبال جزيرة العرب والبحر الميت وسهل أريحا؛ الذي كان آخر مكان نزلنا إليه بعد أن مشينا حوالي خمس ساعات من القدس.

حالما دخلنا السّهل اتجهنا إلى اليسار وبعد أن مشينا حوالي ساعة في ذلك الاتجاه وصلنا إلى أسفل جبل الغواية Quarantania؛ الذي يقال بأنه الجبل الذي الشّيطان أخذ اليه مخلّصنا المبارك عندما أغراه بذلك المنظر الخيالي لجميع ممالك العالم وأمجاده. إنه كما يدعوه القديس متى St. Matheu «جبل عالٍ للغاية» وصعوده ليس صعباً فقط ولكنه خطير أيضاً. وله دير صغير في الأعلى ودير آخر في الأعلى ودير آخر في منتصفه مشيّد على جزء ظاهر من الصّخر؛ وقريباً من هذا الدّير الأخير توجد عدة مغاور ونقوب في جانب الجبل، كان يستعملها النسّاك قديماً، ويستعملها البعض في هذه الأيام للاحتفال بعيد الفصح؛ وذلك تقليداً لمخلّصنا المبارك. وجدنا في معظم هذه الكهوف بعض العرب يسكنون مع أسلحتهم النارية وقد أعاقوا صعودنا، طالبين مئتي دولاراً ليتركونا نصعد الجبال. وهكذا غادرنا دون متاعب إضافية، راضين بأن لدينا عذراً جيداً جداً لعدم تسلق منحدرٍ خطر للغاية.

وبنزولنا من هنا إلى السّهل مررنا بقناة خربة ودير بنفس الوضع؛ وبعد ركوب حوالي ميل وصلنا إلى النبع اليشع Elisha؛ الذي سمّي هكذا لأنه تصفى بأعجوبة من ملوحته من قبل ذلك النبي، بناء على طلب رجال أريحا Jericho (سفر الملوك الثاني، 2: 19). ويتمّ تلقّي مياهه الآن في حوض طوله حوالي تسع أو عشرة خطوات، وخمس أو ست خطوات عرضاً، وحوالي خمس وأربعين أو خمسين قدماً، وعرضه خمس وعشرون أو ثلاثون قدماً، ومن هنا تصدر مياهه بكمية جيدة وتنقسم إلى عدة جداول صغيرة تعمّ نضارتها على كل الحقل بينه وبين أريحا Jericho وتجعله مثمراً للغاية. وقريباً من النبع تنمو شجرة كبيرة وتنتشر غصونها فوق الماء. لقد تناولنا فطوراً

هنـا في الظل مع الأب الحارس وحوالـي ثلاثين أو أربعين راهباً آخرين ذهبوا في هذه الرّحلة معنا.

وفي حوالي مســافة ثلث ســاعة من هنا تقع أريحا، وهي الآن مجرد قرية كدرة فقيرة للعرب. وحُملنا من هنا لنرى مكاناً يقال بأنه بيت زكّايوس Zacccheus (زَكّا) كان يقع هنـاك؛ والذي هو مجرد بناء حجري مربع قديـم على الجانب الجنوبي لأريحا. وعلى بُعد حوالي فرلنغ[1] من هنا خيّم الحاكم مع جماعته، وغير بعيد عنهم أقمنا هذه الليلة.

الثلاثـاء 30 مارس: انطلقنا في الصّباح التالي باكـراً جداً نحو الأردن حيث وصلناه خلال ساعتين. وجدنا السّهل قاحلاً جداً عندما مررنا فيه، وهو لا ينتج شيئاً سوى نوعا من samphire ونباتات بحرية أخرى كهذه. ولاحظت في أماكن كثيرة من الطّريق حيث توجد تجمعات مائية، بياضاً على سـطح الأرض؛ ولدى التجربة وجدتُ بأنه قشرة من الملح نجمت عن الماء الذي ينضح من الأرض، وذلك بنفس الطّريقة التي تحدث كل سنة في وادي الملح[2] قرب حلب بعد فيضان الشّتاء. وجدت هذه الترسّبات الملحية علـى بُعد بضعة فراسـخ من البحر الميت؛ وهي تبيّن بأن الوادي بأسـره لا بدّ أن يكون في جميع أنحائه مُشرباً بغزارة بذلك المعدن.

وعلـى بُعـد حوالي ثمن ميل مـن النهر وفي ذلك المكان الذي زرناه، توجد كنيسـة قديمـة مخربـة ودير مخصّص أيضاً للقديـس يوحنّا St. John في ذكرى تعميد سـيدنا المبارك. إنه دير مؤسـس كما يمكن تخمينه في نفس المكان حيث كان له شرف القيام بتلك المهمّة المقدّسـة وأن يغسـله وهو الـذي كان أنقى للغاية من الماء نفسـه، وعلى الجانب الأبعد للدير السّـابق ذكره تقع هنـاك أرض منحدرة صغيرة، يمكن أن ندعوها بصورة مناسـبة الضفة الأولى والخارجية لنهر الأردن؛ وذلك على مدى ما يُفترض أن يمتـدّ النهـر، أو علـى الأقل كما كان يفيض فـي بعض الفصول من السّـنة، أي في زمن المحصول (سـفر يوشـع، 3: 15) أو كما هو مُعبّر عنه في سفر (أخبار الأيام، 12: 15)

(1) الفرلنغ مقياس قديم يعادل ثُمن الميل.

(2) يقصد سبخة الجبّول، وسيذكرها في آخر كتابه.

فـي الشّـهر الأول أي في مـارس. ولكن حالياً فيما إذا بسـبب أن النهر قـد حُتّ مجراه بشـكل أعمق مما كان عليه سـابقاً بسـبب سـرعة الجريان، أو فيما إذا بسـبب أن مياهه قـد حُولـت في جهة أخـرى، يبدو أنه نسـي عظمته القديمـة؛ لأننا لم نتمكـن من رؤية إشـارة أو احتمـال لمثل هذه الفيضانـات عندما كان هناك فـي الثّلاثين من مارس وهو الوقت المناسـب لهذه الفياضانات، كلا لم يشـهد النهر حتـى الآن الفيضان، حيث أنه كان يجري على الأقل أخفض بياردين من حافة مجراه.

بعد النزول من الضفة الخارجية، فإنك تمشي حوالي ثمن ميل على شاطئ مستوي وقبـل أن تصـل إلى الضفة المباشـرة للنهر. إن هذه الضفة الثّانية محفوفة بالشـجيرات والأشـجار كالإثـل و الصّفصاف والدّفلـى، الخ.. بحيث لا تسـتطيع أن ترى ماءً حتى تدخـل خلالها، وفـي هذا الدّغل قديماً وحتى الآن أنواع متعـددة من الحيوانات البرية كانـت معتـادة بأن تلجأ إلى هنا، حيث انتهى أو زال وجودها من هذا الملجأ بفيضانات النهـر حيـث أعطى فرصـة لذلك التلميح في سـفر إرميا (49: 19 و50 و44): «سـوف يصعد كالأسد من ارتفاع نهر الأردن».

بعد وقت ليس قليل وصلنا إلى النهر، فنزلنا لكي نشبع ذلك الفضول والورع اللذين جلبانـا إلى هنا، ولكننا جرى إنذارنا من قبل بعض عسـاكر العرب على الجانب الآخر الذيـن أطلقـوا النار علينا؛ إنمـا على بُعد كبير جداً بحيث لم تحـدث إصابات. وعرقل هذا الإزعاج المتداخل الرّهبان عن القيام بصلاتهم المخصّصة لهذا المكان؛ وبدا بأن وضعهم في خوف فظيع على حياتهم بأكثر مما ظهر على باقي المجموعة؛ وبالرّغم من ذلك آخذين بعين الاعتبار حقارة وضعهم الحالي والثواب غير العادي الذي يفتخرون بأن يكون من حقهم في العالم الآخر، فإن المرء يفكر بحق بأنهم من بين جميع الرّجال ينبغي أن يكون لهم أقل سبب ليواجهوا خوفاً كبيراً من الموت، ومحبة جمّة لحياة مثل حياتهم.

ولكـن هـذا الإنـذار انتهى قريباً وعـاد كل واحد إلى شـأنه السّـابق، بعضهم خلعوا ملابسـهم واغتسـلوا فـي النهر؛ آخرون قطعوا أقواسـاً مـن الأشـجار؛ وكل رجل كان

مشـغولاً بطريقـة أو أخرى لأخذ تذكار لهذا النهر المشـهور. كانـت المياه معكرة جداً وسريعة للغاية ليُسبح فيها. وبالنسبة لعرضه فمن الممكن أنه كان حوالي عشرين ياردا، وبالنسـبة لعمقه فإنه تجاوز طولـي بكثير. وعلى الجانب الآخر ظهـر وجود دغل أكبر بكثير من ذلك حيث كنا؛ لكننا لم نجرؤ أن نسـبح لنأخذ أي تقدير معيّن لتلك المنطقة وذلـك بسـبب خوفنا من العرب؛ وقـد أطلقت علينا ثلاث طلقات وذلـك فوقنا تماماً، وكما يمكن أن نحزر بموجب تقريرهم كان ذلك قرب النهر.

ولـدى إنهـاء خطتنا هنا جمعنـا الوالي للعودة، وقد قادنا عائداً إلى وسـط السّـهل. وهنـاك جلسـنا تحت خيمتـه وجعلنا نمرّ أمامه واحـداً واحداً بغاية أنـه يمكنه أن يأخذ تقديـراً أكثر دقة عنا، ولا يخسـر شـيئاً من رسـومه، وبـدا لنا في هذا المـكان بأننا قرب البحـر الميـت، وكان لدى بعضنـا رغبة كبيرة بأن يقتربـوا أكثر ويشـاهدوا منظراً لتلك الميـاه المدهشـة الهائلة. ولكن لم يكن بالإمكان محاولة ذلـك دون إذن قائدنا. لذلك أرسـلنا بطلـب إذنه لذهابنا مع حـارس ليخدمنا، وقد منحنا هذيـن الطّلبين في الحال، ونفذنا مبتغانا مباشرة.

بمجيئنا خلال حوالي نصف سـاعة من البحر، وجدنا الأرض غير مستوية وتغيّرت إلـى تلال تشـبه تلك الأماكن فـي إنكلترا حيـث كان يوجد قديماً أتونات كلسـية. هل يمكـن أن تكـون هذه هـي الحفر التي القـي اليها ملـوك عمورة Gomorrah وسَـدوم Sodom من قبل الملوك الأربعة؟ (سفر التكوين، 13: 10) لا يمكنني أن أجزم.

بمسيرنا قرب البحر، مررنا خلال نوع من أجمة ذات شجيرات وقصب؛ وفيها أرانا دليلنـا الـذي كان عربياً نبعاً ذا مـاءٍ عذبٍ، ولا يرتفع أكثر من ثمـن ميل من البحر؛ وقد سمّاه ماءً عذباً لكننا وجدناه مالحاً.

والبحـر الميت محاط في الشّـرق والغرب بجبال عالية للغاية؛ وفي الشّـمال يحدّه سـهل أريحـا Jericho وفـي هذا الجانـب أيضـاً يتلقّى مياه نهـر الأردن؛ وهـو مفتوح فـي الجنـوب ويمتد إلى ما أبعد ممّا تصـل إليه العين. ويقال بأن طوله أربع وعشـرون فرسخاً، وعرضه ست أو سبع فراسخ.

وجدنا على شاطئ البحيرة نوعاً أسود من الحصى يحترق حالاً فيما إذا وضع على لهيب شمعة، ويعطي دخاناً ذا رائحة نتنة لا يمكن تحملها. وله هذه الخاصية بحيث أنه يفقد شيئاً من وزنه فقط وليس من حجمه لدى حرقه. أما التلال المحيطة بالبحيرة فيقال بأنها تزخر بهذا النوع من الأحجار الكبريتية. رأيت قطعاً منها حول دير القديس يوحنا St. John في البرية بحجم قدمين مربعين. كانت محفورة بنقش بارز ومصقولة بلمعان كبير كالرخام الأسود، وكانت مصمّمة لتزيين الكنيسة الجديدة عند الدّير.

والعُرف العام أن الطّيور التي تحاول أن تطير فوق هذا البحر تسقط ميتة فيه، وأن الاسماك والأنواع الأخرى من الحيوانات لا يمكنها تحمّل هذه المياه المميتة، إن التقرير السّابق الذي رأيته هو فعلاً منقوض لأن عدة طيور تطير حول وفوق البحر دون أن يصيبها أي أذى؛ وبالنسبة للتقرير الأخير أيضاً لدي بعض السّبب بأن أشك فيه بأنه مزيف حيث لاحظت بين الحصى على الشّاطئ صدفتين أو ثلاثة تشبه صدفات المحار. هذه الصّدفات كانت قد ألقتها الأمواج على بعد ساعتين من فم نهر الأردن، حيث أذكرها لئلا يُشتبه بها بأنها جُلبت إلى البحر بتلك الطّريقة.

أما بالنسبة للقار، الذي اشتهر به البحر كثيراً، فلم يكن منه شيئاً في المكان الذي كنا فيه، ولكنه متجمّع قرب الجبال بكميات كبيرة على الجانبين. وقد جُلبت لي عدّة كتل منه إلى القدس، وهي تشبه تماماً الزّفت ولا يمكن تمييزها مباشرة منه، حيث يمكن ذلك من رائحتها وطعمها الكبريتي.

كان ماء البحر صافياً جداً ومالحاً لأعلى درجة؛ وليس مالحاً فقط بل هو أيضاً مرٌّ للغاية ويسبّب الغثيان، بما أنني كنت أريد أن أقوم بتجربة لقوّته فقد نزلت فيه ووجدته بأنه قد حمل جسمي إلى الأعلى أثناء السّباحة بقوة غير عادية، ولكن بالنسبة لتلك المقولة لبعض المؤلفين بأنّ الرّجال الذين يخوضون فيه كانوا يطفون إلى الأعلى حالما ينزلون إلى عمق السّرة؛ فلقد وجدت ذلك لدى التجربة غير حقيقي.

وبما أنني كنت راغباً في أن أرى الأطلال، فيما إذا كانت موجودة لتلك المدن القائمة قديماً في هذا المكان، والتي جُعلت مثالاً مخيفاً للانتقام الإلهي، استعرضت

المياه باجتهاد على أبعد ما استطاعت عيني أن تصل؛ لكنني لم استطع أن أرى أية أكوام من الأطلال أو أي دخان يرتفع فوق سطح الماء؛ كما يوصف عادة في كتابات الجغرافيين وخرائطهم. ولكن ينبغي لي ألا أحذف ما أثبته لي بثقة الأب الحارس ووكيل القدس؛ فكل من الرّجلين حسب الظاهر لا يفتقران للفهم أو الاستقامة، أي أنهما عبر السّنوات قد رأيا مرة فعلا إحدى هذه الأطلال؛ التي كانت قرب السّاحل جداً، والمياه الضحلة جداً في ذلك الوقت، بحيث أنهما ذهبا إليها مع بعض الفرنسيين فوجدا هناك عدة أعمدة وقطع أبنية أخرى. وكان سبب حرماننا من ذلك المنظر، على ما أعتقد، هو ارتفاع الماء.

على الجانب الغربي من البحر يوجد رأس صغير كان بقربه كما أخبرنا أدلاؤنا، يقع النصب التذكاري لزوجة لوط Lot الممسوخة؛ وقسم منه، فيما إذا أمكن تصديقهم، ماثل حتى هذا اليوم. ولكن الفرصة الحالية لا تسمح لنا بأن نذهب ونفحص صدق هذه العلاقة؛ وحتى المناسبة لم تخدمنا فيما إذا استطعنا أن نصدق بصورة كافية تقريرهم ليغرونا بأن نذهب في مثل هذه الخدمة.

وأما بالنسبة لتفاح سَدوم Sodom الذي جرى الحديث عنه كثيراً، فإنني لم أرَ شيئا ولم أسمع عنه شيئاً في هذه الأماكن؛ ولم يكن يوجد أية شجرة يمكن رؤيتها قرب البحيرة بما يتوقع المرء منها هذا النوع من الفاكهة[1]؛ التي تجعلني بأن أصدق بأنه ربما يكون ثمّة خداع أكبر في هذه الفاكهة ممّا يقال عنها عادة، ووجودها نفسه بالإضافة لجمالها هو عبارة عن أسطورة تمّ الحفاظ عليها كما يحافظ اللورد بايكون Lord Bacon على كثير من الأفكار الأخرى الزّائفة لأنها تقدّم تلميحاً جيداً، وتساعد الشّعراء على المشابهة.

لدى عودتنا من البحر الميت وعلى بعد حوالي ساعة منه وصلنا إلى دير يوناني قديم مخرب، كان لا يزال قسم جيد من كنيسته باقياً مع عدة قطع من الرّسوم الزّيتية

---

(1) راجع:
.Tacit. Hst. Lib. 5. Joseph. Bell. Jud. lib. 5. cap. 5

الباقية؛ وذلك كتماثيل لعدة قديسين يونان، وفوق المذبح تمثيلٌ للعشاء الأخير لسيدنا، مع نصّ من الكتب المقدّسة مكتوب باليونانية «خُذ وكُل، الخ» وقد ميّزت في هذه الأنحاء وأيضاً في أماكن أخرى من السّهل رائحة عسل وشمع قوية، (كانت الشّمس حارة جداً)؛ وكان النحل نشيط جداً حول أزهار وأعشاب الملح التي ينتجها السّهل، وخلال ساعة ونصف عدنا إلى خيامنا ورفقتنا، في نفس المكان الذي نمنا فيه الليلة الماضية؛ وقضينا هناك هذه الليلة أيضاً.

رأيتُ من بين منتجات هذا المكان ثمرة جديرة بالملاحظة جداً يسمّيها العرب الزَّقّوم zacho-ne، إنها تنمو على شجرة ذات أشواك لها أوراق صغيرة؛ وهي بكل من شكلها ولونها تشبه جوزة صغيرة غير ناضجة. وبزرة هذه الثّمرة يسحقها العرب في الهاون؛ ثم يضعون اللب في ماء غالٍ ويقشون الزّيت الذي يطفو على الوجه. ويأخذون هذا الزّيت داخلياً للرضوض، ويستعملونه خارجياً لتخضير الجروح، ويفضلونه على بلسم جلعاد Gilead. حصلت على زجاجة منه، فوجدت لدى بعض التجارب الصّغيرة بأنه دواء شاف جداً.

إن ورود أريحا Jerieho لم تكن موجودة في هذا الفصل من السّنة.

الأربعاء 31 مارس: تركنا معسكرنا جميعا في هذا الصّباح في السّاعة الثّانية والنصف، وعدنا بنفس الطّريق التي أتينا منها، ووصلنا في حوالي ست ساعات قرب أسوار القدس. ولم تفكر جماعتنا بأنه من الملائم الدّخول إلى المدينة، فقرروا الذهاب مباشرة إلى بيت لحم. لذلك نزلنا في وادي يهوشافاط Jehoshaphat؛ وبمرورنا بالمدينة أخذنا الطّريق حالاً إلى المكان المقصود.

من القدس إلى بيت لحم مسافة سفر ساعتين فقط. إن الرّيف الذي يمتد الطّريق خلاله هو وادي رفائيم Rephaim؛ كما يمكن التذكر من يوسيفوس Jos. Ant.. lib. iv. cap. 10. وهو وادٍ شهير جداً لكونه مسرح انتصارات داوود David ضد الفلسطينيين Philistines (سفر صموئيل الثاني، 5: 23) وفي الطّريق فإنك تلقى هذه الأماكن التالية الجديرة بالملاحظة. أولاً : مكان يقال إنه بيت سمعان Simeon ذلك

القدّيس المسنّ الموقر، الذي أخذ مخلّصنا المبارك بين ذراعيه وأنشد ترنيمته *nunc dimittis* في المعبد. ثانياً شجرة الرّاتنج الشّهيرة، التي يقال بأن العذراء المباركة قد ارتاحت في ظلها، عندما كانت تحمل المسيح بين ذراعيها لتقدّمه للرّب في القدس، ثالثاً: دير مخصّص للقديس إلياس، حيث طبعة جسمه، يقوم الكهنة اليونان المقيمون هنا بإظهارها في حجر صلب كان عادة يستخدمه كسرير. ويوجد قرب هذا الدير أيضاً بئر حيث يخبرونك بأن النجم ظهر عنده للسّحرة الشّرقيين وذلك لفرحهم المتناهي. رابعاً: ضريح راحيل Rachel؛ وهذا من المحتمل بأن يكون المكان الحقيقي لدفنها المذكور في سفر التكوين (35: 19) ولكن الضريح التذكاري الحالي لا يمكن أن يكون ذلك الذي أقامه يعقوب Jacob، لأنه يبدو ببساطة بأنه بناء تركي حديث.

* * *

لدى وصولنا إلى بيت لحم قمنا مباشرة بزيارة دائرية لجميع الأماكن المقدّسة العائدة لها، ولنُسمّها وهي: المكان الذي يقال بأن سيدنا المبارك قد ولد فيه؛ المعلف الذي يقال بأنه وضع فيه؛ معبد القديس يوسف St. Joseph والده المفترض؛ مكان البريئين Innocents؛ مواضع القديس إيرونيموس St. Jerome والقديسة بولا Paula وإستوخيوم Eustochium، ومكان يوسيبيوس Eusebius من كريمونا Cremona. وأخيراً مدرسة القديس إيرونيموس Jerome. ويكفي لجميع هذه الأماكن بأن يذكر اسمها.

رأينا من أعلى الكنيسة منظراً واسعاً للريف المجاور، وأكثر الأماكن الجديرة بالملاحظة على مدى النظر كانت تقوَع Tekoah الواقعة على جانب تلة تبعد حوالي تسعة أميال نحو الجنوب، عين جدي Engedi التي تبعد حوالي ثلاثة أميال شرقاً؛ وعلى بعد مسافة بنفس الطّريق توجد تلة عالية منحدرة تسمّى جبل الفرنج Mountain of the Franks لأن مجموعة من الصّليبيين ظلّت تحميه أربعين سنة بعد فقدان القدس.

الخميس 1 أبريل: ذهبنا هذا الصّباح لنرى الأماكن الجديرة بالملاحظة في جوار بيت لحم، وكان المكان الأول الذي توجهنا إليه هو تلك الينابيع والبرك والحدائق

المشـهورة، التي تبعد حوالي سـاعة وربع عن بيت لحم جنوباً، والتي يقال بأنها كانت من ابتداع ومتعة الملك سليمان Solomon، ومن المفروض أن هذا الملك الجليل قد أشار إلى هذه الأعمال وأماكن المتعة (سفر الجامعة، 2: 5، 6) حيث أنه من بين الأمثلة الأخرى لعظمته كان يحصي حدائقه وكرومه وبحراته.

أما بالنسبة للبرك، فعددها ثلاثٌ وهي واقعة على صف واحدة فوق الأخرى؛ وهي مرتبة بشكل بحيث أن مياه العليا تنزل إلى الثّانية ومياه الثّانية تنزل إلى الثّالثة. إن شكل هـذه البـرك مربع الجوانب؛ وعرضها هو نفسـه فـي جميعها يصل إلى حوالي تسـعين خطوة؛ وبالنسـبة لأطوالهـا فيوجد بعض الفرق بينها؛ إذ يبلغ طـول الأولى حوالي مئة وسـتين خطوة، والثّانية مئتين، والثّالثة مئتين وعشرين، وجميعها مبطّنة بجدار ومطيّنة، وتحتوي على عمق كبير من الماء.

وقريبـاً من البرك توجد قلعة أنيقة ذات بنـاء حديث؛ وعلى بعد حوالي مئة وأربعين خطـوة منهـا يوجد النبـع الذي يأخذون منه مياههم بشـكل رئيسـي. هـذا وإن الرّهبان ينبغي أن يكونوا ذلك النبع المختوم الذي تشبهه الزّوجة المقدّسة (سفر نشيد الأنشاد، 4: 12)، وتثبيتـاً لهذه الفكرة يتظاهرون بعُرفٍ بأن الملك سـليمان Solomon قد أغلق هـذه الينابيـع، وختم بابهـا بختمه؛ وذلك بغايـة أن يحافظ على المياه لشـربه بعذوبتها ونقائهـا. وهكـذا لـم يكن مـن الصّعـب تأمينها، فهي ترتفـع تحـت الأرض وليس لها ممرّ إليها سـوى ثقب صغير إلى فم بئر ضيق. وعبر هذا الثّقب فإنك تنزل مباشـرة إلى الأسـفل ولكن ليس بدون بعض الصّعوبة، وذلك حوالي أربعة ياردات؛ ومن ثم تصل إلى غرفة مقبّبة طولها خمس عشـرة خطوة وعرضها ثماني خطوات؛ وتتصل بها غرفة أخرى بنفس النّمط، ولكن نوعاً ما أقل. هاتان الغرفتان كلاهما مغطى بأقواس حجرية أنيقة وقديمة جداً. ربما من عمل سليمان Solomon نفسه.

وإنـك تجد هنا أربعة أماكن التي ينبع منها الماء: ومـن هذه الينابيع المنفصلة ينتقل الماء بواسـطة سـواقٍ صغيرة إلى نوع من حوض، ومن هناك يُنقل بواسـطة ممرّ تحت الأرض إلـى البرك. وفي طريقها قبل أن تصل إلى البرك توجد قناة ذات أنابيب فخّارية

تستلم جزءاً من الجدول وتحمله عبر تعاريج كثيرة حول الجبال إلى القدس.

تحت البرك يمتدّ هنا إلى الأسفل وادٍ صخري ضيق محاط على الجانبين كليهما بجبال عالية، هذا وان الرّهبان ينبغي أن يكونوا الحديقة المغلقة المشار إليها في نفس مكان الأناشيد المذكورة سابقاً: (حديقة مغلقة هي أختي، زوجتي؛ نبع مغلق وعين مختومة). لا يمكنني إطلاقاً أن أقول ما مدى الصّدق الذي يمكن أن يكون في هذا التخمين بالنسبة للبرك فمن المحتمل جداً بأن تكون نفسها برك سليمان Solomon؛ ولم تكن كخزان لماء نبع بغاية الجودة الذي يمكن إيجاده في كل أنحاء فلسطين، ولكن بالنسبة للحدائق فيمكن للمرء أن يؤكد بأمان بأنه إذا كان سليمان Soloman قد صنعها في الأرض الصّخرية التي هي الآن مخصصة لهم، فهو يبيّن قوة وثروة أكبر في إنهاء تصميمه ممّا استعمل الحكمة في انتقاء المكان لها.

ومن هذه الأبنية التذكارية العائدة لسليمان، عدنا لبيت لحم ثانية لكي نزور بعض الأماكن الأقرب للبيت، وكانت الأماكن التي رأيناها: الحقل الذي يقال بأن الرّعيان كانوا فيه يراقبون قطعانهم عندما تلقوا بشرى ولادة المسيح، وغير بعيد عن الحقل وعن القرية التي كانوا يقطنونها وقليلاً إلى اليمين من القرية يوجد دير راهبات قديم وخرب بنته القديسة پولا St. Paula وجُعل تذكارياً أكثر بموتها فيه، جميع هذه الأمكنة هي ضمن حوالي نصف ميل من الدّير شرقاً؛ وبهذه الأماكن أنهينا عملنا لهذا الصّباح.

بعد أن رأينا ما يُزار عادة في جنوب وشرق بيت لحم، خرجنا شرقاً بعد العشاء لنرى ما هو جدير بالملاحظة في ذلك الجانب. وكان أول مكان جرى توجيهنا إليه بئر داوود David، وقد سمي بذلك لأنه يعتقد بأنه هو نفس البئر الذي عطش داوود بشدة بعده (سفر صموئيل الثاني، 23: 15). وهو بئر أو بالأحرى خزان يُزوّد بالماء من المطر فقط دون أية جودة طبيعية في مياهه لتكون مرغوباً بها. ولكن يبدو بأن روح داوود كان لها قصد أبعد.

وحوالي ربع ميل بعد هذا البئر يمكن رؤية بعض بقايا قناة قديمة كانت تنقل المياه قديماً من برك سليمان إلى القدس. ويقال إن هذه هي الأثر الأصلي لسليمان، ويمكن

السّماح لها بأن تكون حقيقية من أن تكون مزعومة. وهي تمتد على طول وجه الأرض، وتتألف من أحجار مثقبة لصناعة القناة. وتدمك هذه الأحجار ببعضها مع عصبة تلف حول الثّقب لمنع التسرّب، وهي مثبتة ببعضها بملاط قوي جداً ولكنها أحياناً تتكسر بالرّغم من نوع الرّخام الخشن الذي يتحمّل التفكك. وكان هذا الخط من الأحجار مغطى لضمانة أكبر بطبقة من الأحجار الأصغر موضوعة فوقه بملاط قوي جداً. ويبدو كامل العمل منفذاً بقوة مطلقة، كم لو أنه صُمّم إلى الأبد، ولكن الأتراك قد أظهروا بهذا المثال بأنه لا شيء مصنوع بهذه الجودة إلا ويمكنهم تحطيمه، لأنه بالنسبة لهذه القناة القوية التي امتدت سابقاً لمساحة خمسة أو ستة فراسخ بكلفة وعمل كبيرين، لا ترى الآن هنا وهناك إلا مجرد قطع باقية.

وبرجوعنا من هذا المكان ذهبنا لنرى أديرة يونانية وأرمنية، وهي مجاورة لتلك التابعة للاتينيين، ولكل منها أبوابها المتعددة التي تنفتح على كنيسة المعلف المقدّس، وكان المكان التالي الذي ذهبنا لرؤيته كهف العذراء المباركة، وهو على بعد ثلاثين أو أربعين ياردا من الدّير، وهو محترم بسبب التقاليد. حيث أن العذراء المباركة اختبأت هنا مع طفلها اللاهوتي من غضب هيرود Herod وذلك لبعض الوقت قبل مغادرتهما إلى مصر.

الجمعة 2 أبريل: وفي الصّباح التالي قدمنا للوالي هدية من أجل مجاملاته لنا، وغادرنا بيت لحم مصمّمين فقط على أن نزور البرّية ودير القديس يوحنا المعمدان St. John Baptist ومن ثم نعود إلى القدس.

من هذه المرحلة اخترقنا أولاً جزءاً من ذلك الوادي الشّهير الذي يقال بأن فيه قام الملاك Angel في إحدى الليالي بعمليات قتل هائلة في جيش سنّحريب Sennacherib. ولدى سفرنا حوالي نصف ساعة وصلنا إلى قرية تدعى بيت جالا Booteshellah تتعلق بما يربطونه بهذه الممتلكات الجديرة بالملاحظة بأنه ما من تركي يستطيع أن يعيش فيها أكثر من سنتين، وبفضل هذا الزّعم سواء كان حقيقياً أم مزيفاً، يحتفظ المسيحيون بهذه القرية لأنفسهم دون تدخل، ولا يريد أي تركي أن

يخاطر بحياته لاختبار مدى صدق ذلك.

وفي حوالي أقل من ساعة وصلنا إلى النبع حيث أخبرونا، بصورة مغلوطة، بأن فيليب Philip عمّد الخصيّ الحبشي Aethiopian. إن الممرّ هنا صخري وغير مستوٍ بحيث أن الحجّاج يجدون مدى صعوبة هذا الطّريق لراكب حصان وحيد. فهم ميّالون لأن يفكروا بأنه من المستحيل لعربة كالعربة التي ركبها الخصيّ (أعمال الرّسل، 8: 28) أنها استطاعت أن تذهب في هذا الطّريق. ولكن ينبغي أن لا نحكم على الحالة التي كان بها الطّريق في الأزمنة القديمة وذلك بما فعله إهمال الأتراك له. لأنني لاحظت مكاناً غير بعيد من النبع حيث جرت إزالة الصّخر بعد قطعه في الزّمن القديم وذلك لفتح طريق جيد. والذي به من الممكن أن نفترض بأن نفس العناية قد جرى استخدامها على طول هذا الممرّ، بالرّغم من أن الزّمن والإهمال الآن قد أزالا ثمرة وعلامات مثل هذا العمل.

وصلنا بعد هذا النبع بقليل إلى ما يدعونها قرية القديس فيليب St. Philip التي صعدنا عندها تلة منحدرة جداً ووصلنا إلى برّية القديس يوحنّا wilderness of St. John وقد سمّيت بالبرّية لأنها صخرية وجبلية جداً، ولكنها مزروعة بشكل جيد وتنتج كثيرا من القمح وأشجار العنب والزّيتون. وبعد سفر ساعة كاملة في هذه البرّية وصلنا إلى الكهف والنبع حيث كما يقولون قام المعمدان Baptist بمعارضاته الشّديدة المنسوبة إليه (إنجيل متى، 3: 4) ولا تزال تنمو بالقرب من هذا الكهف بعض أشجار الخرنوب القديمة؛ والنصب التذكارية لجهل الأزمنة الوسطى. ويؤكد الرّهبان بأن هذه هي نفس التي قدمت قوتاً للمعمدان Baptist وراح الحجّاج البابويّون الذين لا يجرؤون بأن يكونوا أعقل من أدلاء عميان، يجمعون الفاكهة ويحملونها بعيداً بولاء كبير.

لدى انتهائنا من هذا المكان، اتجهنا نحو دير القديس يوحنّا St. John الذي هو على بعد حوالي فرسخ شرقاً. وفي طريقنا مررنا على جانب واحد من وادي ايلاه Elah حيث قتل داوود David ذلك العملاق المزدري لجيش إسرائيل، (سفر صموئيل

الأول، الأصحاح 17) وكانت أيضاً في موقع بصرنا مودون[1] Modon وهي قرية على رأس تلة عالية، وهي مكان دفن أولئك المدافعين الأبطال عن بلدهم المكابيين Maccabees.

ولدى مجيئنا قرب الدّير اقتدنا قليلاً خارج الطّريق لنزور مكاناً يدعونه بيت إليصابات Elizabeth أم المعمدان Baptist وهذا كان في السّابق ديراً أيضاً؛ ولكنه الآن عبارة عن كومة من الأنقاض، وهو المكان الوحيد الجدير بالملاحظة وبقي فيه كهف يقال بأنه كان المكان الذي حيّت فيه العذراء المباركة إليصابات، وتلت ترنيمتها اللاهوتية (إنجيل لوقا، 1: 46).

والدّير الحالي للقديس يوحنّا St. John الذي هو مسكون الآن، يقع على بعد ثلاثة أثمان الميل من بيت إليصابات، ومن المعتقد بأنه بني في المكان الذي ولد فيه القديس يوحنّا.

إن دير القديس يوحنّا قد أعيد بناؤه من الأرض خلال هذه السّنين الأربع، وهو الآن بناء مربع كبير متساوٍ ومتقن في جميع أنحائه، ولكن الشّيء الجميل بوضوح للغاية فيه هو كنيسته. وهي تتألف من ثلاثة ممرّات ولها في الوسط قبّة أنيقة يوجد تحتها رصيف من الموزاييك يساوي أو يفوق أرقى أعمال القدامى بالنسبة لهذا النوع. وفي النهاية العليا للممرّ الشّمالي تنزل سبع درجات رخامية إلى مذبح رائع مبني فوق نفس المكان حيث يقولون بأن المعمدان Baptist قد ولد. ولا يزال هنا صُنّاع مستخدمون لإضافة جمال وتزيين أكثر لهذا الدّير، ومع ذلك لا يزال عملاً مكلفاً يتكفّل به الرّهبان أنفسهم، وما من حجر جرى تركيبه فيه إلا وكلّفهم دولاراً. وينبغي الأخذ بعين الاعتبار المبالغ الكبيرة المفروضة من قبل الأتراك من أجل الرّخصة للبدء ببناء من هذه الطّبيعة، وأيضاً ابتزازهم المستمرّ وطلباتهم الشّهوانية فيما بعد، بالإضافة إلى الرّسم الضروري للبناء، يمكن السّماح لها بتجاوز الإغراق الباهظ.

---

(1) لعله يعني هيروديون Herodium التي تعرف بالعربيّة بتل الفريديس.

وبعودتنا من دير القديس يوحنّا نحو القدس وصلنا خلال ثلاثة أرباع السّاعة إلى دير لليونان يكتسب اسمه من الصّليب المقدّس. إن هذا الدّير مرتب جداً ببنائه وبوضعه البهيج، ولكن الذي يستحق الملاحظة فيه هو السّبب بتسميته وتأسيسه لأن التربة هنا هي التي غذّت الجذر الذي حمل الشّجرة التي قدّمت الخشب الذي صُنع منه الصّليب، ونرى تحت المذبح العالي حفرة في الأرض حيث كانت تنتصب أرومة الشّجرة التي تستقبل كثيراً من الزّوار، وكان يوجد أرومات أكثر بكثير منها نفسها بحيث تنحني لها. إن هذا الدّير لا يبعد أكثر من نصف ساعة من القدس وقد رجعنا إليه هذا المساء، وكان اليوم الخامس منذ مغادرتنا هناك.

ودُعينا إلى الدّير بعد عودتنا ليُصار إلى غسل أقدامنا، وذلك طقس من الطّقوس التي يقوم بها الأب الحارس نفسه لكل حاج. وتتحلق حوله كل الجماعة يغنّون بعض الترنيمات اللاتينية طوال الوقت الذي يقوم فيه الأب الحارس بأداء مهمّته. وعندما يكون قد انتهى من ذلك يدخل كل راهب بانتظام ويقبّل قدمي الحاج، وكانوا يقومون بذلك كله بانتظام ووقار كبيرين، وكان ذلك إما ليشهد خشوعاً مخلصاً ومبرّة فيهم، أو ليثبت تلك النعم في الآخرين، ويمكن أن يجري من أجل احتفاء مفيد.

السبت 3 أبريل: ذهبنا حوالي منتصف النهار لنرى احتفال «النار المقدّسة»، وهذا عبارة عن احتفال يقيمه اليونان والأرمن بالقناعة بأنه في كل ليلة عيد فصح توجد شعلة معجزة تهبط من السّماء إلى الضريح المقدّس وتشعل كل المصابيح والشّموع هناك، كما أحرقت الضحية في صلوات إيليا Elijah (سفر الملوك الأول، الأصحاح 18).

وبمجيئنا إلى كنيسة الضريح المقدّس وجدناها مكتظة بجمهور متعدّد ومضطرب، يقوم بصخب قبيح غير مناسب أبداً لذلك المكان المقدّس، ومن الأجدر أن يكونوا (سكّيرين) لا مسيحيين. وبشيء من المقاومة استطعنا المرور خلال هذا الحشد والصّعود إلى الرّواق على ذلك الجانب من الكنيسة المتاخم للدير اللاتيني، حيث استطعنا رؤية جميع ما حدث في هذا الهيجان الدّيني.

بدؤوا تشويشهم بالرّكض حول الضريح المقدّس بكل قوتهم وسرعتهم يصيحون

أثنـاء ذهابهـم: «هويا!» *Huia* التـي تعني «هذا هو» أو «هذه هـي»؛ وهو تعبير يؤكدون به صحة الدّيانة المسـيحية. وبعد أن أداروا رؤوسـهم وأشـعلوا جنونهم بهذا الدّوران المدوّخ والزّعيق، بدؤوا القيام بحيل وأوضاع مضحكة جداً بألف شكل من التشويش. وأحياناً سـحب بعضهم البعض الآخر علـى طول الأرض، وفي جميع أنحاء الضريح؛ وأحيانـاً وضعـوا رجلاً قائماً علـى أكتاف رجل آخـر، وبهذا الوضع جعلـوا يدورون؛ وأحيانـاً أمسـكوا برجـال وأكعابهم إلـى الأعلى وداروا بهم بسـرعة على هـذا الوضع بطريقـة عديمة الحشـمة إطلاقاً؛ وأحيانـاً تدحرجوا حول الضريح علـى نفس الطّريقة التـي يقوم بها المتدحرجون على المسـرح. وبالاختصار لا شـيء يمكـن تصوّره أكثر وقاحة ومجوناً ممّا جرى القيام به في هذه المناسبة.

وتابعـوا بهـذا الهـزل الصّاخـب والمجنون من السّـاعة الثّانية عشـرة حتى السّـاعة الرّابعـة؛ وكان السّـبب لهـذا التأخيـر قضية كانت عندئـذ موضوع نقاش أمـام القاضي بيـن اليونـان والأرمن؛ بحيث أن المذكورين أولاً يسـعون لحرمـان المذكورين لاحقاً مـن أية حصة في هـذه الأعجوبة. كلا الفريقين قد صرفوا، كما جرى إعلامي، خمسـة آلاف دولاراً فيمـا بينهـم، فـي هذه المجادلة السّـخيفة؛ وأخيراً أعطـى القاضي حكمه بأنهـم يجـب أن يدخلوا الضريح المقدّس سـويةً «كما كان عادةً» في الأزمنة السّـابقة. وقـد أعطى الحكم في السّـاعة الرّابعة، وتابعـت الأمتان كلتاهمـا باحتفالهما. فانطلق اليونانيون أولاً بموكـب حول الضريح المقدّس ومباشرة خلفهم لحقهم الأرمن. وبهذا الترتيب أحاطوا بالضريح المقدّس ثلاث مرات، مظهرين كل تأنقهم للأعلام والرّايات و الصّلبان، وعادات التطريز في هذه المناسبة.

ونحـو نهاية هذا الاحتفال أتت حمامة ترفرف فـي القبة فوق الضريح؛ ولدى النظر إليها كانت صرخة وصياح أكبر من ذي قبل. وأخبرنا اللاتين بأن هذا الطّير تركه اليونان يطير عمداً ليخدعوا الناس بفكرة أنه كان هبوطاً مرئياً للرّوح القُدُس.

وبانتهاء الموكـب كان معاون البطريرك اليوناني في القسـطنطينية، فاقترب المطران الأرمني إلى باب الضريح، وبعد قطع الخيط الذي كان مثبتاً الباب وخاتمه دخل غالقاً

البـاب بعدهم؛ وكانت كل الشّـموع والمصابيح في الدّاخل قد أطفئت سـابقاً بحضور الأتراك وشـاهدين آخرين. وتضاعفت الهتافات عندمـا اقتربت المعجزة من الإنجاز. وضغـط النـاس بشـدة نحو باب الضريـح بحيث لم يكن بوسـع الأتـراك الموضوعين لحراسـته إبعادهم بأشـدّ الضربات. وسـبب ضغطهم بهذه الكيفية هي رغبتهم الكبيرة لإشـعال شموعهم بالشعلة المقدّسـة حال إخراجها أولاً من الضريح؛ حيث أنها تعتبر الأكثر قداسة ونقاوة بما أنها آتية مباشرة من السّماء.

لم يمكث بائعو المعجزات في الضريح المقدّس بأكثر من دقيقة عندما جرت رؤية لمعان النار المقدّسة، أو جرى التخيل بظهورها عبر بعض شقوق الباب؛ وبالتأكيد فإن مستشفى المجانين نفسه لم ير أبداً تولّهاً كالذي جرى سريانه لدى عامة الناس عند هذا المنظر.

وبعد ذلك مباشـرة خرج الكاهنان وبأيديهما شـعلتان ملتهبتـان حيث رفعاهما عند باب الضريح، فتزاحم الناس بشوق لا يمكن التعبير عنه؛ كل فرد يجاهد للحصول على جـزءٍ من الشـعلة الأولى والأنقى. وفي هـذه الثّناء راح الأتـراك يضربونهم بالهراوات الضخمـة دون رحمـة؛ ولكـن كل هذا لم يسـتطع أن يردّهم، وجعلتهم كثـرة تحرّكهم لا يشـعرون بالألم. وأولئك الذين حصلوا على النار اسـتعملوها مباشـرة على لحاهم ووجوههـم وصدورهـم متظاهريـن بأنها سـوف لا تحرقهـم كلهيب أرضـي؛ ولكنني رأيت ببسـاطة أن ما من واحد منهم اسـتطاع أن يتحمّل هـذه التجربة لمدة كافية ليثبت ذلك التظاهر.

لقـد جرى اسـتخدام أيدٍ كثيرة، ويمكنـك أن تتأكد بأن لن يمـض وقت طويل حتى تُشـعل شـموع لا يمكن عدّها. كل الكنيسـة والممرّات وكل مكان بدا حالاً مشـتعلاً، وبهذه الإضاءة انتهى الاحتفال.

ينبغـي الاعتـراف بـأن هذين الاثنيـن داخل الضريح قامـا بدورهما بسـرعة ومهارة كبيرتيـن؛ ولكن سـلوك الأوباش فـي الخارج كـذّب الأعجوبة كثيراً جـداً. إن اللاتين يتلقّـون مقـداراً كبيراً من الآلام ليعرضوا هـذا الاحتفال، حيث أنـه تدجيلٌ معيب جداً

وفضيحة للديانة المسيحية؛ وربما بسبب الحسد فإن الآخرين ينبغي أن يكونوا أسياداً لعمل مربح كهذا، ولكن اليونان والأرمن يثبتون اعتقادهم بذلك، ويقومون بحجّهم بصورة رئيسية بناء على هذا الدّافع؛ ولمّا كانت تعاسة كهنتهم المؤسفة قد سبق وقامت بهذه الخدعة لمدة طويلة جداً، فإنهم مجبرون الآن للتمسك بها خوفاً من مخاطرة جحود جماعتهم.

لدى الخروج من الكنيسة وبعد انتهاء التجمهر وإقلاق الرّاحة، رأينا عدداً من الناس قد تجمعوا حول حجر المسحة المقدّسة وكان معهم مخزون جيد من الشّموع التي جرى إشعالها بالنار المقدّسة، وكانوا مشغولين بدهن قطع من الكتان بفتائلها والشّمع الذائب؛ حيث صُمّمت هذه القطع من الكتان للفّ الشّراشف؛ وفكرة هؤلاء الناس الفقراء بأنهم يستطيعون الحصول على السّعادة بأن يُدفنوا بكفن مسفوع بهذه النار الإلهية، فإنه بالتأكيد سيحميهم من نيران جهنم.

الأحد 4 أبريل: كان هذا اليوم عيد فصحنا، فلم نخرج لزيارة أية أمكنة، وكان الوقت يتطلب استخدامه بطبيعة أخرى.

الاثنين، 5 أبريل: ذهبنا في هذا الصّباح لنرى أكثر من الغرائب التي لم نقم بزيارتها بعد. وكان المكان الأول الذي وصلنا إليه ما يسمّونه بسجن القديس بطرس St. Peter الذي كان خلاصه منه من قبل الملاك Angel (أعمال الرّسل، الأصحاح 12). وهذا السّجن قريب من كنيسة الضريح المقدّس، ولا يزال يخدم لاستعماله البدائي. وبعد حوالي ثمن ميل من هناك وصلنا إلى كنيسة قديمة يُعتقد بأنها قامت ببنائها هيلينا Helena في المكان الذي كان يقع فيه بيت زبدي Zebedee. وهذا بأيدي اليونانيين الذي يقولون بأن زبدي كان صياد سمك وكان معتاداً بجلب السّمك من يافا Joppa إلى هنا، ويبيعه في هذا المكان حيث كما يقولون تقع قديماً البوّابة الحديدية التي فتحت لبطرس Peter من تلقاء نفسها. وعلى بعد عدة خطوات تقع الكنيسة الصّغيرة المبنية فوق بيت مرقص Mark الذي وجّه إليه الحواري Apostle اتجاهه بعد خلاصه الأعجوبي من السّجن. إن السّريان الذين يملكون هذا المكان بحمايتهم يتظاهرون بأن

يبينـوا لك نفس النافذة التي نظـرت من خلالها رودا[1] Rhoda بينما قرع الباب بطرس Peter. ويظهرون لك في الكنيسة نسخة مخطوطة سريانية من العهد الجديد في طلحية ورق، وبدا بأن عمرها ثمانمئة واثنان وخمسـون سـنة، وجرن العماد الحجري الصغير الذي استعمله الحواريون أنفسهم بالتعميد.

وعلـى بعـد حوالي مئة وخمسـين خطـوة في نفـس الطّريق يوجد ما يسـمونه ببيت القديس توما St. Thomas الذي جرى تحويله سـابقاً إلى كنيسـة ولكنه الآن مسـجد. وبعد خطوات ليست بالكثيرة يوجد شارع آخر يخترق الشّارع السّابق ويؤدي بك على الجانـب الأيمن إلـى المكان حيث يقال بأن سـيدنا ظهر بعد قيامـه للمريمات الثّلاث (إنجيـل متـى، 28: 9). ويخبـرك الرّهبـان بأنهن ثـلاث مريمات، بالرّغـم من أن ذلك مـكان القديـس متّى St. Matthew فـإن الرّقم المذكور اثنتان فقـط. ويؤدّي بك نفس الشّارع على الجانب الأيسر إلى الدّير الأرمني. وللأرمن هنا مساحة كبيرة جداً وسارّة مـن الأرض، ويحتـلّ ديرهم وحديقتهم كامل ذلك القسـم من جبـل صهيون Mount Sion الـذي هـو ضمن جدران المدينة. إذ كنيسـتهم مبنية فوق المـكان حيث يقولون، بأن القديس يعقوب أخا يوحنّا قد أُعدم (أعمال الرّسل، 12: 2).

وفي دير صغير على الجانب الشّـمالي من الكنيسـة يظهر نفس المكان الذي ضُرب فيـه عنقـه. ويوجد في هذه الكنيسـة مذبحـان ببهاء غير عـادي مزخرفـان بتيجان غنية وقلانسٍ مطرّزة وصلبان فضية وذهبية وتيجان وكؤوس وأوانٍ كنائسـية أخرى لا تُعدّ. ويوجـد فـي منتصف الكنيسـة منبر مصنـوع من درقات السّـلاحف والصّـدف مع قبة جميلـة فوقه من نفـس الصّناعة. ودرقات السّـلاحف و الصّدف متداخلـة بصورة فذّة ومنزّلة بعضها ببعض بحيث أن قيمة الشّغل تفوق المواد. وبما يشبه القلالي المواجهة لهـذه الكنيسـة، توجد على أحد جوانـب المذبح ثلاثة أحجار كبيرة خشـنة تعتبر ثمينة جداً؛ حيث أنّ واحداً منها كان الحجر الذي ألقى عليه موسى اللوحين عندما كسرهما غاضباً لدى عبادة بني إسرائيل للأوثان. وقد جُلب الحجران الآخران، واحد منهما من

---

(1) رودا الجارية في بيت مريم أم يوحنّا الملقب مرقس، انظر: أعمال الرّسل، 12: 13.

مكان عمادة سيدنا، والآخر من تجلّي المسيح.

وبمغادرة هذا الدّير وبعد مسافة قليلة وصلنا إلى كنيسة صغيرة أخرى كانت أيضاً في أيدي الأرمن. ومن المفروض بأن هذه قد أُسّست في المكان الذي كان يقع فيه بيت حنّان Annas. ويظهر ضمن الكنيسة وغير بعيد عن الباب ثقب في الجدار يدلّ على المكان حيث بادر أحد موظفي الكاهن الأكبر إلى لطم مخلّصنا المبارك (إنجيل يوحنّا، 18: 22). إنه الموظف الذي بيده غير التقية قد كال تلك اللطمة، والكهنة ينبغي أن يكونوا نفس مالكوس Malchus الذي شفا سيدنا أذنه. ويوجد في السّاحة قبل هذا الدّير شجرة زيتون قيل عنها بأن المسيح قد رُبط إليها بالسلاسل لفترة من الوقت بأمر من حنّان Annas ليضمنه من الهرب.

وجرى توجيهنا من بيت حنّان خارج بوّابة صهيون Sion التي تجاور ما يسمّونه بيت قيافا Caiaphas. حيث يوجد دير صغير آخر يخصّ الأرمن أيضاً. ويقولون لنا بأن هنا تحت المذبح يوجد نفس ذلك الحجر الذي وُضع لإغلاق باب ضريح مخلّصنا (إنجيل متى، 27: 60). ولقد حُفظ لوقت طويل في كنيسة الضريح، ولكن الأرمن منذ سنوات ليست بالكثيرة سرقوه من هنا بحيلةٍ وحوّلوه إلى هذا المكان. وطول الحجر يبلغ ياردين وربع وارتفاعه يارد واحد وعرضه نفس ارتفاعه. وهو مطلي في جميع أنحائه ما عدا خمسة أو ستة مواضع صغيرة حيث تُركت عارية لتلقي القبلات المباشرة وصلوات الحجّاج. وهنا يرى الزّوار أيضاً زنزانة صغيرة يقال بأنها كانت سجن سيدنا، حتى الصّباح عندما جرى حمله من هناك إلى أمام بيلاطس Pilate؛ وأيضاً المكان حيث تمّ إنذار بطرس Peter بأنه سيُنكر سيّده.

وأبعد قليلاً خارج البوّابة تقع كنيسة العلّيّة Coenaculum التي يقال بأن المسيح تناول عشاءه الأخير فيها. إنها الآن مسجد ولا يمكن للمسيحيين رؤيتها. ويوجد قريب منها بئر يقال بأنه يحدّد المكان الذي تفرّق الحواريون فيه بعضهم عن بعض ليذهب كل رجل إلى وجهته المختلفة، وقريب من البئر توجد أنقاض بيت من المعتقد أن العذراء المباركة قد لفظت فيه أنفاسها الأخيرة. وبالذهاب شرقاً والنزول قليلاً على

التلـة أرونا المكان الذي أوقف فيه يهـوديٌّ جثة العذراء المباركة عندما كانت محمولة إلى قبرها، بسـبب الافتـراض غير التقي بأن تلك اليد التي أمسـكت بالنعش قد ذوت. وبالنزول كثيراً في وسط التلة أرونا الكهف الذي فيه قد بكى القديس بطرس St. Peter بمرارة بسبب تقلبه نحو سيده.

لـم نمدّد دورتنا هذه المرة بشكل أبعد، ولكننا دخلنا المدينة ثانية لدى بوّابة صهيون Sion وحالمـا دخلنا اسـتدرنا نحو اليميـن، وبالذهاب حوالي ربع ميل قريباً من سـور المدينة توجهنا نحو حديقة تقع في أسـفل جبل موريا‌ه Mount Moriah على الجانب الجنوبـي. وهنـا أرونـا عدّة سـراديب كبيـرة ملاصقة للجبـل من هذا الجانـب؛ وتمتد خمسـين يـارداً علـى الأقل تحـت الأرض. وقـد بُنيت في ممرّيـن مقبّبين فـي الأعلى بحجر صلب هائل، وحُملت بأعمدة طويلة يتألف كل منها من حجر فردي واحد قطره يـاردان. ومـن الممكن أن هذا بعض أعمال تحت الأرض التي صُنعت لتكبير مسـاحة المعبد. (Ant. Jud. Lib. xv. cap. ult.)

وعدنا من هذه السّراديب نحو الدّير. وفي طريقنا مررنا عبر الأسواق التركية وأخذنا نظرة للبوّابة الجميلة للمعبد. ولكننا اسـتطعنا أن نراها أثناء مرورنا فقط، حيث لم يكن من المأمون أن نبقى طويلاً هنا، بسبب تشاؤم الأتراك.

الثلاثـاء 6 أبريـل: وفي الصّباح التالـي قمنا بتقدّم آخر حـول المدينة. فخرجنا لدى بوّابة بيت لحم. وبالتفافنا على اليسار تحت حصن البيزيين Pisans وصلنا بعد حوالي ربع ميل إلى ما يسمونه بركة بتشبع Bathsheba. وهي في أسفل جبل صهيون Mount Sion، ومن المفروض أن تكون نفس البركة التي اغتسـلت فيها بتشـبع عندما تلصّص عليها داوود من سـطح قصره. ولكن آخرين يشـيرون إلى هذا الحادث ببركة أصغر في حديقة، وذلك ضمن بوّابة بيت لحم؛ وربما كان كل من الرّأيين على صواب بالتساوي.

وقليـلاً تحت هذه البركة يبدأ وادي هنّوم Hinom؛ وعلى جانبه الغربي يقع المكان المسـمّى قديماً حقل الخزّاف، وبعد ذلك حقل الدّم وسـمّي بذلك لأنه اشـتُري بقطع الفضة التي كانت ثمن دم المسـيح؛ ولكن حالياً أخذ الاسـم من ذلك الوقار الذي ناله

المسيحيون، فدعي بالحقل المقدّس «كامپو سانكتو» Campo Sancto. وهو عبارة عن بقعة أرض صغيرة طولها لا يزيد عن ثلاثين يارداً وعرضها حوالي نصف طولها. ونصفها يشغله بناء مربع ارتفاعه اثنا عشر ياردا بُني من أجل حجرة للموتى. ويجري تنزيل الجثث إليها من الأعلى، حيث توجد خمس فتحات تُركت مفتوحة لذلك الغرض. وبالنظر إلى الأسفل عبر هذه الفتحات استطعنا رؤية جثث كثيرة وصلت إلى درجات متعددة من التآكل؛ ويمكن أن يُخمّن من ذلك بأن هذا القبر لا يقوم بذلك التحلّل السّريع للجثث العائدة له. إن الأرمن يسيطرون على مكان الدّفن هذا، حيث يدفعون من أجله إيجاراً للأتراك قدره سيكويناً Sequin واحداً يومياً[1]. والتراب في الجوار ذو مادة حوارية.

وقليلاً تحت الحقل المقدّس «كامپو سانكتو» Campo Sancto يوجد كهف متداخل أو ضريح يتألف من عدة غرف واحدة ضمن الأخرى. حيث يقال بأن الحواريين خبؤوا أنفسهم فيه عندما هجروا سيدهم وهربوا. ويدلّ مدخل الكهف على إشارات بأنه كان مزُيّناً بلوحة زيتية في الأزمنة القديمة.

وأبعد بقليل ينتهي وادي هنّوم Hinnom، حيث يمتدّ وادي يهوشافاط Jehosihaphat عبر بدايته. وعلى طول أسفل هذا الوادي الصّغير يجري جدول أو نُهير قدرون Cedron؛ وهو يكون نُهيراً في وقت الشّتاء، ولكن دون أيّة قطرة من الماء فيه كل الوقت عندما كنا في القدس.

وفي وادي يهوشافاط أول ما يسترعيك فيه هو بئر نحمياه Nehimiah؛ ويسمّى هكذا لأنه متعارف على كونه نفس المكان الذي استعاد منه مصلح بني إسرائيل نار المذبح وذلك بعد الأسر البابلي Babylonish (سفر المكابيين الثاني، 1: 19). وقليلاً أعلى في الوادي وعلى الجانب الأيسر تصل إلى شجرة من المعتقد أنها تحدّد المكان حيث كان إشعيا Isaiah النبي التّوراتي قد نُشر مشطوراً. وفوق حوالي مئة خطوة على الجانب نفسه تقع بركة سلوان Siloam. وكانت قديماً قد كُرّمت بكنيسة فوقها؛ ولكن

(1) السّيكوين عملة ذهبيّة استعملت سابقاً في تركية وإيطاليا.

عندما كنا هناك لم يتردّد دباغ في دبغ جلوده فيها. وبالذهاب حوالي ثمن ميل أبعد على نفس الجانب تصل إلى نبع العذراء المقدّسة، وسمّي هكذا لأنها كانت معتادة، كما يقال، أن تتردّد إلى هنا لتسحب الماء؛ ولكن ليس من المتفق عليه بعد متى كان ذلك وفي أيّة مناسبات.

فوق ومقابل هذا النبع وعلى الجانب الآخر من الوادي توجد قرية تدعى شيلوَح Siloe. يقال بأن سليمان Solomon أسكن فيها زوجاته الغريبات؛ ويوجد فوق القرية تلة تسمّى جبل الإساءة *Mountain of Offence* لأنه بنى سليمان هناك الأماكن العالية المذكورة (سفر الملوك، 11: 7)، وضلّلت زوجاته قلبه الحكيم ليتابعن ضلالهن الوثني في أواخر حياته. وعلى نفس الجانب وغير بعيد عن شيلوَح Siloe أرونا «آكِلداما» Aceldama أي حقل الدّم؛ وقد سمي هكذا لأن يهوذا Judas هناك بالقضاء العادل للإله لقي موته المقدّر، (أعمال الرّسل، 18: 19؛ إنجيل متى، 27: 5). وأبعد قليلاً على نفس الجانب من الوادي أرونا عدة نصب تذكارية يهودية. وبين الباقي يوجد قطعتان أثريتان جليلتان يدعونهما: ضريح زكريا Zachary وعمود أبشالوم Abssalom. وقريباً من الأخير يوجد ضريح يهوشافاط Jehoshaphat الذي نسبة إليه أخذ الوادي بأسره اسمه.

وعلى طرف التل على الجانب المقابل للوادي يمتدّ سور المدينة بخط مباشر. ويوجد قرب زاويته نهاية قصيرة لعمود تبرز من الجدار. ولدى الأتراك تقليد بأنّ على هذا العمود سيجلس محمّد[1] للحكم يوم الحشر؛ وسيجتمع سوية جميع العالم في أسفل الوادي ليسمعوا حكمهم من فمه. وأبعد قليلاً نحو الشّمال تقع بوّابة المسجد وهي في الوقت الحاضر محاطة بجدار، لأن لدى الأتراك هنا تنبؤاً بأن خرابهم سيدخل عبر تلك البوّابة، ويحاولون لإتمام هذا الإثبات منعه بهذه الوسيلة. ويوجد تحت هذه البوّابة في أسفل الوادي حجر عريض وقاسٍ، تظهر عليه عدة طبعات يخيّل لك أنها آثار أقدام. ويخبرك الكهنة بأن هذه الطّبعات صنعتها أقدام مخلّصنا المبارك، وذلك

(1) رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بعد القبض عليه أُرسل بعنف إلى محكمة معذّبيه العطاش للدم.

ومن هنا بعد السّكون في أسفل الوادي تصل في بضعة خطوات إلى مكان يدعونه ضريح العذراء المباركة، وثمّة نزول كبير إليه وهو سبع وأربعون درجة؛ وعندما تنزل وعلى الجهة اليمنى ضريح القديسة حنّة St. Anna الأم، وعلى اليسار ضريح القديس يوسف St. Joseph زوج العذراء المباركة.

وبعد انتهاء زيارتنا لهذا المكان صعدنا التلة نحو المدينة. وأرونا على جانب هذا الصّعود حجراً عريضاً لقي عليه، كما يقولون، القديس اسطفانوس St. Stephen الشّهادة؛ وغير بعيد منه يوجد كهف يخبرونك عنه بأن المتعصبين اليهود الفجرة ألقوا بجسمه فيه بعد أن أشبعوا غضبهم منه. وذهبنا مباشرة من هنا إلى بوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen حيث سمّيت بذلك لقربها من مكان معاناة اسطفانوس أول الشّهداء. وهكذا عدنا إلى مكان إقامتنا.

الأربعاء 7 أبريل: وفي الصّباح التالي انطلقنا ثانيةً لكي نرى المعابد والأماكن الأخرى المرئية على جبل الزّيتون Mount Olivet. وخرجنا عند بوّابة القديس اسطفانوس، ولدى اختراقنا وادي يهوشافاط Jehoshaphat بدأنا مباشرة بصعود الجبال. وعندما صعدنا إلى حوالي ثلثي الطّريق وصلنا إلى كهوف معيّنة منحوتة بتعريجات متداخلة ومغاور تحت الأرض، وهذه تدعى قبور الأنبياء. وأعلى بقليل يوجد اثنا عشر سرداباً تحت الأرض مغطاة بأقواس وتقع جنباً إلى جنب. وقد جرى بناؤها في ذكرى الحواريين الاثني عشر الذين يقال إنهم تلقّوا إيمانهم في هذا المكان. وبارتفاع ستين خطوة تصل إلى المكان الذي يقال بأن المسيح تلفّظ عنده بنبوّته فيما يتعلق بالخراب الأخير للقدس (إنجيل متى، 2: 4). وقليلاً إلى اليمين يقع المكان حيث يقال بأنه فرض للمرة الثّانية على حوارييه الصّلاة الرّبّانيّة (إنجيل لوقا، 11: 1، 2).

ويوجد أعلى قليلاً كهف القديسة بيلاجيا St. Pelagia؛ وبنفس المسافة أعلى من ذلك يوجد عمود يعرّف المكان حيث أعطى ملاكٌ العذراء المباركة تحذيراً بموتها

بعد ثلاثة أيام. وفي أعلى التلة تصل إلى مكان صعود سيدنا المبارك. وكانت هنا قديماً كنيسة كبيرة بنيت على شرف ذلك النصر المجيد؛ ولكن كل الذي بقي الآن منها قبّة مثمنة الجوانب قطرها حوالي ثمانية ياردات تقع كما يقال، فوق نفس المكان الذي كانت فيه آثار الأقدام الأخيرة له هنا في الأرض. وداخل القبّة يرى كما يقال؛ طبعة إحدى قدميه على حجر قاسٍ. وهنا كانت أيضاً طبعة قدمه الأخرى منذ بعض الوقت؛ ولكن جرت إزالتها من هنا من قبل الأتراك إلى داخل المسجد الكبير على جبل مورياه Moriah. ودير الصّعود هذا يقوم الأتراك بحفظه ويستعملونه كمسجد. وتوجد أماكن مقدّسة أخرى عديدة حول القدس، يتظاهر الأتراك بأنهم يعيرونها الاحترام بالتساوي مع المسيحيين. وبموجب هذا التظاهر يأخذونها بين أيديهم. ولكن فيما إذا كانوا يفعلون هذا بتُقى حقيقي أو من أجل الكسب، بغرض أنه يمكنهم فرض أموال على المسيحيين للدخول إليها، فإنني لا أستطيع تحديد ذلك.

حوالي ثُمني ميل من هذا المكان شمالاً يقع أعلى قسم من جبل الزّيتون Mount Olivet؛ وفوق ذلك جرى قديماً بناء برج عالٍ في ذكرى ظهور الملكين على الحواريين وذلك بعد صعود سيدنا المبارك. (أعمال الرّسل، 1: 10، 11) ومنه أعطى البرج نفسه اسمه وهو *Viri Galilaei*. وبقي هذا الصّرح التذكاري القديم حتى سنتين عندما هدمه تركي كان قد اشترى الحقل الذي كان فيه البرج؛ ولكن مع ذلك لا يزال لك من الارتفاع الطّبيعي للمكان منظر كبير للقدس والرّيف المجاور وللبحر الميت، إلخ...

ونزلنا الجبل من هذا المكان ثانية عبر طريق آخر. وفي حوالي نصف الطّريق نزولاً يُظهرون لك المكان الذي رأى منه المسيح المدينة وبكى عليها (إنجيل لوقا، 19: 41).

وأخفض بحوالي عشرين يارداً يُظهرون لك جَثْسِمَني Gethsemane وهي قطعة أرض منبسطة ليست أكثر من سبعة وخمسين يارداً مربعاً، وتقع بين أسفل جبل الزّيتون وجدول قِدرون Cedron . وهي مزروعة بشكل جيد بأشجار الزّيتون القديمة جداً بحيث أنها من المعتقد قد وُجدت هنا في زمن مخلّصنا المبارك. وبسبب هذا الاعتقاد

فـإن الزّيتـون وبذر الزّيتـون والزّيت المنتج أصبح سـلعة ممتازة في إسـبانيا. ولكن لا يمكـن لهذه الأشـجار بأن تكون قديمة لدرجة ما يزعمـون وذلك واضح من ما يصرح به يوسـيفوس Josephus (Lib. 7. Bell. Jud. Cap. 15,)، وفي أماكن أخرى، أي أن تيطوس Titus في حصاره للقدس قطع جميع الأشـجار ضمن حوالي ثلاثة عشـر ميلاً من القدس؛ وأجبر الجنود بأن يجلبوا الخشـب من هذه المسـافة لعمل أكوامهم عندما هاجموا المعبد.

وفي الزّاوية العليا من الحديقة توجد حافة منبسـطة وعارية من الصّخر، يشـيع بأنها المـكان الذي نام فيـه الحواريون بطـرس Peter ويعقوب James ويوحنـا John أثناء احتضار سيدنا. ويوجد بعد عدة خطوات من هنا كهف يقال بأنه المكان الذي تلقّى فيه المسيح ذلك الجزء المرير من عذابه.

وحوالي ثماني خطوات من المكان حيث نام الحواريون، توجد قطعة أرض صغيرة طولهـا اثنا عشـر يـارداً وعرضها يارد واحد، مـن المعتقد بأن تكون نفـس الممرّ الذي صعد فيه الخائن يهوذا Judas إلى المسـيح قائلاً: السّـلام عليك يا سـيّد، وقبّله. وهذا الممـرّ الضيـق مفصـول بجدار عن وسـط الحديقـة كأرض ملعونة؛ وهـو عمل جدير بالملاحظة وقد قام به الأتراك بالإضافة للمسـيحيين الذين يُبغضون نفس الأرض التي جرت بها هذه الخيانة المشهورة.

ومـن هنا اخترقنا جـدول قدرون، قريبـاً من الضريح المشـهور للعـذراء المباركة. ولدى دخولنا بوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen عدنا ثانية إلى الدّير.

الخميـس 8 أبريل: ذهبنا لرؤية قصر بيلاطـس[1] Pilate، أعني المكان حيث يوجد الآن بيْـت تركـي عـادي فيـه غرفته. إنه غيـر بعيد مـن بوّابـة القديس اسـطفانوس St. Stephen ويجاور المعبد في الجانب الشّـمالي. ومن سـطح هذا البيت ترى جيداً كل المـكان حيـث يقع المعبد، وهو حقـاً المنظر الوحيد الجيد الذي يُسـمح لك منه؛ لأنه

---

(1) بيلاطس هو الحاكم الرّوماني لمقاطعة اليهوديّة الذي سمح لليهود بصلب عيسى عليه السّلام.

لا يمكنـك الذهـاب داخل حدوده دون أن تخسـر حياتك، أو وهو الأسـوأ، أن تخسـر دينـك. ولـم يكن ممكناً في جميع أنحـاء العالم أن تجد مكاناً أنسـب من هذه المنطقة لبناء مجيد. إنه يقع في أعلى جبل موريا ه Moriah مقابل جبل الزّيتون Olivet، ووادي يهوشـافاط Jehoshaphat يقع بين الجبلين. وحسـبما اسـتطعت أن أحسـب بالمشـي حولـه مـن الخـارج، وجدته خمسـمئة وسـبعين خطوة مـن خطواتي طـولاً، وثلاثمئة وسبعين خطوة عرضاً؛ ويمكن للمرء أن يرى حتى الآن علامات العمل الكبير الذي تمّ لقطع الصّخر القاسـي وإزالته، ولتسـوية منطقة واسعة كهذه على جبل صلد جداً. وفي وسـط المنطقة يقع حالياً مسـجد ذو شـكل مثمن حيث كان يقع قديماً قدس الأقداس Sanctum Sanctorum. إنه ليس بارزاً بالنسبة لكبره ولا لبنائه؛ ولكن ما يجعله شكلاً جليلاً جداً هي المزيّة الوحيدة لموقعه.

فـي هـذا البيـت المزعوم لبيلاطـس Pilate نرى الغرفـة التي جرى الاسـتهزاء فيها بالمسـيح مـن قبل ضباط الملكية واللكم من قبل الجنـود، وبالخروج من البيت يوجد نزول حيث كانت قديماً الدّرجات المقدّسة Scala Sancta. وعلى الجانب الآخر من الشّـارع (الذي كان قديماً جزءاً من القصر أيضاً) توجد الغرفة التي يقال بأنه جرى فيها جَلد سيدنا، وقد كانت تُستعمل مرةً كإصطبل من قِبل ابن أحد باشاوات القدس؛ ولكن فـي الوقـت الحاضر ولدى هـذا الامتهان يقولون بأنـه أتى وباء مميت بيـن خيوله ممّا أجبره على أن يتخلى عن المكان، وبذلك جرى خلاصه من ذلك الاستعمال الوضيع؛ ولكن مع ذلك عندما كنا هناك لم يكن أحسن من دكان حائك.

ولـدى عودتنا مـن قصر بيلاطس مررنا على طول طريـق الآلام Dolorous الطّريق المحـزن حيث أرونا في هذه المسـيرة بالترتيـب: أولاً، المكان حيـث جلب بيلاطس سـيدنا ليقدمـه للناس بقوله الخفـي «هو ذا الرّجـل!» ثانياً، حيث أغمي على المسـيح ثلاث مرات وذلك تحت وزن صليبه؛ ثالثاً، حيث أغمي على العذراء المباركة بسـبب هذا المشـهد المفجع؛ رابعاً، حيث قدّمت له القديسـة ڤيرونيقا St. Veronica المنديل ليمسـح جبهتـه الدّاميـة؛ خامسـاً، حيث أجبـر الجنود شـمعون القيرينـي Simon the

Cyrenian ليحمل صليبه. وأنا أقتصر هنا على تسمية هذه الأماكن.

الجمعة 9 أبريل: ذهبنا لنلقي نظرة على تلك البركة التي يدعونها بركة بيت حِسدا Bethesda. وطولها مئة وعشرون خطوة وعرضها أربعون، وعمقها على الأقل ثماني خطوات. ولكنها فارغة من الماء. ولدى نهايتها الغربية تظهر بعض القناطر القديمة، وهي الآن مسدودة. وعند بعض هذه ينبغي أن تكون الأروقة الخمسة التي غصّت بذلك الجمهور من العرجان والخرسان والعميان (إنجيل يوحنا، الأصحاح 5). ولكن ما يدعو إلى الخيبة هو أنه عوضاً عن وجود خمسة يوجد منها ثلاثة فقط. وهذه البركة مجاورة على جانب واحد لبوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen وعلى الجانب الآخر مجاورة لمنطقة الهيكل.

ذهبنا من هنا إلى الدّير أوبيتِ راهبات القديسة حنّة St. Anne. إن الكنيسة هنا كبيرة وكاملة وهكذا أيضاً قسم من المساكن؛ ولكن كلاهما مخرّب ومهجور. وفي كهف تحت الكنيسة أرونا المكان الذي كما يقال وُلدت فيه العذراء المباركة. وقرب هذه الكنيسة أرونا بيت المنافقة، حيث عرضت مريم المجدليّة Mary Magdalen تلك الأدلة البارعة لشعور النّدم نحو مخلّصنا؛ «حيث غسلت قدميه بدموعها ومسحتهما بشعرها» (إنجيل لوقا، 7: 38)، ولقد عُظم هذا المكان قديماً بأبنية مقدّسة ولكنها الآن مهجورة.

كان هذا شغلنا في الصّباح. وذهبنا بعد الظهر لنرى جبل جيحون Gihon والبركة التي بذات الاسم. وهي تقع على بُعد حوالي ربع ميل خارج بوّابة بيت لحم غرباً. إنها بركة جليلة طولها مئة وست خطوات وعرضها سبع وستون خطوة. وهي مبطّنة بجدار وملاط. وكانت عندما كنا هناك مملوءة جيداً بالماء.

السبت 10 أبريل: ذهبنا لنودّع الضريح المقدّس؛ وكانت هذه المرة الأخيرة التي يكون فيها مفتوحاً في هذا الاحتفال.

ولدى يوم الانتهاء هذا والليلة التالية، سمح الأتراك بدخول مجاني لجميع الناس

دون طلب أي رسم للدخول كما هو الحال في الأوقات الأخرى، ويدعونه يوم الإحسان.

الأحد 11 أبريل: وبدأ الآن عيد الأتراك Byram أي العيد[1] الذي يحتفلون به بعد صومهم الذي يسمونه رمضان. وفي هذا الوقت يحصل هرج ومرج كبيران بين عامّة النّاس. وفكرنا أنه من الحكمة أن نحصر أنفسنا في أماكن إقامتنا لفترة من الوقت بغرض أن نتجنّب هذه الفورة التي هي عادية في مثل هذا الوقت من الاحتفالات الشّعبية. إن اعتزالنا كان أقل إزعاجاً، لأنه لم يكن تقريباً أي شيء إما في المدينة أو حولها الذي سبق لم نقم بزيارته.

الإثنين 12 أبريل - الثّلاثاء 13 أبريل: بقينا قريبين من أماكن سكننا، ولكن على كل حال دون بطالة فقد حان الوقت الآن لندبّر ونجهز أشياءً لمغادرتنا. وكان لنا قصة من جميع الجهات، حيث كانت البلد منزعجة أكثر فأكثر بسبب العرب. وهذا الذي جعلنا إلى حدّ ما لا نقرّر أية جهة وطريقة نتبع لعودتنا. ولكن أثناء توقفنا جرى إخبارنا بأن المتسلّم mosolem كان مثلنا يتأهب ليعود إلى سيده باشا طرابلس؛ وعند هذا الخبر قرّرنا إن كان ممكناً بأن ننضمّ إلى جماعته.

الأربعاء 14 أبريل: ذهبنا وبأيدينا هدية صغيرة لزيارة المتسلّم لكي نستفسر عن وقت مغادرته وإعلامه برغبتنا في الذهاب تحت حمايته، فأكّد لنا انطلاقه في الصّباح التالي؛ ولهذا استأذناه مباشرة مودعين لتحضير أنفسنا لمرافقته.

كنت أريد قبل مغادرتنا قياس محيط المدينة؛ وهكذا أخذت معي أحد الكهنة وخرجت بعد الظهر لكي أقيس الجدران حولها. وخرجنا لدى بوّابة بيت لحم وتابعنا نحو اليمين حتى وصلنا نحو البوّابة ثانية. فوجدت بأن محيط كامل المدينة يبلغ 4630 خطوة، وقد حسبته كالتالي:

---

(1) يقصد عيد الفطر، وهو بالتركية: بيرَم.

	خطوات
من بوّابة بيت لحم إلى الزّاوية على اليمين	400
من تلك الزّاوية إلى بوّابة دمشق	680
من بوّابة دمشق إلى بوّابة هيرود Herod	380
من بوّابة هيرود إلى سجن إرميا Jeremiah	150
من سجن إرميا إلى الزّاوية التالية لوادي يهوشافاط	225
من تلك الزّاوية إلى بوّابة القديس اسطفانوس St. Stephen	385
من بوّابة القديس اسطفانوس إلى البوّابة الذهبية	240
من البوّابة الذهبية إلى زاوية الجدار	380
من تلك الزّاوية إلى بوّابة الزّبل Dung gate	470
من بوّابة الزّبل إلى بوّابة صهيون Sion	605
من بوّابة صهيون إلى زاوية الجدار	215
من تلك الزّاوية إلى بوّابة بيت لحم.............................	500
	4630

يمكن إنقاص خطواتي إلى ياردات بطرح عشر جزء، بحيث أن عشرة من خطواتي تساوي تسع ياردات؛ وبهذا الحساب فإن 4630 خطوة تساوي 4167 يارداً، وهذه تساوي ميلين ونصف فقط.

***

الخميس 15 أبريل: في هذا الصّباح قُدِّم لنا دبلوماسيونا من قبل الأب الحارس ليؤكد لنا بأننا قد زرنا جميع الأماكن المقدّسة. وقدّمنا للدير خمسين دولاراً لكل رجل كهبة مقابل أتعابهم، بالنسبة للخدمات التي قضيناها فيما بيننا وعقب ذلك قمنا بتوديعهم.

انطلقنا سوية مع المتسلّم mosolem، وتابعنا في نفس الطّريق الذي أتينا منه، وبتنا

في الليلة الأولى في خان لبنان Kane Leban. ولكن المتسلّم تركنا هنا وتابع مشواره حتى نابلس Naplosa؛ وهكذا لم نره بعد ذلك. كان الفلاحون يحرثون في كل مكان في الحقول لكي يزرعوا القطن، وكان من الملاحظ بأنهم استعملوا في حراثتهم محاريث ذات قياس غير عادي، ولدى قياس عدة منها وجدتها حوالي ثمانية أقدام طولاً؛ وفي نهايتها الكبرى كان محيطها ستة إنشات. وفي نهايتها الصّغرى كانت مسلحة بمنخاس حاد لسوق الثّيران، وكان في نهايتها الأخرى رفش صغير أو مخباط حديدي قوي وجسيم وذلك لتنظيف المحراث من الغضار الذي يعيقه في تشغيله. ألا يمكننا أن نخمن من هنا بأنه بمنخاس كهذا قام شمغار Shamgar بمذبحته الهائلة؟ (سفر القضاة، 3: 31)، إنني واثق من أن أي شخص يرى إحدى هذه الأدوات سيحكم عليها بأنها سلاح ليس أقل ملاءمة، وربما أكثر ملاءمة من سيف لمثل هذا القتل. ومناخس من هذا النوع رأيته يُستعمل دائماً في هذه الأماكن، وفي سوريا أيضاً؛ والسّبب لذلك أن نفس الشّخص الوحيد يقوم بكل من قيادة الثّيران والإمساك بالمحراث وإدارته، مما يجعله من الضروري استعمال منخاس كهذا كما هو موصوف أعلاه، لتجنّب استعمال أداتين.

الجمعة 16 أبريل: بمغادرتنا خان لبنان تابعنا ولا نزال في طريقنا السّابق؛ وبمرورنا في نابلس Naplosa والسّامرة Samaria وصلنا إلى نبع سيلة الظهر Selee. وهناك أقمنا هذه الليلة.

السبت 17 أبريل: تابعنا في الصّباح التالي في نفس الطّريق الذي سافرنا فيه عندما كنا متجهين للخارج، حتى وصلنا إلى كفر عرب Caphar Arab. وفي هذا المكان تركنا طريقنا السّابق، وعوضاً من أن نستدير إلى اليسار للذهاب إلى عكّا Acra حافظنا على طريقنا مستقيماً إلى الأمام مقررين أن نخترق مباشرة بانحراف سهل إسدرايلون[1] Esdraelon ونزور النّاصرة Nazareth.

وبتقدّمنا في الطّريق من كفر عرب، وصلنا في حوالي نصف ساعة إلى جنين Jeneen.

---

(1) هذه التسمية يونانيّة ويقابلها في العربيّة: مرج ابن عامر.

وهذه مدينة قديمة كبيرة على أطراف إسداريلون؛ وفيها قلعة قديمة ومسجدان، وهي السّكن الرّئيسي للأمير شبلي Chibly. وهنا جرى توجيهنا بأمر من الأمير بألا نتقدّم أبعد من ذلك، حتى يأتي هو شخصياً ليتسلم منا إتاوته. كانت تلك أخباراً غير مرحّب بها لنا، حيث كان قد قابلنا بتجربة للطفه من قبل. ولكن على كل حال لم يكن لدينا علاج لذلك، وهكذا فكرنا أنه من الأحسن أن نتقيّد بقناعة بقدر ما استطعنا. وبقينا معلقين هكذا من السّاعة الثّانية صباحاً حتى غروب الشّمس، وعندئذٍ استلمنا أمراً من الأمير بأن تُدفع الإتاوة إلى الضابط الذي أرسله ليتسلمها ويصرفنا.

وبتسلمنا هذه الرّخصة أسرعنا بقدر ما استطعنا لإرسال الإتاوة ولنتخلص من هؤلاء العرب، ولكن على رغم كل اجتهادنا كان الوقت قريباً من منتصف الليل قبل أن تمكنّا من الانتهاء. وبعد ذلك غادرنا، ولدى دخولنا مباشرة إلى سهل إسدرايلون سافرنا فيه كل الليل، وخلال سبع ساعات وصلنا إلى جانبه الآخر. وهنا واجهنا صعودٌ منحدر جداً وصخري؛ ولكن على كل حال سيطرنا عليه خلال نصف ساعة، ووصلنا إلى النّاصرة.

الأحد 18 أبريل: النّاصرة في الوقت الحاضر مجرد قرية غير كبيرة، تقع في نوع من وادٍ مدوّر ومقعّر على رأس تلة عالية. وجرى إكرامنا في الدّير المبني فوق مكان البشارة. ويوجد في هذا المكان الذي كان مسوّراً سبعة أو ثمانية آباء لاتين يعيشون حياة ذليلة حقاً، حيث أنهم دائماً بخوف من العرب الذين هم الأسياد المطلقون للبلد.

ذهبنا بعد الظهر لزيارة معبد هذا المكان، تقع كنيسة النّاصرة في كهف من المعتقد بأن يكون المكان الذي تسلّمت فيه العذراء المباركة تلك الرّسالة المفرحة للملاك: «السّلام عليكِ يا ممتلئة نعمة إلخ..» (إنجيل لوقا، 1: 28) فهي تشبه شكل الصّليب. إن ذلك القسم منها الذي يقع لدى شجرة الصّليب يبلغ أربع عشرة خطوة طولاً وست خطوات ارتفاعاً؛ ويمتدّ مباشرة إلى الكهف، وليس له قوس آخر فوقه من الأعلى، سوى الذي من الصّخر الطّبيعي؛ والقسم المعاكس للصليب يبغ تسع خطوات طولاً وأربع خطوات عرضاً، وهو مبني مقابل فم الكهف.

وتماماً في قسم الصّليب يوجد مُركباً عمودان من الغْرانيت كل منهما محيطه قدمان وإنش واحد، ويبعد الواحد عن الآخر حوالي ثلاثة أقدام. ومن المعتقد بأنهما موجودان في نفس المكانيين: المكان الأول حيث كان الملاك، والمكان الآخر حيث وقفت العذراء المباركة عند وقت البشارة. والعمود الذي في أقصى الدّاخل كان عمود العذراء المباركة، وقد كسره الأتراك لتوقعهم بوجود كنز تحته؛ وهكذا فإن ثمانية عشر إنشاً من طوله قد ذهبت بين العمود وقاعدته. ومع ذلك فهو لا يزال منتصباً، وبالرّغم من ذلك لا أستطيع أن أميّز بأي فن هو محمول. فأعلاه يلامس السّقف ومن المحتمل أنه معلق عليه؛ هذا ما لم تأخذ كلام الكهنة عنه، أي أنه مدعوم بأعجوبة.

وبعد ذلك ذهبنا لرؤية بيت يوسف Joseph، وهو نفسه كما يخبرونك بأن المسيح سكن فيه لمدة ثلاثين عاماً تقريباً (إنجيل لوقا، 2: 51). وغير بعيد من هنا يظهرون لك كنيساً لليهود حيث بشّر سيدنا المبارك بتلك الموعظة (إنجيل لوقا، الأصحاح 4) التي أثار بها جداً أهل بلده. وهذان المكانان كلاهما يقعان شمال غربي الدّير، وكانا قديماً مكرّمين كلاً منهما بكنيسة أنيقة؛ ولكن هذه الأبنية الأثرية لتقوى الملكة هيلينا Helena هي الآن خراب.

الإثنين 19 أبريل: قررنا في هذا اليوم زيارة جبل تابور Tabor الذي يقع بمفرده في سهل إسدرايلون Esdraelon حوالي ربع ميل داخل السّهل.

وبكونه واقعاً بهذا الشّكل المنفصل قد استمال معظم المؤلفين بأن يستنتجوا بأن هذا يجب أن يكون ذلك الجبل المقدّس (كما يحدّده القديس بطرس - رسالة بطرس الثانية، 1: 18) الذي كان مكان تجلّي سيدنا المسيح المبارك. والمنسوب إلى (إنجيل متى، الأصحاح 17؛ وإنجيل مرقس، الأصحاح 9). وهناك تقرأ بأن المسيح «أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنّا إلى جبل كلاً على حدة»، وهم يستنتجون من هذا الوصف بأن ذاك الجبل الذي جرى الحديث عنه لا يمكن أن يكون غير تابور.

ووصلنا بعد صعود متعب جداً استغرق قرابة ساعة، إلى أعلى قسم من الجبل، حيث له منطقة سهل في الأعلى خصبة ونضرة للغاية ذات شكل بيضوي تمتدّ حوالي

ثمن ميل عرضاً وربع ميل طولاً. وهذه المنطقة محاطة بأشجار على جميع الجهات ما عـدا نحو الجنوب. وكانت قديماً مطوقة بجـدران وخنادق وتحصينات أخرى تُعرض منها بقايا كثيرة في هذا اليوم.

توجـد فـي هذه المنطقة في عـدة أماكن خزانات مـاء جيد؛ ولكن تلـك التي تُقصد بالزيـارة بـورع أكثر من سـواها ثلاثة كهوف متجـاورة حيث صُنعـت لتمثل المظلات الثّـلاث التـي اقترح القديس بطـرس St. Peter بأن تقام، وذلك بالدهشـة التي تملكته بمجـد تجلّـي المسـيح. «يقول السّـيد، إنه من الجيد لنـا بأن نكون هنـا؛ ودعونا نصنع ثلاث مظلات؛ واحدة لك، إلخ..».

لا أسـتطيع أن أمتنـع أن أذكـر في هذا المـكان ملاحظة واضحة جـداً لجميع الذين يزورون الأرض المقدّسـة، وهي أن تقريباً كل العبارات والتواريخ الواردة في الإنجيل معبّـر عنها ويجـري بها التعهّد ببيان أين تمّ حصول كل شـيء، حيث أن معظمها جرى عمله في كهوف؛ وحتى في أحوال كهذه حيث أن شرط وظروف الأعمال نفسها تبدو بأنها تتطلب أماكن ذات طبيعة أخرى.

وهكـذا إذا كنـت تريد رؤية المكان حيث ولدت القديسـة حنّـة St. Anne العذراء المباركـة، فإنـك تُسـاق إلى كهـف؛ وجميـع الأماكن التاليـة هي أيضاً كهـوف: مكان البشـارة، المـكان الـذي حَيّـت فيـه العـذراء المباركـة إليصابـات Elizabeth؛ مكان المعمدان، مكان ميلاد مخلّصنا المبارك، مكان الاحتضار؛ مكان توبة القديس بطرس St. Peter، المكان الذي صنع فيه الحواريون دسـتور الإيمان، مكان تجلّي المسـيح. وبكلمة واحدة حيثما تذهب تجد تقريباً كل شيء يتمثل عمله تحت الأرض. وبالتأكيد فـإن الكهوف كانت قديماً تُستمسـك باحترام عظيم؛ وإلا لـم يكن من الممكن لها أبداً بـأن تُخصص، بالرّغم من جميع الاحتمالات، للأماكن التي جرت فيها أعمال متعدّدة وكثيـرة جـداً. وربمـا كانـت طريقـة الزّهّاد للعيـش في كهوف مـن القـرن الخامس أو السّادس وفيما بعد، ممّا جعلها منذ ذلك الحين بهذه الشّهرة الكبيرة جداً.

ومـن أعلـى جبـل تابـور Tabor تتلقـى منظـراً يكافـئ تماماً جهـد تسـلقه. إنه من

المستحيل لعيون بشرية أن تُبصر مكافأة أعلى من هذه الطّبيعة. وإنك ترى في الشّمال الغربي وعلى مسافة البحر الأبيض المتوسط، كما وإنك في جميع الأنحاء حولك ترى سهول إسدرايلون[1] Esdraelon والجليل Galilee الفسيحة الجميلة التي تقدّم لك منظر كثير من الأماكن الشّهيرة لملجأ وأعاجيب المسيح.

وتقع في أسفل جبل تابور غرباً الدّبوريّة Daberah، وهي قرية صغيرة كما يعتقدها البعض بأنها قد أخذت اسمها من ديبوراه Deborah تلك القاضية الشّهيرة ومخلصة إسرائيل. وقرب هذا الوادي يقع وادي نبع قيشون Kishon .

وإنك ترى على بعد عدة فراسخ شرقاً جبل حرمون Hermon (الشّيخ)؛ حيث تقع نائين Nain في أسفله وهي مشهورة لتربية سيدنا لابن الأرملة هناك (إنجيل لوقا، 7: 14)؛ كما تقع إندور Endor وهي المكان حيث سكنت السّاحرة التي استشارها شاؤل Saul. وباتجاهك قليلاً نحو الجنوب فإنك ترى جبال جلبوَع Gilboa العالية المميتة لشاؤل Saul وأبنائه.

وإنك تكتشف نحو الشّرق بحر طبريّة Tiberias، وهو يبعد حوالي رحلة يوم واحد؛ وقريباً من ذلك البحر أرونا جبلاً منحدراً، وفي أسفله ركضت الخنازير وماتت في المياه (إنجيل متى، 8: 32).

ويظهر بعد بضعة نقاط نحو الشّمال ذلك الذي يسمونه جبل الطّوبى *Mount of the Beatitudes*؛ وهو مرتَفَع صغير ألقى منه مخلّصنا موعظته وذلك في الفصول الخامس والسّادس والسّابع من إنجيل القديس متّى St. Matthew. وغير بعيد من هذه التلة تقع المدينة صفد Saphet التي من المفروض أن تكون بيثوليا Bethulea القديمة. وهي تقع فوق جبلٍ عالٍ وواضح جداً، ويُرى من بعيد وقريب. ومن المعتقد بأن المسيح يشير إلى هذه المدينة بتلك الكلمات لموعظته (إنجيل متى، 5: 14) «مدينة واقعة على تلة لا يمكن إخفاؤها؟» التخمين الذي يبدو الأكثر احتمالاً، لأن سيدنا كان معتاداً في

---

(1) هذه التسمية يونانيّة ويقابلها في العربيّة: مرج ابن عامر.

عدة أماكن أن يبيّن في حديثه مقارنات مأخوذة من أشياء كانت آنئذٍ حاضرة أمام أعين مستمعيه. كما عندما يأمرهم «انظروا طيور الهواء (الأصحاح 5: 16) وزنابق الحقل» (الأصحاح 6: 28).

وترى من جبل تابور Tabor كذلك منظر المكان الذي سيخبرونك بأنه كان دوتائيم Dothaim حيث جرى بيع يوسف Joseph من قبل إخوانه؛ وأيضاً الحقل الذي قد أطعم فيه مخلّصنا المبارك الناس أرغفة قليلة وسمكاً أقل.

* * *

لمّا بلغنا حدّ الاكتفاء الكبير بمنظر هذا الجبل رجعنا إلى الدّير بنفس الطّريق الذي أتينا منه. وبعد العشاء قمنا بجولة صغيرة أخرى لكي نرى ذلك الذي يدعونه جبل السّرعة Moutoin of Precipitation؛ أي جانب التل الذي ألقي منه الفتيان المنذورون للرّب (عند قدماء الإسرائيليين) Nazarites مخلّصنا المبارك، حيث أُثير سخطهم بموعظته التي جرى تبشيرها إليهم (إنجيل لوقا، الأصحاح 4). ويبعد هذا الأحدور على الأقل نصف فرسخ عن النّاصرة جنوباً. وبالذهاب إليه فإنك أولاً تجتاز فوق الوادي حيث تقع النّاصرة. ومن ثم بالنزول حوالي ربع ميل في شق ضيق بين الصّخور، فإنك هناك تتسلق طريقاً قصيراً ولكنه صعب على الجانب الأيمن؛ وفي أعلاه تجد حجراً كبيراً يقع على حافة الأحدور الذي يقال بأنه نفس المكان حيث قُدّر على سيدنا بأن يلقى إلى الأسفل من قبل جيرانه السّاخطين لولا أنه لم يقم بهرب أعجوبي من بين أيديهم. ويرى في هذا المكان خزانان أو ثلاثة خزانات لحفظ الماء، بالإضافة إلى بضعة أنقاض؛ وهذا كل ما يبقى من بناء ديني أسّسته الإمبراطورة هيلينا Helena.

الثلاثاء 20 أبريل: غادرنا النّاصرة في الصّباح التالي، وقدّمنا للحارس مبلغ خمسة عن كل شخص لإزعاجه وأجرته لضيافتنا. وتوجهنا نحو عكّا Acra؛ بذهابنا أولاً شمالاً، واخترقنا التلال التي كانت تحيط بوادي النّاصرة على ذلك الجانب. واستدرنا بعد ذلك غرباً، وجُلنا بنظرنا على قانا Cana التابعة للجليل Galilee؛ وهو المكان

المشهور ببداية معجزات المسيح (إنجيل يوحنّا، 2: 11). وخلال ساعة ونصف وصلنا إلـى صفّورية Sepharia؛ وهي مكان مبارك لكونه السّكن الشّهير ليواخيم Joachim وحنّـة Anna أبوي العذراء المباركة. وكانت تسـمّى سـابقاً ديوقيصريّة Diocesaria، وكانـت مكاناً ذا شـهرة جيدة؛ ولكنها الآن انحدرت إلى قريـة فقيرة، وتبدو هنا وهناك بضعـة أطلال فقـط لتؤكد وضعهـا القديم الـذي كان أحسـن. وعلى الجانـب الغربي للمدينة يقع قسـم جيد لكنيسـة كبيرة بُنيـت في نفس المكان حيث يقـال كان يقع بيت يواخيم وحنّة؛ وطوله خمسون خطوة وعرضه قابل للتناسب.

وفـي صفّوريـة يبدأ سـهل زبولـون Zabulon بالغ النّضرة. واسـتغرقنا فـي اجتيازه سـاعة ونصف؛ وبعد ساعة ونصف أخرى مررنا بقرية خربة على اليمين واسمها سَتيرا Satyra. وبعد نصف ساعة دخلنا سهول عكّا Acra. وبعد ساعة ونصف أخرى وصلنا إلى ذلك المكان. وكان مشـوارنا في هذا اليوم أقل من سـبع سـاعات، وكان يمتدّ غرباً وشمالاً وعبر ريفٍ بهيج وخصب جداً بما يفوق التصور.

الأربعـاء 21 أبريل: وفي عكّا عاملنا القنصل الفرنسـي والتاجر بمعاملة كبيرة جداً، كمـا عوملنا عندما كنا متجهيـن خارجاً. وبعد إقامتنا ليلةً واحـدةً غادرنا عائدين بنفس طريق السّاحل الذي وصفته من قبل؛ ووصلنا في الليلة الأولى إلى محل إقامتنا القديمة لدى خزانات سليمان Solomon، وفي الليلة الثّانية وصلنا إلى صيدا Sidon.

الخميـس 22 أبريـل: وعلى بعد ثلاث سـاعات مـن صيدا رافقنا القنصل الفرنسـي لنرى مكاناً مررنا به ولم نأخذه بعين الاعتبار في رحلتنا للخارج؛ بالرّغم من أنه يستحق جيداً جداً ملاحظة المسافر.

فعلـى بعد حوالـي ميل من البحـر، كان يمتدّ جبل صخري عـالٍ؛ وعلى جانبه عدد كبيـر من الكهوف المنحوتة وجميعها صغيرة جـداً وتختلف عن بعضها؛ ولها مداخل تبلـغ حوالـي قدميـن مربعيـن. وتجـد فـي الدّاخل فـي معظمهـا أو في جميعهـا غرفة مسـاحتها حوالي أربعة يـاردات مربعة وعلـى جانبها الباب، وعلـى الثّلاثة الآخريات توجـد حجيـرات صغيرة كثيرة وهي مرتفعـة حوالي قدمين فـوق الأرض. ويوجد من

هذه الكهوف التحت أرضية، كما أُخبرت من قِبَل الذين قاموا بعدّها، مئتين منها. وهي تسمّى باسم الكهوف الذي هو[1] ______.

والشّـك الكبير بخصوصها هو فيما إذا كانت معمولة للأموات أو للأحياء. والشّيء الذي يجعلني أشك هو أنه بالرّغم من أن جميع القبور القديمة في هذا البلد تشبه كثيراً هذه الكهوف؛ فمع ذلك فيها شـيء غريب يغري المـرء بأن يعتقد بأنها من الممكن قد صُمّمـت لإيـواء الأحياء؛ لأن عدداً مـن الحجيرات في الدّاخل كانت ذات شـكل غير ملائم لاسـتقبال الجثامين لتودع فيها حيث كانت مسـاحة الواحـدة حوالي يارد مربع، بعضها أكثر وبعضها أقل من ذلك، وتبدو بأنها صنعت لاستعمالات عائلية. وأمام باب كل حجيـرة توجد قناة محفورة لتصريـف الماء الذي يمكن أن يُزعج الغرف بالداخل. كذلـك لأن الحجيـرات بعضها أعلى وبعضهـا أخفض في جانب الصّخـر، كما توجد هنا درجات محفورة لتسـهيل الاتصال بين المناطق العليا والسّـفلى. ويوجد أيضاً في أسـفل الصّخر عدة خزانات لتخزين الماء. ويمكن الاسـتنتاج من جميع المجادلات، مـع الاحتمال علـى الأقل، بأن هـذه الأماكن قد ابتُدعـت لاسـتعمالها للأحياء وليس للأمـوات. ولكن ماذا كان نوع الناس الذي سـكنوا هذه المدينة التحت أرضية، أو منذ متى عاشوا هنا، إنني لا أستطيع أن أقرر.

الجمعـة 23 أبريـل: تابعنـا هـذا اليوم فـي صيـدا Sidon، وجرت معاملتنـا من قبل أصدقائنا من الأمة الفرنسية بكرم كبير.

السـبت 24 أبريـل: غادرنا هـذا الصّباح القنصل الفرنسـي الفاضل وبقيـة أصدقائنا الآخرين من تلك الأمة، لكي نذهب إلى دمشق.

تقـع دمشـق باتجاه قريب شـرقاً من صيدا، وتقدر عادةً المسـافة برحلـة ثلاث أيام، ويمتدّ الطّريق فوق سلسلة جبال لبنان الشّرقية والغربية.

---

(1) فراغ في الأصل بجميع الطبعات مقدار كلمة، وأظن المقصود مغاور عَدلون التي بها آثار تعود إلى عصور البيزنطيين والفينيقيين وعصور ما قبل التاريخ.

وبذهابنا حوالي نصف ساعة عبر مزارع الزّيتون وصلنا إلى أسفل جبل لبنان. وخلال ساعتين ونصف أخرى وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى كفر ملكي Caphar Milkei. وإلى هذا الحدّ كان صعودنا سهلاً؛ ولكن الآن بدأ يصبح أكثر انحداراً وصعوبة؛ وقد جاهدنا فيه ساعة وثلث إضافية، ومن ثم وصلنا إلى نبع جديد يدعى Ambus Lee؛ حيث خيّمنا لهذه الليلة. وكان كامل مشوارنا لمدّة أربع ساعات وثلث واتجاهنا نحو الشّرق.

الأحد 25 أبريل: تابعنا صعودنا في اليوم التالي لمدة ثلاث ساعات كاملة، ثم وصلنا إلى أعلى مرتفع للجبل حيث كان الثّلج ممتداً قريباً من الطّريق. وبدأنا مباشرةً النزول ثانية على الجانب الآخر، وخلال ساعتين وصلنا إلى قرية تدعى مشغرة Mashgarah، حيث كان هناك يندفع خارجاً فوراً من جانب الجبل جدولٌ غزيرٌ يسقط نازلاً إلى وادٍ في الأسفل ليصنع نُهيراً رقيقاً، وبعد جريانٍ حوالي فرسخين يتلاشى في نهر يدعى الليطاني.

وفي مشغرة يوجد رسم[1] يطلبه الدّروز الذين يملكون هذه الجبال. وكنا لبعض الوقت مرتبكين بالطلب المفرط الذي فرضه علينا موظفو الرّسوم، ولكن لمّا وجدونا عنيدين كفوا عنا.

ولدى ذهابنا لمدة ساعة واحدة بعد مشغرة تخلصنا من الجبل ودخلنا في وادٍ يسمّى البقاع Bocat. والبقاع هذا يبدو بأن يكون نفسه بقعة أوِن Bicath Aven المذكور في (سفر عاموس، 1: 5) سويةً مع عدن ودمشق؛ لأنه يوجد مكان قريب منه جداً في جبل لبنان يسمّى إهدِن[2] Eden حتى هذا اليوم. ومن الممكن أيضاً أن يكون اسم أوِن Aven أي الغرور Vanity قد أعطي له من العبادة الوثنية لبعل Baal التي كانت تجري في بعلبك Balbeck أو هيليوبوليس Heliopolis، التي تقع في هذا الوادي. وعرض الوادي حوالي ساعتين وطوله يمتد لرحلة عدة أيام ويمتدّ من الشمال الشرقي

(1) حاشية للمؤلف: نصف لكل إفرنجي وربع لكل خادم.
(2) من الواضح أنه لا علاقة لغويّة ما بين اسم عَدَن وإهدِن.

إلى الجنوب الغربي. وهو محاط بالجانبين كليهما بجبلين متوازيين يشبه بعضهما الآخر تماماً؛ الواحد هو الذي مررنا فوقه مؤخراً بينه وبين صيدا Sidon والآخر مقابله نحو دمشق. وأعتقد بأن الأسبق هو جبل لبنان الحقيقي Libanus والآخر جبل لبنان المقابل[1] Antilibanus؛ وهذان الجبلان ليسا في أي مكان آخر متمايزين بصورة جيدة كما هما في هذا الوادي.

وفي أسفل الوادي يجري هناك نهر كبير يدعى الليطاني Letane. وهو ينبع من بُعد حوالي رحلة يومين باتجاه الشّمال، وغير بعيد من بعلبك؛ ويحافظ على مجراه حتى أسفل الوادي، وأخيراً يصبّ في نهر كازيمير[2] Casimeer.

وحتى الآن فإن اتجاهنا قد أصبح شرقاً، ولكننا هنا انحرفنا بعض النقاط نحو الشّمال. وباجتيازنا بصورة مائلة فوق الوادي وصلنا خلال نصف ساعة إلى جسر فوق نهر الليطاني، يتألف من خمسة أقواس حجرية ويدعى القرعون Kor Aren عند قرية على بُعد قليل لها نفس الاسم. وقطعنا النهر عند هذا الجسر، وبعد سفرنا حوالي ساعة ونصف على ضفته نصبنا خيامنا هناك لهذه الليلة. وكان كامل مشوارنا لمدة ثماني ساعات.

الإثنين 26 أبريل: في الصباح التالي تابعنا تابعنا مسيرتنا المتعرّجة في وادي البقاع Bocat. وفي ظرف ساعة واحدة مررنا قرب من قرية صغيرة تدعى جبّ جنين Jib Jeneen، وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى سفح جبال لبنان الشرقية. وهنا كان الارتقاء سهلاً، ثم في غضون نصف ساعة مررنا على جهة اليمين بقرية تدعى عزّة Uzzi. وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى عيتا[3] Ayta، وهي قرية للمسيحيين من مذهب الرّوم. وبدأ الطريق في هذا المكان الأخير يصبح صخرياً وشاقاً للغاية، فسرنا عليه لمدة ساعة، ووصلنا إلى غدير صغير يسمّى عين ينطا Ayn Yentloe. وهنا دخلنا

(1) أي سلسلة جبال لبنان الشرقيّة، والأولى Libanus هي سلسلة جبال لبنان الغربيّة.
(2) كازيمير هو ذاته نهر اللّيطاني المعروف في جنوب لبنان.
(3) هي عَيتا الفخّار، من قرى البقاع قضاء راشيّا.

صدعـاً ضيقاً بين جبليـن صخريين، وبعد اجتيـاز هذا الصّدع وصلنا فـي غضون أربع ساعات إلـى الدّيمـاس Demass وكنا ننحـدر برفق طـوال الطريق. وعنـد الدّيماس يفـرض تحصيل خفـارة صغيـرة caphar (مقدارها ربـع على كل فرد) حيـث دفعناها وتابعنـا طريقنـا مجـدداً، ولكننـا لـم نمضِ أكثـر من سـاعة ونصف حتى حـلّ الظلام، فاضطررنـا للتوقـف في مكان قاحل جداً، ولكنه كان أحسـن ما استطعنا العثور عليه، ولـم يكن فيه أي عشب لخيولنا، أو أي ماء سوى ما يكفي لتكاثر الضفادع، التي راحت تتحفنا بنقيقها طوال الليل[1].

الثلاثاء 27 أبريل: في الصباح التالي باكراً غادرنا هذا الموضع غير المريح، ووصلنا خلال ساعة تقريباً إلى نهر بردى Barrady، وبقي طريقنا ينحدر نزولاً. وهذا هو النهر الذي يسـقي دمشـق ويضفي عليها النضارة بكل وفرتها ورونقها. ولا يبلغ عرضه أكثر من عشرين ياردا، ولكنه ينصبّ نازلاً من الجبال بسرعة كبيرة وبكميّة وافرة من المياه، التي تمدّ بغزراة جميع البساتين الظمأى، ومدينة دمشق.

قطعنـا فـوق نهر بردى عند جسـر جديـد مقام فوقه يسـمّى دُمّـر Dummar. وعلى الجانـب الآخـر راح طريقنـا يرتقي صعوداً، وخلال نصف سـاعة أفضى بنـا إلى أعلى حافة خانق عال يجري النهر في أسـفله، والجبل هنا منفرج في أسـفله ليوفر له مدخلاً إلى السهل في الأدنى.

هـذا ويوجـد علـى ذروة الخانق بناء صغير يشـبه ضريح شـيخ[2]، يـروي حوله الأتراك القصـة التاليـة: أن نبيهم عندما أتى إلى دمشـق توقف في ذلك المـكان لبعض الوقت لكي يرى المدينة، وبتأمله لجمالها الخلاب ورونقها لـم يركن إلى دخولها، لكنه عاد عنها ليقينه بأنّ ثمّة جنة واحدة أعدّت للإنسان، وبالنسبة له فإنه لن يرضى بالجنة الأرضيّة هذه.

---

(1) استخدم الكاتب هنا تعبيراً لطيفاً للوصف: by which we were serenaded all night أي: تغنّينا السّيريناد، وهي أغانٍ عاطفية تصاحبها القيثارة، تغنى تحت شباك المحبوبة.

(2) المقصودة قبّة السيّار المعروفة إلى اليوم بأعلى عقبة دمّر. ومنظر دمشق من القبّة جميل جداً. وهذا الدرب كان يسلكه الرّحالون الأجانب دوماً إلى دمشق، فطريق الربوة لـم يكن سالكاً.

ولا ريب حقاً أنك من هذا الخانق بوسعك رؤية أروع مشهد لدمشق. وبالتأكيد لا يمكن لاي مكان في العالم بأن يقدّم للناظر عن بُعد مشهداً أبهى ولا أروع. ودمشق تقع في سهل مستوٍ فسيح الامتداد، بحيث أنك بالكاد تستطيع رؤية الجبال التي تحيط بها في الأفق البعيد. والمدينة تقع في الجانب الغربي من السهل، على بُعد لا يتجاوز الميلين من المكان الذي ينبثق فيه نهر بردى من بين الجبلين[1]. وتمتد جنائنه إلى المدينة ذاتها تقريباً.

وأمّا المدينة ذاتها فلها شكل طويل مستقيم، ونهاياتها تتجه تقريباً إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي. وهي نحيفة جداً في الوسط، ولكنها تتفلطح في نهايتيها وخاصة عند النهاية المتجهة نحو الشمال الشرقي. وبالنسبة لطولها حسبما أمكنني أن أقدّر بنظري، فهي تمتد حوالي الميلين. وهي مكتظة بالجوامع والقباب، التي هي الطابع المألوف للمدن التركية. وتحيق بها البساتين التي تمتد حسب التقدير العام لا أقل من ثلاثين ميلاً، وهذا يجعلها تبدو كمدينة فخمة في غابة فسيحة. والبساتين تحفل بكثافة بأشجار الفاكهة من جميع الأنواع، والتي تحافظ على نضارتها ويناعتها مياه نهر بردى. وتلحظ فيما بينها كثيراً من القباب والدّور الصّيفية التي تطلّ مراراً من بين الأجمات الخضر، وهي تضيف للمنظر رونقاً وبهاءً غير قليل. وعلى الجانب الشمالي لهذه الغابة الفسيحة مكان يدعى الصّالحيّة Solhees، حيث توجد أجمل الدّور الصّيفية والبساتين.

إن الجانب الأعظم من هذه النّضرة والخصوبة ناتج كما أسلفت عن مياه بردى التي تمدّ كلاً من البساتين والمدينة بوفرة كبيرة من المياه. وهذا النهر حالما ينبثق من خانق الجبل المذكور أعلاه إلى السهل، ينقسم مباشرة إلى ثلاثة جداول يجري الأوسط والأكبر منها مباشرة إلى دمشق عبر حقل كبير مكشوف، يدعى [باللاتينية] «مرج دمشق» Ager Damascenus ويتمّ توزيعه إلى جميع صهاريج المدينة وسبلانها، وأما

(1) أي عند خانق الرّبوة، في الجهة الغربية من دمشق. وهذه المنطقة تعرف بالمقسم، حيث ينقسم فيها النهر إلى فروعه السبعة: بردى والقنوات وبانياس وثورا ويزيد والمزاوي والدّيراني.

الفرعـان الآخران (اللذان أظنهما صنعيين) فيتمّ سـوقهما، أحدهما إلى الجهة اليمنى، والآخر إلى الجهة اليسـرى، على حواف البسـاتين. حيث يُجريـان إليها لدى مرورهما بسـواقٍ صغيـرة، وهكـذا يتمّ توزيعهما فـي جميع أرجـاء الغابة الواسـعة[1]، بحيث لا يوجد حديقة واحدة إلا ولها سـاقية لطيفة جارية تنسـاب خلالها، وهذا لا يخدم ليس فقط لسـقاية المـكان، ولكنه يتحوّل أيضاً إلى نوافير وأشـغال مائية أخرى بهيجة جداً، بالرّغم من أنه غير مبتدع بتلك النوعية من الفن الراقي الذي يشيع في العالم الغربي.

من خلال وصف نهر بردى على هذا النحو، فإنه يتمّ اسـتهلاكه بشـكل كامل تقريباً بين أرجاء المدينة والبسـاتين. وأما الجزء البسيط الذي يفضل منه فإنه يتجمّع كما قيل لـي في قناة واحدة مرّة أخرى في الجانب الجنوبي الشـرقي مـن المدينة، وبعد حوالي مسافة ثلاثة أو أربعة ساعات يتلاشى في مستنقع هناك[2]، دون أي يصل أبداً إلى البحر.

هـذا ولقـد كان اليونـان، ومـن بعدهـم الرّومـان، يطلقـون علـى هـذا النهـر اسـم «خريسورواس»[3] Chrysorrhoas. أمّا حول اسمي «أبانا» Abana و«فرفر» Pharpar نهري دمشـق، كما همـا مذكوران في العهد القديم (سـفر الملوك الثانـي، 5: 12) فلم أسـتطع العثـور على من يعرفهما، أو على تسـمية باقية تنطبق عليهمـا[4]. وينبغي بدون شك أن يكونا مجرد فرعين لنهر بردى، وربما كان واحد منهما نفس النهير الذي يجري الآن عبر Ager Damascenus، ويتجه رأساً إلى المدينة، ويبدو من جريانة المتعرّج أنه

---

(1) هذه الغابة التي يذكرها ما هي إلا غوطة دمشق الممتدة في جهتها الشرقيّة، وأراضي المرج في جهتها الجنوبية الشرقية، وبساتين الصالحية والنّيرب في جهتها الغربية.

(2) هي بحيرة العتيبة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق، وجنوبيها بحيرة المرج مثوى الأعوج.

(3) ومعنى هذا الاسم باليونانية: مجرى الذهب.

(4) لا ريب أنّ تسمية نهر أبانا التي ينفرد بذكرها العهد القديم تدلّ على فرع نهر بردى الذي يختصّ بمعبدها الوثني القديم، وهذا الفرع سمّاه الإغريق باناس Βαννας (أي نهر الحمّام) نسبة إلى معبد حوريّات الماء الذي لا تزال آثاره ماثلة إلى جنوب الجامع الأموي اليوم. وأما تسمية نهر فرفر التي ينفرد أيضاً بذكرها العهد القديم فهي (كما أعتقد) التسمية الكنعانية القديمة פרפר لنهر الأعوج الذي ينبع من سفح جبل الشيخ. وثمّة جبل يعرف بجبل بَربَر. ومعنى التسمية الكنعانيّة: الفراشة، كناية عن توائب ماء هذا النهر عند منبعه.

قناة طبيعية. أمّا بالنسبة للآخر فإني لا أعرف تماماً أين يوجد، ولكن لا عجب لكونهم قد حرفوا مسار النهر على هواهم.

تابعنـا فوق الخانق لمـدة من الوقت لمشـاهدة منظر المدينة، وإنه حقاً لأمر عسـير ترك مكان يقدّم لك منظراً طبيعياً فتاناً. فهو يصوّر لك الجنة في الأسفل كمكان جميل وبهيـج للغايـة. ومع أنه لا يتـركك تنصرف عنه للذهـاب إليها، فهو يدعـوك حالاً إلى النـزول إلى المدينـة، وذلك من خلال البهجة التي يبدو بأنه يعـدك بها، ثم يمنعك عن النزول بسبب جمال المنظر من فوق.

لدى نزولنا التلة إلى السـهل تلقانا إنكشـاري من الدير أُرسل ليصحبنا إلى المدينة. ولقـد رأى أنـه من غير المناسـب بأن يُدخلنـا من البوّابـة الغربية (التـي كانت الأقرب وبمتنـاول اليـد) لكي نعبر المدينـة بكاملها إلى دير اللاتين[1] حيـث من المفروض أن نقطن هناك، وذلك خوفاً من أن ينزعج الدمشقيون الذين يكثر فيهم الناس المتعصبون وذوو العنجهيّـة، عنـد رؤية عدد كبير من الفرنجة كما كنـا. ولتجنب هذا الخطر اقتادنا حول البساتين قبل أن نصل إلى البوّابة، وجدران[2] البساتين ذات بناء غريب جداً، فهي مبنية من قطع كبيرة من التراب، ومصنوعة على شكل لبنات مقسّاة في الشمس. وأبعاد هـذه القطـع تبلغ ياردين لكل قطعة طـولاً وتقريباً أكثر من يارد واحد عرضاً وبسـماكة نصف يارد. وصفان من هذه القطع موضوعان على حفتيهما واحد فوق الآخر ليصنعا جداراً رخيصاً وسريعاً، ومستديماً في هذا البلد الجاف.

ولدى مرورنا بين البساتين لاحظنا أيضاً طريقتهم في تنظيف أقنية الماء، فهم يضعون غصن شجرة كبير في الماء ويربطون عليه فدّاناً من الثيران، ويجلس على الغصن هناك شـخص جيد الوزن وذلك ليضغطه إلى الأسـفل وليسـوق الثيران، وبهـذا الجهاز فإن الغصـن يُجـرّ على طـول القناة ويخدم حالاً لكل مـن تنظيف قاع القنـاة ولتعكير الماء بالطمي وذلك لزيادة نفعه للبساتين.

---

(1) يقع دير اللاتين بداخل جادّة باب توما.

(2) تعرف هذه الأسوار القديمة بالدَّك، جمعها دكوك.

دخلنا الباب الشرقي وذهبنا مباشرة إلى الدّير، فتمّ استقبالنا بحفاوة كبيرة من قبل الأب الحارس رافائيل الذي يعود أصله إلى مايوركا Majorkine بالولادة، بالإضافة إلى شخص آخر بالرّغم من أنه خصص نفسه لحياة التأمل، فهو مع ذلك قادر على أيّ شأن من شؤون الحياة.

* * *

الأربعاء 28 أبريل: خرجنا في هذا الصّباح لنأخذ نظرة للمدينة، وكان أول مكان ذهبنا لزيارته بيت رجل تركي[1] رفيع الشأن. إن الشوارع هنا ضيقة، كما هي العادة في البلدان الحارة، وجميع البيوت مبنية من الخارج بمواد ليست خيراً من الآجر محروق بالشمس أو جدار فلمنكي، مليّس كلياً بطريقة خشنة كما هو الحال في أقبح الأكواخ. ومن هذه الطريقة الوسخة للبناء فإن لهم هذا من بين انزعاجات أخرى بحيث لدى سقوط أية أمطار غزيرة تصبح كامل المدينة بسبب غسيل البيوت كما لو كانت أرض مغراق.

ومن المستغرب ماحمل الناس بأن يقوموا بالبناء بهذه الطريقة الأساسية، في حين لديهم في الجبال المجاورة كمية كبيرة من الحجر الجيد لبناء أجمل، وغني لا أستطيع أن أعطي سبباً لذلك، إلا أن أولئك اللذين استوطنوا هنا أولاً وجدوا الوضعية لذيذة جداً، فكانوا بعجلة ليصلوا إلى الاستمتاع بها، ولذلك أقاموا بسرعة تلك المساكن المؤقتة، لكونهم كانوا غير راغبين بتأجيل سرورهم لمدة طويلة، بينما كان بإمكانهم أن يقيموا أبنية أروع لتكون مثالاً مبدئياً لخلفائهم حيث اتبعوها منذ ذلك الحين.

ولكن وعلى كل حال فإنك تجد في هذه الجدران الطينية البوابات والأبواب مزيّنة بفتحات رخامية محفورة ومنزّلة بجمال وتنوع كبيرين، إنه لشيء مفاجئ حقاً بأن ترى الطين والرخام، الأبّهة والحقارة ممتزجين سوية.

---

(1) ذكرنا أعلاه أنّ الرحالين الأوروبيين آنذاك كانوا يطلقون تسمية الأتراك على جميع رعايا السّلطنة، سواء كانوا من التّرك أو العرب أو غيرهم.

أمّا في الداخل فتكشف لك البيوت وجهاً مختلفاً جداً مما تراه في الخارج، فتجد هنا عموماً باحة مربعة كبيرة، مجمّلة بعديد من الأشجار العطريّة، ونوافير رخامية، وهي محاطة بغرف وأواوين رائعة. والأواوين مبلّطة ومزينة الجوانب بتشكيلة من الصّدف ممزوجة بعقد من الموزاييك والخطوط المتشابكة.

أمّا السقوف والأقواس فمدهونة ومذهبة بغنى وفق الطريقة التركية، ولها بصورة عامة نوافير اصطناعية تفور أمامها في فسقيّات رخامية، أما بالنسبة للسجاد والوسائد فهي مفروشة إلى أعلى درجات الرفاهية. وهناك من هذه الأواوين بصورة عامة عدد على جميع جوانب الباحة مقامة باتجاهات مختلفة، بحيث أنه يمكنك دائماً في أحدها أو سواه الحصول على الظل أو الشمس أيهما يسرك.

على هذا النّحو الذي وصفته كان البيت الذي ذهبنا إليه لنراه، وقيل لي بأن باقي البيوت لها الوصف ذاته.

* * *

أمّا المكان التالي الذي ذهبنا لرؤيته فكان كنيسة القديس يوحنا المعمدان St. John Baptist التي حوّلت الآن إلى مسجد[1]، ويحظّر على النصارى دخوله، أو حتى النظر إلى داخله. لكن على أيّ حال ظفرنا بثلاث نظرات قصيرة إليه وذلك من خلال أبوابه الثلاثة. وأبوابه كبيرة بشكل واسع ومكسوّة بالنحاس ومختّمة بالكامل بكتابات عربية وفي عدة أماكن بكأس، من المفترض أن يكون الرّمز أو الشعار القديم للماليك[2].

ويوجد في الجانب الشمالي للمسجد باحة فسيحة والتي لم أستطع أن أخمّن بأنها أقل من مئة وخمسين ياراداً طولاً وثمانين أو مئة يارد عرضاً. وهذه الباحة مبلطة

(1) يعني الجامع الأموي بالطبع، وقد بنى الكنيسة الإمبراطور الرّوماني ثيودوسيوس الأول الذي حكم بين 379-395 م.

(2) هذا صحيح، فالكأس على أبواب الأموي رنك السّلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق. وله أيضاً مثال آخر على الواجهة الشمالية للقلعة، وعلى قنطرة قريبة من مسجد الصحابي أبي الدّرداء في الجهة الشمالية من القلعة. انظر صورها بآخر هذا المبحث.

بأكملها، وفي الجهة الجنوبية منها حرم المسجد، وفي الجهات الثلاث الأخرى أروقة مزدوجة، تقوم على صفّين من الأعمدة الغرانيتية ذات الطراز الكورنثي، وهي مرتفعة وجميلة جداً.

أمّا في الجانب الجنوبي فإنّ المسجد يحاذي الأسواق، ومن هنالك تمكّنا من الفرجة إلى داخله. وهو في الداخل فسيحة وعالية، ومبني بثلاث أروقة يوجد بينها صفوف من الأعمدة المصقولة ذات جمال مدهش، هذا ما لم نكن بالغنا في تقييمنا قليلاً لما كان ممنوعاً علينا استطلاعه.

ويحفظ في هذا المسجد رأس القديس يوحنا وبعض البقايا الأخرى التي تعدّ مقدّسة جداً، حيث أنّ من يتجرأ بالدخول ولو كان تركياً إلى الغرفة التي تُحفظ فيها، يكون عقابه الموت. وروى لنا أحد الأتراك كلاماً متواتراً بأنّ المسيح ينزل على هذا المسجد عند قيام السّاعة، كما ينزل محمّد على مسجد القُدس. أمّا ما هو أساس هذا الاعتقاد فلا أدريه.

* * *

ذهبنا من المسجد إلى القلعة، التي تقع على بعد حوالي ربع ميل نحو الغرب. إنها بناء جيد على الطريقة الريفية، ويبلغ طولها ثلاثمئة وأربعين خطوة وعرضها أقل بعض الشيء. تمّ إدخالنا إنما فقط عند البوّابة[1]، حيث رأينا مخزناً لأسلحة ودروع قديمة وغنائم من المسيحين في العصور السالفة. ومن بين قطع المدفعية يوجد منجنيق روماني قديم. ولكن هذا المكان لا يجوز إطالة النظر فيه من قبل أشخاص مثلنا[2].

---

(1) وهي البوابة الشرقية، التي يُفضى إليها عبر جسر متحرّك فوق الخندق. انظر وصف مانريك ودارڤيو في كتاب «رحلات في برّ الشام بالقرن السّابع عشر». وهي ماثلة اليوم قبالة سوق العصرونيّة.

(2) من الملاحظ تشابه نص موندرل مع نص دارڤيو الذي سبقه في زيارة دمشق بمدة 37 سنة، فيبدو أن الشائع آنذاك بخصوص السيّاح الأجانب زيارة تلك الأماكن. ولا يمكن أن نفترض كونه نقل عن دارڤيو أو اطلع عليه، لأن كتابه لم يُنشر إلا في عام 1735 م.

وفي النهاية الشرقية للقلعة تتدلى في منتصف الجدار سلسلة قصيرة محفورة في الحجر، ولا أعلم ما الفائدة منها غير التفاخر بمهارة الصّانع.

وبمغادرة هذا المكان ذهبنا لنرى الأسواق التي وجدناها مكتظة بالناس، ولكنها خالية من أي شيء آخر جدير بالملاحظة.

* * *

الخميس 29 أبريل: ذهبنا باكراً جداً في هذا الصّباح لرؤية الموكب الفخم الكبير السنوي للحجاج الذين ينطلقون في حجّهم إلى مكة. ولقد عُيّن أوستان باشا[1] حاكم طرابلس أميراً لهم أو محافظاً لهذا العام. وللحفاظ على أمننا من غائلة المتشدّدين، استأجرنا دكاناً في أحد الأسواق التي سيمرّون عبرها.

وفي هذا الركب الذائع الصّيت أتى أولاً ست وأربعون دليلاً أي أولياء، يحمل كلّ منهم راية حريرية مختلطة الألوان إما أحمر وأخضر أو أصفر وأخضر، وبعد هؤلاء أتى ثلاث فرق من السّكبان[2] Segmen (الذي هو صنف من العسكر لدى الأتراك)، وأتى بعدهم بعض جنود السپاهية Spahees (وهو صنف آخر من العسكر)، وتبعهم ثمانية فرق من المغاربة Megrubines (وهكذا يسمّي الأتراك البربر Barbaroses)، مشياً على الأقدام. وهؤلاء ذوو مظهر رائع جداً، وهم معدّون للتمركز في حامية للأتراك في مكان ما في صحراء جزيرة العرب، ثمّ يسرّحون كل سنة مقابل رجال جدد. وفي وسط المغاربة مرّت ست قطع صغيرة من المدفعيّة.

وفي أعقابهم أتى جنود قلعة دمشق مشاةً، مسلحين بشكل مذهل بدروع ورانات

(1) هكذا يكتب موندرل الاسم، والصّواب أنه أرسلان باشا المَطرَه جي، الذي ولي طرابلس في عام 1693، ثم في عام 1697 نُقل من إيالة طرابلس إلى إمارة الحج (كما يذكر موندرل هنا)، وعُيّن مكانه أخوه قپلان پاشا. ثم في عام 1698 عاد أرسلان پاشا مرة ثانية على ولاية طرابلس، ونُقل أخوه قپلان پاشا إلى صيدا. وبقي أرسلان پاشا في منصبه حتى 1704 على الأقل.

(2) السّكبان صنف من العسكر الأدنى شأناً في أنظمة العسكرية العثمانية، ومصدر التسمية من الفارسية: سك - بان، أي ماسك الكلب.

وقطع أخرى من الدّروع القديمة. وتبعهم جنود من الإنكشاريّة مع الآغا العائد لهم، وكانوا جميعهم على صهوات الخيل. وبعد ذلك مرّ طوخا[1] الپاشا بصحبة آغا البلاط العائد له[2]. وبعد الطوخين مرّت ستة خيول مقودة، وجميعها ذوات هيئة بديعة ومجهزة بفخامة، وكان فوق السّرج لكل حصان حزام ومجنّ فضي مذهب.

بعد هذه الخيول أتى المَحمَل، وهو سُرادق كبير من الحرير الأسود مركوز على ظهر جمل كبير جداً وتمتد ستائره من جميع أنحاء الجمل فتصل إلى الأرض. والسّرادق مزيّن في الأعلى بكرة ذهبية وبكنابيش ذهبية. و الجمل الذي يحمله لا ينقصه أيضاً تزيينات المسابح الكبيرة والأصداف وذيول الثعالب، وزينة أخرى خيالية كهذه معلقة فوق رأسه ورقبته وقوائمه.

وجميع هذا مصمّم لمقام القرآن Alcoran الذي يوضع باحترام كبير تحت السُّرادق، حيث يركب باحتفال إلى مكة ثم يعود منها. وتُرفق بالقرآن ستور جديدة نفيسة كالسجّادة يرسلها السّلطان كل عام لكسوة ضريح محمد[3]، ويستردّ السجادة القديمة عوضاً عنها، والتي تُقدّر بثمن لكونها لمدة طويلة مجاورة لجسد النبي. والبعير الذي يحمل هذا الحمل المقدّس له ميزة إعفائة من أيّة حمولات أخرى طوال حياته.

وأتى بعد المحمل جنود آخرون ومعهم الپاشا نفسه، كما أتى آخر الجميع عشرون جمل موسقاً بالأحمال، حيث انتهى بهم الموكب الذي استغرق مروره ثلاثة أرباع الساعة.

وبعد مشاهدتنا ما استطعنا من هذا العرض (الذي ربما لم يشاهده الفرنجة من قبل)، ذهبنا لدى بعض الأمور الأخرى اللافتة للانتباه. وكان المكان الأول الذي وصلنا إليه

---

(1) الطوخ في التركية ذيل الحصان، وكان بمثابة شعار يدلّ على رتبة الپاشا، فمنهم من كان له طوخان ومنهم ثلاثة. أما السلطان ذاته فكانت له سبعة أطواخ.

(2) أي الكيخيا (الكتخدا) في المصطلح الإداري العثماني لذلك العصر.

(3) معلومات موندرل مغلوطة، فالكسوة ترسل إلى الكعبة المشرّفة، وقبر الرّسول (صلى الله عليه وسلّم) ليس فيها كما يظن، بل بالمدينة المنوّرة.

المرج الذي فيه مجرى النهر Ager Damascenus وهو مرج[1] طويل جميل، يقع بظاهر المدينة مباشرة، على الجانب الغربي منها. وهو منقسم في الوسط بذلك الفرع لنهر بردى الذي يمد المدينة. وله شهرة كبيرة بسبب مقولة شائعة هنا، هي أنّ آدم قد خُلق من تراب هذا المرج.

* * *

وجوار هذا المرج مستشفى[2] كبير، بداخله باحة مربعة ممرعة، يحدّها في الجانب الجنوبي مسجد جليل، ومحاطة على جوانبها الأخرى بأروقة ومساكن ذات بناء مُعتبر ليس بالقليل.

لدى رجوعنا من هنا نحو مسكننا، أرونا على الطريق حماماً جميلاً جداً، وغير بعيد عنه مقهى يستوعب أربعمئة أو خمسمئة شخص، وأعلاه مظلل بالأشجار أو الحصر عندما تقصر الأغصان عن التظليل. وله جانبان لاستقبال الضيوف، أحدهما مناسب للصيف، والآخر للشتاء. والمخصّص للصيف بينهما عبارة عن جزيرة صغيرة يحفّ بها جدول كبير سريع الجريان، وهي مظللة من الأعلى بالحُصر والأشجار. وجدنا هنا جمعاً كبيراً من الأتراك على الدواوين يمتّعون أنفسهم في هذا المكان المبهج، إذ لا شيء يمتعهم بقدر الخُضرة والماء، اللذين إن أضيف إليهما وجهٌ حسن، اكتمل بذلك لديهم قول مأثور يشير إلى أنّ هذه العناصر معاً تشكّل خير توليفة ضدّ الحزن.

بعد الظهر، ذهبنا لزيارة البيت الذي يقولون بأنه كان مسبقاً بيت حنانيا Ananias الذي أعاد البصر إلى القديس بولس (سفر أعمل الرّسل، 9: 17)، والمكان الذي بيّنوه لنا (وفق المقولة القديمة) هو كهف أو قبو صغير ليس فيه ما يستحق الملاحظة، ما عدا أنه يوجد فيه مذبح مسيحي ومُصلّى تركي موجودان قرب بعضهما بشكل لا يتوافق مع طبيعة أماكن كهذه.

---

(1) هذه التسمية اللاتينية تنطبق على ما عُرف في تاريخ دمشق الإسلامي بالميدان الأخضر أو المرج، أو حتى عام 1951: مرجة الحشيش. ثم قام مكانها معرض دمشق الدولي.

(2) يعني بذلك تكيّة السّلطان سليمان القانوني، التي بنيت في القرن العاشر الهجري 962 هـ.

مشـوارنا التالـي كان الخروج من الباب الشـرقي لكي نرى المكان الـذي يقال بأنه مكان رؤيا القديس بولس[1]، والأماكن الأخرى الجديرة بالملاحظة في ذلك الجانب. يبعـد مكان الرؤيا حوالي نصف ميل من المدينة شـرقاً، وهـو قريب من جانب الطريق وليـس لـه بناء لتمييـزه، ولا أعتقد أن كان له قديماً. لا يوجد سـوى صخـرة صغيرة أو كومة من الحصى تفي بالإشارة إلى المكان.

وعلـى بعـد حوالي ربع ميـل أقرب إلى المدينة يوجد بناء خشـبي يشـبه قفص بلدة ريفية، ويوجد في داخله مذبح مقام، ويقال بأن الحواري المقدّس استراح هناك لبعض الوقت في طريقه إلى هذه المدينة بعد رؤيته (أعمال، 9: 8).

ولـدى رجوعنـا إلى المدينـة، أرونـا البوّابة التي أُدلـي عندها القديس بولس بسـلّة (أعمال الرّسـل، 9: 25). وهذه البوّابة حالياً مسـدودة، بسبب قربها من الباب الشرقي الذي يجعلها ذات فائدة قليلة.

وبدخولنـا ثانية إلى المدينـة، ذهبنا لنرى البطريرك الكبير القاطـن في هذه المدينة. كان شـخصاً يبلغ من العمر حوالي أربعين عاماً، ومسكنه زريّ، وشخصيته وحديثه لم يتميّز بأي شيء غير عادي. ولقد أخبرني بأنه يوجد أكثر من ألف ومئتي نسمة من طائفة الرّوم في تلك المدينة.

* * *

الجمعـة 30 **أبريـل**: ذهبنا في اليوم التالي لزيارة البسـاتين ولقضاء يوم هناك. ويبعد المـكان الـذي وصلنـا إليـه حوالي ميل خـارج المدينة. وفيـه دارة صيفيـة ممتعة ذات جـدول غزير من المـاء يجرى خلاله. وكان البسـتان مزروعاً بكثافة بأشـجار الفاكهة، إنمـا بغيـر أيّ فن أو ترتيب. وهكـذا كهذه الحديقة كان وضع جميـع الحدائق في هذه النواحي. وبهذا الاختلاف فقط فإن لبعضهم دارات صيفية أبهى من سـواها، ذات مياه مهيئة بنوافير ذات تنوّع أكبر.

---

(1) في قرية كوكب التابعة لجديدة عرطوز قضاء قطنا، إلى الجنوب الغربي من دمشق.

لـدى زيارة هذه البسـاتين، يُجبر الفرنج على المشـي أو على ركـوب الحمير، لأن عنجهيّـة الأتـراك لا تسـمح لهم بـأن يركبوا علـى ظهر الخيـول. ولخدمتهـم في هذه الظـروف يوجد هنا حمير للأجرة تقف دائمـاً جاهزة ومجهزة للاكتراء. وعندما تركب فإن صاحب الحمار يلحق حيوانه إلى المكان الذي ترغب بالذهاب إليه، وينخسـه من الخلف بعصا مدببة حادّة تجعله ينطلق بسرعة أكبر.

وقـد يعمد أحياناً إلى إعطاء بعض الإشـمئزاز للمسـافر الكريم، بـأن يكيل له أفعال ازدراء كهـذه[1]، إنما لا حلّ لهذا. وإذا كان المسـافر يأخـذ بنصيحتي فإن خير ما يفعله هـو أن يمتطي حماره بقناعة ورضى، وأن يحوّل الإسـاءة إلى دافع للفكاهة كما فعلنا. وبعد قضاء يومنا في البستان رجعنا مساءً إلى الدير.

* * *

السـبت 1 مايـو: قضينـا اليـوم التالـي في بسـتان آخر غير بعيـد عن سـابقه، ولكنها تتجاوزها كثيراً في جمال دارتها الصّيفية والتنويع في نوافيرها.

* * *

الأحـد 2 مايو: ذهبنا مع عدد منا كانوا ميالين للذهاب إلى صيدنايا، وهي دير للرّوم يبعد حوالي أربع ساعات من دمشق باتجاه الشمال أو الشمال الشرقي. إن الطريق جيد جداً ماعدا ارتفاعين قاسـيين، وفي هذا المشـوار مررنا على قريتين، الأولى تدعى التل Tall والثانية منين Meneen. وعلى مسافة لا بأس بها على اليمين توجد تلة عالية جداً يقـال بأنهـا هي التي قـدّم عليها قابيل وهابيـل قرابينهما، وأيضاً حيـث قتل الأول أخاه ووضع أول مثال لإراقة الدم في العالم.

تقـع صيدنايـا Sydonaiia فـي الجانب الأبعد لـوادٍ كبير علـى رأس صخرة، وهي منحوتـه بدرجـات على كامل المسـافة إلى الأعلـى، ودونها لا يمكـن الوصول إليها. وهـي محاطـة على جميع جوانبها في الأعلى بجدار قـوي يحيق بالدير. وهو مكان ذو

---

(1) أي أن ينخس الفرنجي أحياناً بالعصا، وأهل دمشق كانوا مغرمين بتعذيب الرحّالين الفرنج.

بناء هزيل جداً ولا يحوي شيئاً غير عادي، سوى الخمر المصنوع هنا والذي هو فعلاً رائع جداً. ولقد أسّس هذا المكان أولاً وأوقفه الإمبراطور جوستينيان Justinian.

والدّير حالياً في عهدة عشرين راهباً من الرّوم، وأربعين راهبة، يبدو أنهم يعيشون معاً بشكل مختلط، دون أيّ نظام أو فصل فيما بينهم.

هنا وعلى هذه الصّخرة وضمن محيط صغير حولها يوجد ما لا يقل عن ست عشرة كنيسة أو مصلّى مكرّسة لعدة أسماء: الأولى للقديس يوحنا، والثانية للقديس بولس، والثالثة للقديس توما، والرابعة للقديس بابيلاس، والخامسة للقديسة بربارة، والسادسة للقديس خريستوفر، والسابعة للقديس يوسف، والثامنة للقديس إلعازر، والتاسعة للعذراء المباركة، والعاشرة للقديس ديميتريوس، والحادية عشرة للقديس سابا، والثانية عشرة للقديس بطرس، والثالثة عشرة للقديس جرجس، والرابعة عشرة لجميع القديسين، والخامسة عشرة للصعود، أمّا السادسة عشرة فلتجلّي سيدنا المسيح. ويمكننا أن نستنتج من كل ذلك بأن هذا المكان قد حظي قديماً بشهرة غير قليلة من القدسيّة. ولقد زرت فعلاً كثيراً من هذه الكنائس، لكنني وجدتها مخربة ومهجورة بشكل لم يحمّسني على الذهاب إليها جميعاً.

وفي القلاية التي يستخدمها أهل الدّير لصلاتهم اليوميّة، يزعمون بأنّ أعجوبة عظيمة حصلت منذ عدّة سنوات، هذا وصفها نقلاً عنهم:

يقولون بأنه كان لديهم في الكنيسة قديماً أيقونة للعذراء المباركة، يقصدها المؤمنون بالزيارة، وتشتهر بشفاء الكثير من الأمراض وببركتها تلقاء زيارتهم ودعائهم. وحدث أنّ شخصاً خبيثاً تجرّأ على سرقة هذه الصّورة العجائبية، لكنه لم يكد يحتفظ بها مدّةً حتى وجدها تستحيل لحماً حياً. فروّعته هذه المعجزة واستبدّ به النّدم فحمل الأيقونة الثمينة إلى أصحابها، معترفاً بذنبه وطالباً المغفرة على ما جنته يداه. فلمّا استردّ الرّهبان هذه الدرّة الثمينة، ولخوفهم من كارثة ضياعها في المستقبل، فلقد رأوا إيداعها في صندوق حجري صغير. ثم قاموا بوضعها في فجوة صغيرة بالجدار خلف المذبح الكبير، وجعلوا أمامها شبكاً حديدياً، بغية حمايتها من أية محاولة دنيئة لسرقتها.

وعلى الشبك عُلّق العديد من الدُّمى والحلى الصّغيرة، هي تقدمات من المؤمنين عرفاناً بقبول صلواتهم عند هذا المقام. وتحت الصّندوق الذي أودعت فيه الأيقونة المتجسّدة، يحتفظون على الدّوام بحوض صغير من الفضة، بغية جمع قطرات زيت مقدّس يزعمون أنه صادر عن الصّورة المخبوءة، وأنّ له مفعولاً عجيباً في شفاء الآفات، وبخاصّة ما يصيب منها العيون[1].

وعلى الجانب الشرقي من الصّخرة مدفن قديم مجوّف في الحجر الصّلب، وتبلغ مساحة الغرفة حوالي ثمانية ياردات مربعة، وتحوي على جوانبها (كما أذكر) اثني عشر ناووساً. ويوجد فوق المدخل ستة تماثيل محفورة بالحجم الطبيعي[2]، تقبع في ثلاث كوى في الحائط، كل تمثالين في كوّة واحدة. وعلى قواعد التماثيل يمكن رؤية بضعة كلمات باليونانيّة، ها هو ذا بيانها كما تمكنت من نقله في وضعها الحالي ضمن الظلمة:

ETOYCIΦ--	I[OY]Λ ☙ΦI[ΛI	IOYΛ☙ΔHMH
IOYΛ☙APTe	Π] ΠIκOC	TPIOC KΛ[I A[PI]
ωIΔIPOC KAI	[K]AI ΔOMNCINA	AΔNH ΓY[NH]
ΠPeIΓKY ΓYNH	ΓYNH	ΠANTAC єΠOIOY[N]
Under the first.	*Under the second.*	*Under the third nich.*

كان لي ولرجل برفقتنا سبب وجيه لتذكّر هذا المكان، وذلك لنجاتنا فيه من الموت. كان ثمّة جندي إنكشاري ثمل يمرّ تحت النافذة حيث كنا، فصادف أنّ وقعت نقطة خمر على سترته، ومن جرّاء هذه الفورة العصبيّة إذا به يوجّه مسدسه تجاهنا عبر النافذة.. فلو قام بإطلاقه لكان ذلك مميتاً لأحدنا أو لكلينا، وكنا بالضبط في مواجهته. لكن الله قدّر بأن يكبح غضبه.

وفي هذا المساء رجعنا ثانية إلى دمشق.

* * *

(1) راجع ما ذكره الرحّالة الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي عام 1384 م (نشرناه مؤخراً).
(2) هناك في صيدنايا كثير من الآثار الوثنية القديمة، منها اكتشفتُ في 2002 نقشاً للإلهة عشتار.

الإثنين 3 مايو: ذهبنا هذا الصّباح لنرى الطريق المستقيم (أعمال، 9: 11). ويبلغ طوله حوالي نصف ميل[1]، وهو يمتدّ من الشرق إلى الغرب عبر المدينة. ولكونه ضيقاً والبيوت تبرز في عدّة أماكن على جانبيه، فلا يمكنك بأن ترى منظراً واضحاً لطوله واستقامته. ويظهر في هذا الطريق بيت يهوداه[2] Judas حيث سكن معه القديس بولس، وفي نفس البيت يوجد ضريح قديم يقال بأنه ضريح حنانيا Ananias، ولكن كيف حدث بأن يدفن هنا، لم يستطيعوا بأن يخبرونا ولا نحن فهمنا، إذ أرونا بيته الخاص في مكان آخر[3]. وعلى كل حال فإن الأتراك يجلّون هذا الضريح ويحافظون على قنديل يشعل دائماً فوقه.

بعد الظهر، وبعد أن دفعنا رجال الدير عشرة لكل منهم لحسن أستقبالهم لنا، غادرنا دمشق وبدأنا اتجاهنا نحو طرابلس، وصمّمنا بأن نرى على الطريق بعلبك وأرز لبنان. ولأجل ذلك رجعنا بنفس الطريق التي أتينا منها، وباختراقنا نهر بردى ثانية عند جسر دُمَّر Dummar، وصلنا بعد قليل إلى قرية بنفس الاسم وبتنا فيها الليلة، ولقد سافرنا بعد ظهر هذا اليوم ثلاث ساعات.

---

(1) بل يبلغ امتداده من باب الجابية إلى الباب الشرقي 1500 متر، أي قرابة الميل.

(2) حول يهوداه وحنانيا انظر ما علّقنا به بالتفصيل على رحلة دارڤيو في كتاب «رحلات في برّ الشام بالقرن السّابع عشر».

(3) ذاك قرب الباب الشرقي مصلاه وليس كنيسته، وأما وجود قبره في بيت يهوداه فهو أمر منطقي. وينبغي ألا يخلط القارئ بين يهوداه هذا والحواري الخائن (يهوذا بالعربية نقلاً عن الآراميّة)، فيهوداه صاحب البيت كان كما يتضح من أعمال الرُّسل واحداً من أفراد المجتمع النصراني التوحيدي العائد إلى كنيسة القدس التوحيديّة الأولى، التي كان من أهم أركانها إخوة المسيح (عليه السلام) أنفسهم: يعقوب وشمعون ويهوداه، وكان منهم بارنَبا اليهودي القبرصي. وثمّة فرضيّة لي أقول بها إن لمجتمع دمشق النصراني التوحيدي الأول كل الأهميّة في توضيح العقيدة النصرانية الصحيحة، بعيداً عن التثليث البوليني والنيقاوي. وما شاع في أوروبا على يدي بولس وقسطنطين غريب عن عقيدة المسيح.

ومن الغريب أنّ بيت يهوداه هذا وقبر حنانيا المفترض قد زالت آثارهما تماماً من أذهان مسيحيي دمشق، وقد فصّلت موقعه بمحلّة مئذنة الشحم ضمن نصّ الرحّالة الفرنسي دارڤيو، انظر: «رحلات في برّ الشام بالقرن السّابع عشر».

الثلاثـاء 4 مايـو: تركنا هـذا الصّباح طريقنا القديـم وأخذنا طريقاً آخر يتجه شـمالاً أكثر. وخلال سـاعة ونصـف أتينا إلى قرية تدعى بسّـيمة Sinie، ويوجد قريباً منها بناء قديـم علـى رأس تلة عالية يُفترض أن يكون ضريح هابيـل، وبأنّ المنطقة المجاورة قد حملـت في الأزمنة القديمة اسـم آبيـلا Abilene لهذا السـبب. ويقال أيضـاً على ذمّة البعض بأن قتل الأخ قد ارتُكب في هذا المكان.

ويبلغ طول الضريح ثلاثين ياردا، ومع ذلك فإنه من المعتقد هنا بأنه كان متناسباً مع قامة الشخص الذي دُفن فيه. وهنا ولجنا في قناة ضيقة بين جبلين صخريين منحدرين، ونهـر بردى يجري بينهما في الأسـفل. وكان على الجانـب الآخر من النهر عدّة أعمدة طويلة أثارت فضولنا لنذهب ونتمكن من رؤيتها عن كثب. فوجدناها جزءاً من واجهة صرح قديم ورائع جداً، لكننا لم نستطع أن نخمّن ماهيّته.

تابعنا طريقنا على ضفاف بردى Barrady، ووصلنا خلال ثلاث سـاعات إلى قرية تدعى مضايا Maday، ثمّ بعد ساعتين وصلنا إلى نبع يدعى عين حور Ayn il Hawra، حيث بتنا هناك. وكان كامل مشوارنا نوعاً ما أقل من سبع ساعات، وكان اتجاهنا قريباً من الشمال الغربي.

* * *

الأربعـاء 5 مايـو: وفي هـذا الصّباح مررنا بنبع بـردى؛ فوصلنا خلال سـاعة وثلثي السّـاعة إلـى قرية تُدعى سـرغايا Surgauieh. وتركنـا في هذا المكان الـوادي الضيّق الـذي سـافرنا فيه منـذ الصّباح السّـابق، وصعدنا الجبل علـى الجهة اليسـارية. ولدى قضاء سـاعتين باختراقه وصلنا للمرة الثّانية إلى وادي البقاع Bocat؛ وباتجاهنا شمالاً وصعـوداً مـن الوادي وصلنا خلال ثلاث سـاعات إلى بعلبك. وكان مشـوارنا في هذا اليوم سبع ساعات تقريباً واتجاهنا نحو الغرب.

ولدى بعلبك ضربنا خيامنا في مكان يبعد أقل من نصف سـاعة عن المدينة شـرقاً، قرب نبع غزير ونضر حيث يتحوّل مباشرة إلى جدول؛ وبجريانه نزولاً إلى بعلبك فهو

يضيف إلى لمكان ملائمة وسروراً ليسا بقليلين.

وبعد الظهر مشينا خارجين لنرى المدينة. ولكن فكّرنا بأنه من الأنسب قبل دخولنا أن نحصل على ترخيص من الوالي وأن نتوجّه بكل حذر. وقد علّمنا هذا الحرص الضروري قدوة بعض السّادة الإنكليز الأفاضل من معملنا، الذين زاروا هذا المكان في عام 1689 وذلك لدى عودتهم من القدس، وبتوقعهم عدم الإزعاج فقد خدعهم الناس هنا بدناءة. وأُجبِروا على أن يُنقذوا حياتهم بمبلغ كبير من المال.

ومن المعتقد بأن بعلبك هي مدينة الشّمس القديمة هيليوپولس Heliopolis؛ ولذلك فهذا ما تدل عليه الكلمة. إن اسمها الحالي عرب Arab الذي هو ربما أقدم اسم لها، يميل إلى نفس الأهمية. وبالرّغم من أن كلمة بعل Baal تدلّ على جميع الأوثان عامةً، فهي على الأرجح تُنسب إلى الشّمس التي هي الوثن الرّئيسي لهذا البلد.

وتتمتّع المدينة بوضع مبهج ومريح جداً على الجانب الشّرقي لوادي البقاع. وهي ذات شكل مربّع محاطة بجدار جيد معتدل يوجد فيه أبراج في جميع أنحائه بمسافات متساوية. وهو يمتدّ حسبما استطعت أن أخمّن بالعين المجرّدة حوالي ربع ميل على أحد الجوانب. وبيوته في داخلها من أردأ أنواع البناء كما يُرى عادة في القرى التركية.

ويوجد على الجانب الجنوبي الغربي للمدينة أثر جليل، وهو التحفة الوحيدة التي يُزار هذا المكان من أجلها. وكان قديماً معبداً وثنياً؛ سوية مع أبنية أخرى تخصّه، وجميعها حقاً نفيسة؛ ولكن في الأزمنة الأخيرة رُقعت هذه الأبنية القديمة وجُمعت مع عدة أبنية أخرى وحُوّلت جميعها إلى قلعة حيث تحت لا تزال تحمل هذا الاسم في هذا اليوم. والأبنية التي أُضيفت ليست ذات هندسة رديئة، ولكنها مع ذلك يمكن تمييزها بسهولة عمّا هو أكثر قدماً.

وبالقدوم إلى هذه الأطلال، فإن أول شيء تقابله كومة صغيرة مستديرة من بناء جميعه من الرّخام. وهو محاط بأعمدة من النظام الكورنثي؛ جميل جداً ويدعم كورنيشاً يمتدّ حول جميع البناء وهو ليس بحالة عادية وجميلة. وهذا القسم الباقي

منه حالياً بحالة متضعضعة جداً، ولكن لا يزال اليونان يستعملونه ككنيسة؛ وكان من الأحسن لو أن خطر السّقوط، الذي يهدّد دائماً، استطاع جعل أولئك الناس يستعملوا حماسة أكبر في صلواتهم مما يقوموا به بصورة عامة؛ واليونان حسب الظاهر غير ورعين ومهملون كثيراً في صلاتهم اللاهوتية، وذلك أكثر من أي نوع من الناس في العالم المسيحي.

ومن هذا الأثر تصل إلى كومة كبيرة متماسكة لبناءٍ بالرّغم من أنه عالٍ جداً ومؤلف من أحجار كبيرة مربّعة، فإني مع ذلك أعتبره جزءاً من العمل المضاف منذ ذلك الحين؛ لأن المرء يرى في الدّاخل بعض الحطامات لصور في الجدران والأحجار مع أحرف رومانية موضوعة عليها بطريقة خاطئة. وعبر هذه الكومة فإنك تمرّ في ممشى أو رواق جليل مقبّب طوله مئة وخمسون خطوة، يقودك إلى المعبد.

والمعبد عبارة عن ساحة مستطيلة عرضها اثنان وثلاثون يارداً وطولها أربعة وستون يارداً، ومنها ثمانية عشر يارداً مأخوذة من قِبل الجهة المقابلة للمعبد والتي هي هابطة الآن؛ والأعمدة التي كانت تدعمها مكسّرة. وجسم المعبد القائم الآن محاط برواق فاخر مدعوم بأعمدة من النظام الكورنثي؛ وقياس محيط كل منها ستة أقدام وثلاثة إنشات وارتفاعه تقريباً حوالي خمسة وأربعين قدماً ويتألف كل منها من ثلاثة أحجار. وبُعد الأعمدة بعضها عن بعض وعن جدار المعبد عبارة عن تسعة أقدام. ويوجد من هذه الأعمدة أربعة عشر على كل جانب من المعبد وثمانية في نهايته، مع عدِّ أعمدة الزّوايا في كلٍ من العددين.

وعلى رؤوس الأعمدة تمتدّ هناك حولها كلياً عارضة جليلة وكورنيش منقوش بجمال، والرّواق مغطى بأحجار كبيرة مجوّفة على شكل أقواس تمتد بين الأعمدة وجدران المعبد. ومنقوش في وسط كل حجر رقم أحد الآلهة أو الآلهة الوثنية أو الأبطال. وغطاء كامل البناء محطّم كلياً، ولكن مع ذلك ينبغي أن أقول بالنسبة للجميع كما هي قائمة الآن، بأنها تؤثر على العقل بجو من العظمة يفوق أي شيء رأيته قبلاً في حياتي، وهو دليل واضح على عظمة الهندسة القديمة.

ويوجـد علـى بعد حوالي خمسـين يـارداً من المعبد صـفّ من الأعمـدة الكورنثية Corinthian وهـي عظيمـة وعالية جـداً؛ مع عارضـة وكورنيش جليليـن في الأعلى. وهذه تتكلم عن نفسـها بأنها كانت جزءاً من بناء كبير وجليل جداً، ولكن ما يراه المرء الآن منه هو مجرد كافٍ ليبعث الأسى بأنه لم يبق منه الكثير.

وتوجد هنا تحفة أخرى لهذا المكان حيث كان على الإنسان بأن يكون متأكداً تماماً مـن اعتقـاده، قبل أن يتجـرأ ويُحدّث لئلا ينبغـي أن يفكّر به بأن يُصفي امتياز المسـافر إلـى حـدّ بعيد. والذي أعنيه هنا قطعة كبيرة من الجـدار القديم الذي كان يحيط بجميع هـذه الأبنيـة الموصوفة أخيراً. وثلاثة مـن الأحجار التي كانت أكبر مـن الباقية تحمّلنا عناء قياسـها فوجدناها تمتد واحداً وسـتين يـارداً طولاً؛ أحدها واحد وعشـرون يارداً والآخـران كل منهمـا عشـرون يارداً، وكان عمـق كل منها أربع يـاردات وعرضه نفس القيـاس. وتقـع هـذه الأحجار الثّلاثـة في الصّـف الواحد نفسـه، نهاية لنهايـة. وباقي الجـدار مصنـوع أيضاً من أحجار كبيـرة، وأظن أنه لـم يكن أيّ منهـا كبيراً كهذه. وكان الذي أضاف إلى دهشتنا هو أن هذه الأحجار جرى رفعها إلى الجدار أكثر من عشرين قدماً من الأرض.

وعلى جانب ارتفاع بسيط على الجانب الشّرقي للمدينة كان يقع عمود مفرد قديم من النظام التوسـكاني ارتفاعه حوالي ثمانية عشـر أو تسـعة عشـر يـارداً ومحيطه يارد ونصـف. وعلى جانبه من الأسـفل إلى الأعلى، له قنـاة محفورة قدّرنا بأنها حُفرت من أجل رفع الماء.

* * *

لـدى رجوعنـا إلى خيامنـا كنا مرتبكين قليلاً مع خدّام المتسـلّم حول دفع رسـمنا. وأخيراً كنا مقتنعين بأن نحكم بعشرة للفرنجي وخمسة للخادم، عوضاً عن أن نخوض بنزاع طويل في مكان كهذا المكان.

وقـرب المكان الـذي أقمنا فيه كان يوجد مسـجد قديـم، ونافورة نفيسـة كما قلت

سـابقاً. وهذه الأخيرة قد جرى تجميلها قديمـاً ببعض الأعمال الحجرية حولها، وهي الآن خربة تقريباً.

الخميس 6 **مايو**: وغادرنـا بعلبك باكـراً في هـذا الصّبـاح متجهين باسـتقامةٍ عبر الـوادي. ولدى مرورنـا بجدران المدينـة لاحظنا أحجـاراً كثيرة مكتوبـاً عليها أحرف وأسـماء رومانيـة؛ ولكن كانـت جميعها مرتبكـة وبعضها مقلوبة؛ وهـذا يبيّن بأن مواد الجدران كانت جميعها من خرابات المدينة القديمة.

وخلال سـاعة واحدة مررنا بقرية تُدعى ايعات Yelad؛ وخلال سـاعة أخرى ذهبنا لنـرى عموداً تذكارياً كان يبعد قليلاً على الجهة اليمنى من الطّريق. كان ارتفاعه تسـعة عشـر يارداً ومحيطه خمسـة ياردات، وهو مـن النظام الكورنثي. وكان لـه لوحة كتابية على جانبه الشّمالي، ولكن الأحرف الآن ممسوحة تماماً. وخلال ساعة أخرى وصلنا الجانب الآخر للوادي، وذلك في أسفل جبال لبنان الشّرقية.

صعدنـا الجبل مباشـرة، ووصلنا خلال سـاعتين إلى تجويف كبيـر بين التلال وفي أسـفله كانت توجد بحيرة تُدعى باسـمها اليوناني القديم، اليمّونة Limone، ومسـاحة سـطحها حوالي سـتمئة يارد، وتنال مياهها من الثّلج الذائب. وكان أدلاؤنا يرغبون بأن نبقى كل الليل بجانب هذه البحيرة؛ وهم يؤكدون لنا بأننا إذا صعدنا لمسـافة أعلى في الجبال فسنكون مجبرين بأن ننام وسط الثّلج؛ ولكننا غامرنا بأن فضّلنا إقامة باردة على إقامـة غير صحيّـة. ووصلنا إلى الثّلج بعد صعودنا سـاعة واحدة؛ وتابعنا وسـط الثّلج لمدة تزيد عن سـاعة ونصف، ثمّ اخترنا مكاناً دافئاً بقدر ما اسـتطعنا أن نجد في منطقة عالية كهذه؛ وأقمنا هناك هذه الليلة على قمة جبل لبنان. وكان مشـوارنا الكلي في هذا اليوم لمدة سبع ساعات ونصف.

وجبـل لبنان فـي هذا الجزء خـالٍ من الصّخـور ويرتفع وينخفض فقـط بتموّجات صغيـرة وسـهلة وذلك لمـدة ركوب سـاعات متعددة؛ ولكنـه مجدب وقاحـل تماماً. والأرض حيـث كانت غير محجوبة بالثلج بدت بأنها مغطـاة بنوع من الألواح البيضاء الرّقيقة والناعمة. ومنفعتها الرّئيسـية هي أنها بارتفاعها البالغ تبرهن بأنها حافظة لوفرة

مـن الثّلـج الذي يذوب بحرارة الصّيـف ليقدّم إمدادات من المـاء للأنهار والينابيع في الوديان أدناه. ورأينا في الثّلج طبعات أقدام وحوش برية التي هي الأصحاب الوحيدين لهذه الأجزاء العالية من الجبال.

الجمعـة 7 مايو: وفي الصّباح التالي مشـينا لمدة أربع سـاعات بصـورة دائمة تقريباً علـى ثلج عميق، وبمـا أنه كان متجمداً فقد حمَلنا نحن وخيولنـا؛ ومن ثَم وبعد نزولنا لمدة حوالي سـاعة وصلنا إلى نبع يسـمّى على اسـم قرية مجاورة عين الحدّاد Ayn il Haddede. ووصلنا بهذا الوقت إلى منطقة أحسن وأكثر اعتدالاً.

وعنـد هـذا المـكان هنا ينبغـي لنـا أن نخرج عـن الطّريق لكـي نذهب إلـى قنّوبين Canobine والأرز. فذهب بعضنا حسـب هذا التّرتيب، بينما اختار الآخرون الذهاب مباشـرة إلى طرابلس؛ وللوصول إليها لم يكن لدينا الآن أكثر من أربع سـاعات. أخذنا معنـا دليـلاً تظاهر بأنه على معرفة جيدة بالطريق إلى قنّوبين؛ ولكنه برهن على أنه دليل جاهـل؛ وبعـد أن قادنـا في المنطقـة لعدة سـاعات في متاهـات معقدة وغيـر مطروقة بيـن الجبال وجدنـاه ضائعاً تماماً، واضطررنـا لترك زيارتنا المقصودة بالنسـبة للوقت الحاضر، وتوجهنا مباشـرة إلى طرابلس؛ حيث وصلنا متأخرين ليلاً. وجرى الاحتفاء بنا ثانية من قِبل أصدقائنا الجديرين القنصل مسـتر هيسـتينغز Hastings ومسـتر فيشـر Fisher بصدقاتهما وكرمهما المعتادين.

السـبت 8 مايـو: بعد الظهر أخذَنا السّـيد القنصـل هيسـتينغز Hastings لنرى قلعة طرابلـس. وهـي واقعة بصورة مبهجة على تلـة تطل على المدينة؛ ولكـن لم يكن فيها أسلحة ولا ذخيرة، وهي تخدم نوعاً ما كسجن وليس كحصن عسكري. وكان محبوساً فيها في هذا الوقت سجينٌ مسيحي فقير يُدعى الشيخ يونس. وهو ماروني، وكان شخصاً قد ترك دينه سابقاً وعاش لمدة سنوات كثيرة في الدّيانة المحمّدية (الإسلامية)؛ ولكن لدى تقدّمه في السّـن عاد فسـحب ارتـداده عن الإيمان ومات ليكفّـر عن ذلك؛ حيث خوزق بأمر من الباشا بعد يومين من مغادرتنا طرابلس.

تنفّـذ عقوبـة الخوازيق هذه بصورة شـائعة بين الأتـراك لجرائم مـن الدّرجة العليا؛

وهـي بالتأكيد إحدى أكبـر الفظائع والوحشـيّة التي يمكن أن تقدّم للطبيعة الإنسـانية. ويجري الإعدام بهذه الطّريقة: يأخذون عموداً ثخنه حوالي ثخن ساق الإنسان وطوله ثمانيـة أو تسـعة أقدام ويجعلونـه مدبباً وحاداً جـداً في إحدى نهايتيـه، ويضعونه على ظهـر المجرم، ويجبرونه على حمله إلى مكان الإعـدام، وذلك تقليداً للعادة الرّومانية التي تُجبر المجرمين على حمل صليبهم. ولدى الوصول إلى المكان المميت يدخلون العمود في دُبُر الشّخص المُدان التعيس بهذا الهلاك. ثم يمسكونه من ساقيه ويسحبون جسـمه عليه حتى يظهـر رأس العمود عند كتفيـه. وبعد ذلك يقيمـون العمود ويثبتونه فـي حفـرة حُفِرت فـي الأرض. وبجلوس المجـرم عليه في هذا الوضع فـلا يبقى حياً فقـط بل ويشـرب ويدخّن ويتكلم كشـخص واعٍ تماماً، حتى أن البعـض قد لبثوا المدة أربع وعشـرين سـاعة. ولكن بصورة عامة بعد أنّ يبقى الشّقي المعذّب في هذه الحالة المؤسـفة والمشينة لمدة ساعة أو ساعتين يُسمح لأحد المتفرجين بأن يسدّد إليه طعنة الرّحمة في قلبه، وهكذا يضع نهاية لتعاسته التي لا توصف.

الأحـد 9 مايو: ليأسـنا من أيّـة فرصة أخرى، قمت بمحاولة أخـرى هذا اليوم لأرى الأرز وقنّوبين Canobine. وبذهابي لمدة ثلاث سـاعات عبر سـهل طرابلس وصلت إلى أسـفل جبل لبنان؛ ومن هناك وبصعودي بصورة مسـتمرة، لم يكن بغير تعب كبير؛ وصلـت خـلال أربع سـاعات ونصف إلـى قرية صغيـرة تُدعى إهـدِن Eden، وخلال ساعتين ونصف إضافيتين وصلت إلى الأرز.

تنمو الأشجار الفخيمة وسط الثّلج قرب القسم الأعلى من جبل لبنان؛ وهي جديرة بالملاحظة أيضاً لعمرها وكبرها، وذلك حسـب تلك الشـذرات الواردة عنها في كلمة اللـه. وبعضهـا قديمـة جداً وذات جسـم هائـل؛ وأخريـات أفتى وذات حجـم أصغر. وبالنسـبة للأوليات اسـتطعت أن أعدّ ست عشـرة فقط، ولكن الأخريات عديدة جداً. قمت بقياس واحدة من الكبريات فوجدت محيطها اثني عشـر ياردًا وسـتة إنشات ولا تزال سـليمة؛ وامتداد أغصانها يبلغ سـبعاً وثلاثين ياردًا. وعلـى ارتفاع حوالي خمسـة أو سـتة ياردات من الأرض كانت مقسّـمة إلى خمسة فروع حيث كان كل منها

يساوي شجرة كبيرة.

وبعد حوالي نصف ساعة قضيناها بمسح هذا المكان، بدأت الغيوم تتكاثف وتتطاير علـى طـول الأرض؛ بحيث جعلت الطّريـق غامضاً، وكان دليلي عاجـزاً للغاية عن أن يجد طريق عودتنا ثانية. فتجوّلنا لمدة حوالي سبع ساعات وكنا حيارى، وهذا أصابني بخـوف غير قليل بأن أُجبـر لقضاء ليلة أخرى في جبل لبنان. ولكن أخيراً وبعد مكابدة طويلـة من الآلام و الصّبر وصلنا إلـى الطّريق الذي يصل إلى قنّوبين؛ لكن الوقت كان ظلاماً، وتلقيت استقبالاً لطيفاً مواتياً للحاجة الكبيرة التي كانت لديّ بعد إرهاق طويل.

أمّا دير قنّوبين فهو دير للموارنة ومجلس البطريرك الذي هو الآن الأب اسطفانوس الإهدني[1] F. Stephanous Edenensis، وهو شخص ذو علم وإنسانية كبيرين. وبناء الدّير بسـيط جداً، لكن مركزه جدّ ملائم للخلوة والعبادة؛ لأنه يوجد شـرخ عميق جداً على جانب جبل لبنان يمتد على الأقل سـفر سـبع ساعات مباشرة لأعلى الجبل. وهو علـى الجانبين منحـدر للغاية وعالٍ، ومغطى بخضرة عطرة من الأعلى حتى الأسـفل، وهـو منتعش فـي كل مكان بالينابيع النازلـة من بين الصّخور بمسـاقط ماء مبهجة؛ من عمل الطّبيعة البارع. وتتجمّع هذه الجداول كلها في الأسفل لتؤلف تياراً سريعاً يُسمع خريره الممتع في كل الأنحاء فيضيف إليها رونقاً ليس بالقليل.

يقـع دير قنّوبين على الجانب الشّـمالي لهذا الشّـق على انحـدار الجبل، وذلك في حوالـي المنتصـف بين الأعلى والأسـفل. وهو يقع على مدخل كهـف كبير وله بضعة غـرف صغيـرة تتجه نحو الخارج بحيث تتمتع بنور الشّـمس؛ والغـرف الباقية جميعها تحت الأرض. وكان مؤسّسـه الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius الكبير، وبالرّغم مـن أنـه قد أُعيد بناؤه عدة مـرات، فمع ذلك أكّد لي البطريرك بأن الدّير كان ذا أسـاس بدائي. ولكن أياً كان الذي بناه فإنه بناء بسـيط، ولا يُضفي على مؤسّسـه أيّ فخر كبير. إنـه يقـع في الكهف ولكن باتجاهه نحـو الخارج يتلقى نوراً ضئيـلاً من ذلك الجانب.

---

(1) هو البطريرك اسطفان الدّويهي الإهدني ذائع الصيت في تاريخ لبنان، (1670-1704)، يصفه الموارنة بالكبير، كان مؤرخاً بارعاً وحبراً علاّمة.

وفي نفس الجانب كان يوجد أيضاً جرسان صغيران معلقان على الجدار لنداء الرّهبان لصلواتهم؛ وهي مزيّة غير مسموح بها في أي مكان آخر في هذا البلد؛ ولا يُطبّق عليهما هنا الحظر لأن الأتراك بعيدون بشكل كافٍ بأن يسمعوهما.

كان وادي قنّوبين قديماً، كما يستحق تماماً، يتمّ اللجوء إليه كثيراً جداً للعزلة الدّينية. وما زلت ترى هنا صوامعَ وأكواخاً وأديرةً يكاد لا ينالها عدّ ولا حصر. ولا يوجد أيّ جزء صغير من الصّخر يبرز على جانب الجبل إلا وترى بصورة عامة بعض البناء الصّغير عليه، وذلك لاستقبال الرّهبان والنسّاك؛ بالرّغم من أن بعضها فقط أو ولا واحد منها مسكون الآن.

الإثنين 10 مايو: استأذنت بعد العشاء من البطريرك ورجعت إلى طرابلس. اتّخذت طريقي نزولاً في ممرّ مائل ضيق محفور بجانب الكسر، ووجدته استغرق ثلاث ساعات حتى تخلصت من الجبل، وثلاث ساعات أخرى فيما بعد قبل أن أصل إلى طرابلس.

الثلاثاء 11 مايو: وفي هذا اليوم استأذنا من أصدقائنا الطّرابلسيين الأفاضل، لكي نعود إلى حلب. وتناقشنا بين بعضنا فيما إذا كان ينبغي لنا أن نأخذ نفس الطّريق الذي أخذناه لدى مجيئنا، أو أن نأخذ طريقاً جديداً عبر حمص Emissa أو Hempse وحماة Hamal. ولكننا علمنا ببعض الشّغب في هذا الطّريق الأخير، وهكذا أقنعنا أنفسنا بالعودة في نفس الطّريق الذي أتينا منه؛ حيث أخذنا حتى هذا الوقت الكفاية من كل من متعة السّفر ووعثائه، وكنا نريد أن نضع نهاية لكليهما، بالطريقة الأقرب والأسرع. وكل الذي لفت نظرنا مجدداً في أيام السّفر هذه، كانت تلك الطّريقة الغريبة التي يستعملها الرّيفيون لجمع حنطتهم؛ حيث كان الآن وقت الحصاد. فقد راحوا يقتلعونه بملء أيديهم من الجذور؛ تاركين الحقول المثمرة عارية جداً كما لو أنها لم يُزرع فيها شيء من قبل. كانت هذه طريقتهم في جميع أماكن الشّرق التي رأيتها؛ والسّبب في ذلك هو لئلا يفقدوا شيئاً من تِبنهم الذي هو بصورة عامة قصير جداً وضروري لقوت أبقارهم؛ وهم هنا لا يصنعون العشب المجفف. إنني أذكر هذا الشّيء لأنه كما يبدو

يقدّم تفسيراً لذلك التعبير لمنشئ المزامير «الذي يذبل قبل قطافه» (مزامير داود، 79: 6) حيث لم تكن الإشارة واضحة لهذه العادة.

ولذلك، فبرجوعنا بطريقنا السّابق لم نلاحظ أي تغيير أو حدث، ووصلنا خلال ثماني ساعات إلى خان العسل؛ الذي وجدنا فيه كثيراً من أصدقائنا الحلبيين الذين لما سمعوا باتجاهنا نحو مكان إقامتنا أتوا لملاقاتنا والترحيب بنا في بيتنا. وبعد أن تناولنا العشاء سوية وهنّأنا بعضنا البعض بجمع الشّمل السّعيد توجهنا في ذاك المساء إلى حلب.

وهكذا برحمة الله وحمايته اللامتناهية قد جرت إعادتنا جميعاً بأمان إلى مساكننا الخاصة بنا. وهنا وقبل أن أختم، لا يسعني إلا أن ألاحظ شيئاً آخر ينبغي لي أن أوصي به بنزاهة للتذكر المخلص والممتن لكل شخص اشترك في هذه الحجّة. أيّ أن من بين مجموعة كبيرة كما كنا، وسط كثرة كهذه من الأخطار والحوادث، وتنوّع كهذا من الأطعمة والأجواء والمساكن، التي في غالبيّة الوقت لم تكن من الأحسن، لا يوجد واحد منا أصيب بأيّ عارض مرضي خلال أسفارنا كلها؛ غير أن واحداً سقط مريضاً بنتائج الرّحلة بعد عودتنا. وهذا ما أعتبره التخفيض الأقل لرحمة غريبة جداً بخصوص أن من بين كثير جداً من أصدقائي الأعزاء وزملائي المسافرين حدث بأن يكون من نزيبي أن أكون أنا المصاب.

المجد لله

ملحق

بما أن الكتاب كان قد جرى طبعه فإن الرّسالتين التاليتين المتعلقتين بنفس الموضوع، قد جرى إيصالهما من قِبل السّيد أوزبورن المحترم عضو كلية إكستر Exeter College؛ إلى الذي كانتا مرسلتين إليه من قِبل المؤلف، جواباً على بعض الأسئلة المقترحة من قِبله.

سيدي،

استلمت كتابك المؤرّخ في 27 يونيو 1698، وأعدت إليك جواباً عليه باختصار منذ حوالي ثلاثة أشهر؛ واعداً بأن أقدّم ما كان مطلوباً عندئذ لدى فرصة أخرى؛ وسأحقق هذا الوعد الآن. لقد رغبتَ بمقال عن الأتراك وعن الطّريقة التي عشنا فيها بينهم. بالنسبة للشقّ الأول عن الأتراك فإن ذلك يملأ مجلداً لأكتب أفكاري كاملة عنهم.

وسأخبرك الآن فقط بأنني أفكّر بأنهم بعيدون جداً عن تلك الصّفة التي تُعطى عنهم في المسيحية؛ وخاصة بالنسبة لعدلهم الصّارم واستقامتهم والفضائل الأخلاقية الأخرى؛ وبالتحدث عنها فإنني سمعتهم أحياناً يذكرون ذلك بثناء مسرف جداً؛ وبأنهم تجاوزوا كثيراً الأمم المسيحية. لكنني يجب أن أعترف بنفسي بفكرة أخرى عن الدّيانة المسيحية، وكم نحن نعيش أدنى من الرّوح الحقيقية لها ولسموها. ولا يزال يجب أن يُسمح لنا بأن نكتشف قوة كثيرة حول أفكار أساتذتها، بحيث نرفعها أعلى بكثير من مستوى الفضيلة التركية.

إنه الحدّ الأعلى الذي غالباً ما سمعته من تجارنا وذلك بأن التركي يغشّ دائماً عندما يستطيع أن يجد فرصة لذلك. وإنّ الصّداقة والكرم والفهم، حسب الفكرة الإنكليزية،

والحديث البهيج وكل صفات الرّوح الصّافية والمخلصة، كلها غريبة لعقولهم؛ غير أنهم في التجارة والتعاملات الدّنيوية شديدون إلى حدّ كافٍ؛ وهم قادرون على أن يقوموا بحسابات تجارة كبيرة برؤوسهم دون مساعدة الدّفاتر، وذلك بحسابات طبيعية محسّنة بالعادة والضرورة.

ودينهم مهيّأ للحفاظ على تُقى وخشوع خارجي كبير دون انتاج أقل لون جيد من الحكمة أو الفضيلة في فكرهم. وسوف تراهم في ساعات صلاتهم، التي هي دائماً أربع مرات يومياً، عاكفين على عباداتهم بالوضوء الموقّر والرّفيع دائماً في الأماكن العامة جداً حيث يمرّ كثير من الناس؛ وبركوعهم وسجودهم الوديع والمنتظم وبصوت منخفض؛ وهي فيما بينهم عماد صلاتهم، رأيتهم في صدقة مصطنعة حيث يعطون المال لماسكي الطّيور التي يتاجرون بها، ليعيدوا الطّيور الأسرى المسكينة إلى حريتها الطّبيعية، وبنفس الوقت يحتفظون بعبيدهم في أقصى حدود العبودية. وفي أوقات أخرى يشترون اللحم لإغاثة الكلاب والقطط البائسة؛ ومع ذلك يشتمونك بالمجاعة والوباء وجميع الشّتائم القبيحة جداً.

وعلى ذلك، فإن هذه الأمم المشرقية لديها بالتأكيد أروع فصاحة من أي شعب على وجه الأرض، وهم نادراً ما يعرفون أي سرور سوى ذلك العائد للحاسة السّادسة. ومع ذلك كله فإنهم فخورون بصورة لا تصدّق بديانتهم الخاصة بهم. والشّيء الذي استطعت أن ألاحظه لصالحهم هو الحشمة الظاهرية لتصرفاتهم، والاحترام العميق الذي يولونه إلى الدّين وإلى كل شيء يتعلق به، وعفافهم وتوفيرهم الكبيرين. فإن غلاء أي شيء لا يجعله سبباً في تركية لأن يكون زيّاً رائجاً، بالرّغم من أن الأمر كذلك في إنكلترا.

أما بالنسبة لعيشنا بينهم فإنه كان بكل الهدوء الممكن والأمان، وهذا كله ما نرغبه، ولكن محادثتهم كانت غير مسلية مطلقاً. وابتهاجنا كان فيما بيننا؛ وكنا هنا أكثر من أربعين. وهنا لا تعوزنا أبداً محادثة أكثر ودية وسروراً. إن طريقة حياتنا هنا تشبه إلى حدّ ما الحياة الجامعيّة، فنحن نعيش في ساحات منفصلة تُغلق كل ليلة وفق طريقة

الكلّيات. نبدأ النهار دائماً، كما تفعلون أنتم، بالصّلوات؛ ولدينا أوقاتنا المحددة للأعمال ووجبات الطّعام والترفيه. وفي الشّتاء نذهب للصّيد مرتين في الأسبوع؛ بحملة بهيجة جداً. ونذهب في الصّيف غالباً إلى خيامنا لنسلّي أنفسنا بها، وذلك بلعب الكرات وتمارين أخرى؛ وهكذا كما ترى فإننا لا تنقصنا التسالي، وهي جميعها بريئة وجديرة بالرّجال. وباختصار فإن رأيي الحقيقي بأنه لا يوجد مجتمع خارج إنكلترا بالنسبة لجميع الصّفات الجيدة والمرغوب بها، يمكن مقارنته بهذا. ولكن كفى من هذا الارتباك الذي كان بإمكاني أن أقصده وأضعه بنظام أحسن فيما إذا كان لديّ الوقت.

***

سيدي

أما بالنسبة لأسئلتك حول ذُرّية «جيحزي» Gehazi، فإن لدي القليل للإجابة؛ ولكن مع ذلك آمل بشكل كاف بأن أرضيك أنت وصديقك. عندما كنت في الأرض المقدّسة رأيت عدة أشخاص كانوا يشتغلون لدى سماحة أخلاف «جيحزي»، ولكن ولا واحد منهم استطاع أن يتظاهر باستنتاج نسبه من ذلك الشّخص. وكان بعضهم فقيراً بشكل كافٍ لأن يكونوا أقرباءه. خاصة في شكيم Sechem التي تسمّى الآن نابلس Naplosu، وكان يوجد ما لا يقل عن عشرة (نفس الرّقم الذي جرى تطهره من قِبل مخلّصنا غير بعيد من نفس المكان) أتوا يتسولون منا مرةً ما.

وكانت طريقتهم بأن يأتوا بسطول صغيرة في أيديهم ليتلقوا صدقات المحسنين؛ إن لمستهم لا تزال تعتبر معدية، أو على الأقل نظيفة. والجُذام كما رأيته فيهم مختلف جداً عن ما رأيته في إنكلترا. حيث أنه ليس فقط يدنّس كامل سطح الجسم بقشرة قذرة ولكنه يشوّه أيضاً شكل مفاصل الجسم وخاصة المعاصم والكواحل؛ بحيث يجعلها منتفخة مع مادة نقرسية قبيحة المنظر جداً. وفكرت بأن سيقانهم كانت تشبه سيقان الخيول المضروبة العجوزة كما يُرى غالباً في العربات في إنكلترا. إن الجُذام كما ظهر حقاً هناك كريه جداً بحيث يمكن أن يؤدّي تماماً للإفساد الكامل للجسم البشري

وعلى هذا الجانب من القبر. وبالتأكيد فإن الكتّاب الملهمين لم يستطيعوا أن يكتشفوا رمزاً أنسب حيث يعبّرون عن عدم النظافة وشناعة القباحة.

ولكن لنعُد إلى جيحزي Gehazi؛ فإنه لا عجب فيما إذا أضحت ذرّيته مع الزّمن متلاشية، مع رؤية أحسن اليهود في هذا الوقت من النهار فإنهم عاجزون عن اكتشاف أنسابهم. ولكن فوق ذلك فإني لا أرى ضرورة في الكتاب المقدّس بالنسبة لسلالته بأن تكون أبدية. إن عبارة «الأبديّ» تؤخذ كما تعلمون غالباً بمعنى محدود في الكتاب المقدّس والتي منها ميثاق أسرة فنحاس Phineas بالكهنوت (سفر العدد، 25: 13) التي يمكن أن تفيد كمثال. وكانت ذرّيته كما تعلمون منقطعة كلياً عن الكهنوتية، وقد جرى تحويل ذلك إلى إيلي Eli، الذي كان من ذريّة نسب آخر بعد حوالي ثلاثمئة سنة.

* * *

وصف
لرحلة المؤلف
من
حلب إلى نهر الفرات، ومدينة بيره جيك
وإلى بلاد الرّافدين Mesopotamia

انطلقنا من حلب في 17 أبريل 1699، متجهين صوب الشمال الشرقي بشرق، نوعاً ما أقل، ووصلنا خلال ثلاث ساعات ونصف إلى سرباس[1] Surbass.

الثلاثاء 18 أبريل: وصلنا خلال ثلاث ساعات ونصف إلى بزاعة Bezay، مارّين بالباب Bab حيث توجد قناة وادي الذّهب Dyn il Daab (منطقة دهب) التي تنزل إليها بحوالي ثلاثين درجة، وتادف Lediff، وهي قرية نضرة. وهكذا كان طريقنا بعيداً نحو الشّرق والشّمال. وتقدمنا بعد الظهر ثلاث ساعات أبعد، وكان طريقنا صوب الشمال الشرقي، إلى مكان قديم خرب، كان سابقاً له بعض الشأن، يُدعى عجمي[2] Acamy؛ وهو يقع في البادية على تلّ محاط بوادٍ؛ وكان كبيراً وعليه آثار فيها بعض التناسق، وجدران وأبنية الجيدة.

---

(1) كذا بالأصل، والواضح أنه يعني سرجة إلى الجنوب الغربي من تادف، شمال غربي حلب.
(2) يقع إلى الشمال الشرقي من بزاعة.

الأربعاء 19 أبريل: ذهبنا شرقاً وشمالاً، وخلال أربع ساعات وصلنا إلى منبج Bambych. إن هذا المكان ليس له بقايا من عظمته القديمة سوى جدرانه، التي يمكن تتبعها حول كل المكان، ولا يمكن أن يكون محيطها أقل من ثلاثة أميال. لا تزال بضع قطع منها باقية على الجانب الشّرقي. وخاصة لدى البوّابة الشّرقية؛ وقطعة أخرى طولها ثمانون ياردا، مع أبراج ذات حجر كبير مربع وهي مبنية بصورة جيدة للغاية.

ويوجد على الجانب الغربي حفرة عميقة محيطها حوالي مئة يارد. كانت منخفضة ولم يكن فيها ماء، وبدت بأنها كانت في جميع أنحائها أبنية كبيرة، وأعمدتها وأطلالها مطمورة الآن جزئياً؛ ولكن ليس كثيراً حيث كان لا يزال فيها بعض الماء. وتوجد هنا كثرة من الأقنية تحت الأرضية التي جُلبت إلى هذه المدينة؛ وقد شهد الناس بأنها ليست بأقل من خمسين. ولا يمكنك الرّكوب في مكان حول المدينة دون أن تراها. وجدنا واحدة على بُعد حوالي ربع ميل شرق المدينة، تعطي جدولاً ظريفاً؛ يتضوّع إلى وادٍ فيسقيه ويجعله مثمراً للغاية. وربما كانت هنا مراعي الحيوانات المهيأة للأضاحي. ولا يوجد هنا الآن سوى بضعة سكان فقراء، بالرّغم من أن كامل الجانب الشّمالي كان مسكوناً قديماً بشكل جيد من قِبل الأعراب، كما يمكن رؤيته من آثار مسجد جليل وحمّام خارج الأسوار بمسافة صغيرة. وجرت زيارتنا هنا من قِبل مجموعة من البغدلي[1] Begdelies الذين كانوا يخيّمون أبعد ببضع ساعات نحو نهر الفرات، وكان لديهم هناك حوالي ألف حصان.

الخميس 20 أبريل: لتجنب البغدلي Bagdelies استأجرنا دليلاً قادنا إلى طريق فرعي. سافرنا شمالاً وشمالاً شرقياً على متن أرض صحراوية، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى ساقية تسمى السّاجور Sejour تصبّ في نهر الفرات، وذلك بعد حوالي ثلاث ساعات من جرابلس Jerablous. ووصلنا بعد حوالي ساعتين إلى سهل مثمر ظريف مغطى بحنطة رائعة. وهو يقع بين التلال ونهر الفرات. وبعد سفر حوالي ساعة ونصف عبر هذا السّهل على ضفاف النهر وصلنا إلى جرابلس Jerabolus. وهذا

---

(1) البغدلي قبيلة تركمانيّة أسكنها العثمانيون بعد عام 1690 في منطقة الرّقة ونواحي حلب وعنتاب.

المكان ذو شكل نصف دائري، ويقع جانبه المسطح على ضفاف نهر الفرات؛ وعلى ذلك الجانب له جبل عالٍ وطويل ومنحدر جداً وهو قريب من الماء. وكان قديماً يُبنى عليه، ورأيت لدى أحد جانبيه قطعاً كبيرة جداً محيطها يارد ونصف، وتيجان أعمدة وكورنيشات منقوشة جيداً. وعند أسفل الجبل نُقش على حجر كبير وحشٌ يشبه الأسد وفي فمه لجام، وأعتقد بأنه كان في القديم رجلٌ يمتطيه.

وحول هذا المكان توجد ضفاف عالية قائمة، وتوجد آثار جدران عليها، وتبدو البوابات بأنها كانت قد جرى بناؤها بصورة جيدة؛ وكان محيطها كلها 2250 خطوة أي يارداً. والنهر هنا كبير بقدر نهر التّايمز Thames في لندن؛ ولا تستطيع بندقية طلقات طويلة أن تطلق طلقة فوقه حيث أنها تسقط في الماء. ويوجد هنا ثعبان كبير له قوائم ومخالب يسمّى الورل Woralla. ولقد أخبرني تركي بأنه تحت هذا المكان بقليل، عندما يكون النهر منخفضاً، يمكن رؤية آثار جسر حجري فوق النهر؛ ولكن بالنسبة لي فإنني لم أره، وأنا لا أعتمد كثيراً على صدق الأتراك. وقد ظهر النهر بأنه قد نزل مؤخراً فجأة جداً، لأن الضفاف كانت مبللة من جديد، وذلك بارتفاع ياردين وأكثر فوق الماء. وكان هنا شمالاً وجنوباً.

الجمعة 21 أبريل: بقينا قريبين من ضفاف نهر الفرات، وخلال ساعتين ونصف قطعنا نهراً صغيراً ظريفاً يسمّى توزاد Towzad؛ ووصلنا بعد ساعتين أخريين إلى بيره جيك Beer، وضربنا خيامنا على أرض منبسطة قريبة من جانب النهر.

السبت 22 أبريل: تابعنا في محطتنا لا نجرؤ على أن نخترق النهر، لخوفنا من أن نقع بأيدي رجال باشا أورفة Urfa الذي كان آنئذ في بيره جيك Beer يأمر مراكب حنطة كثيرة بالنزول إلى بغداد. وبنفس الوقت كنا مزوّدين بإمدادات من قِبل الشّيخ حسين Scheck Assyne الذي عدنا إليه مراراً.

الأحد 23 أبريل: كان الشّيعة قد غادروا الآن، ودعانا الشّيخ حسين إلى بيره جيك Beer؛ حيث اخترقنا في مركب ريفي لديهم منه الكثير جداً، وكان هذا المرور الكبير إلى منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات. والمراكب ذات بناء تعيس، وهي منبسطة

ومفتوحـة مـن القسـم الأمامي لدخـول الخيول؛ وكانـت المراكب كبيرة بشـكل كافٍ ليحمـل كل منهـا حوالـي أربعـة خيـول. وطريقتهم للعبـور هي بسـحب المركب إلى الأعلـى بارتفـاع بقدر مـا يعرفونه ضروريـاً، ثم يضربونـه بمجاذيف زريّة فيسـقط إلى الأسفل بمجال جيد وذلك بقوة النهر قبل أن يصلوا إلى الجانب الأبعد.

وبعد أن حيّينا حسيناً جرى توجيهنا لرؤية القلعة؛ التي هي عبارة عن بناء كبير وقديم علـى رأس صخرة كبيرة طويلة، وهو مفصول بخليـج كبير أو قاع طبيعي عن الأرض. أتينـا أولاً خـلال البوابـات التي هي مـن الحديد، ورأينـا عدّة كرات كبيـرة من الحجر قطرها حوالي عشـرين إنشـاً؛ كما رأينا أعمدة كبيرة من الحديد مع عجلات (دواليب) كانـت كتلاً كاملة من الخشـب ثخنها قدمان فـي مركز العجلة. ومقطوعـة نوعاً ما إلى الحافـة نحو المحيط؛ ولوالب (براغـي) لربط الأقواس والمحركات، وأيضاً عدة قطع حقلية نحاسية.

وبالصّعـود علـى جوانـب الصّخرة بواسـطة طريق محفور بشـكل مائـل تصل إلى القلعة. وفي المدخل الأول تجد طريقاً محفوراً تحت الأرض نزولاً إلى النهر. وكانت الأشـياء الرّئيسـية التـي رأيناها فـي القلعـة، أولاً غرفة كبيـرة مملوءة بأسـلحة قديمة؛ ورأيـت هناك قوارير زجاجية لإطلاق الأسـهم عليها؛ كانت واحدة منها مثبتة في نهاية سـهم، وعلى جوانبها أربع قطع من التنك للحفاظ عليها ثابتة، وأقواس زنبرك[1] كبيرة وواسـعة، وألواح خشـبية مصمّمة حسـب الظاهـر للمناجيق؛ وسـروج رومانية وقطع للـرأس ذات قياس كبير، وكان بعضهـا مدهوناً؛ وبعض القدد الجلديـة الكبيرة لأوتار الأقـواس، وأكياس لأحجار المقـلاع. ولكن غيرة الأتراك لم تسـمح لنا بأن نبقى وقتاً طويلاً كما كان مطلوباً لإجراء فحص متقن لهذه القطع الأثريّة.

رجعنا من القلعة إلى حسـين وعوملنا بلطف. وصعدنا في المسـاء إلى ريف ما بين النهريـن[2] Mesopotamia. والتلال منحدرة وحوّارية؛ وتقترب من جانب الماء دون

---

(1) بالإنكليزية: crossbow أي القوس الصغير الذي يتم توتيره بعتلة مثبتة به.

(2) يقصد هنا كيليكيا إلى الشمال من سوريا.

تداخل بسيط، حيث الأنهار على جانب سورية؛ وهكذا فإن بيره جيك Beer تقع على جانب تلة. على كل حال فإن فيها زوجاً من الجداول الظريفة التي تجري فوق أعلى التلة؛ ويشغّل أحدها طاحونتين، وهكذا يجري نزولاً إلى المدينة التي هي مسوّرة بشكل حسن. ويوجد في جانب التلة خان تحت الأرض، محفور في الصّخر مع خمسة عشر عموداً كبيراً قائماً لتدعيم سقفه.

الإثنين 24 أبريل: غادرنا بيره جيك Beer مسافرين غرباً، ووصلنا خلال ثلاث ساعات إلى نزيب Nizib، وهي مكان يقع بموضع حسن على رأس نهر توزاد Towzad. وتوجد هنا كنيسة قديمة وصغيرة، قوية جداً وكاملة؛ والقبّة فقط في وسط الصّليب محطمة، وساحتها مغطاة بالأوراق لتناسب المكان لمسجد. وأعتقد بأن الأتراك قد جعلوا الأماكن التي يلجأون إليها للصلاة فجوات فارغة ليُبينوا بأنهم يعبدون إلهاً واحداً غير مرئي بحيث لا يُمثل بالصّور. ووصلنا خلال ساعتين من نزيب Nizib إلى قرية مسيحية جيدة تسمى يحمور Uwur، كما وصلنا بعد ساعة ونصف إلى بئر في الصّحراء.

الثلاثاء 25 أبريل: سافرنا غرباً تقريباً لمدة ساعتين، ووصلنا خلال ريف لطيف منوّع بتلال صغيرة ووديان إلى قرية تدعى أدجا[1] Adja، وذلك بعد مغادرتنا سلامة Silam وقريتين أخريين على الجانب الأيمن. وفي أدجا ينبع مباشرة نهر حلب من نهر كبير. وفوقه تماماً يجري نهر السّاجور Sejour الذي يمكن أن يُسمح له إليه بفاصل قصير يبلغ عشر ياردات. ومن أدجا كان اتجاهنا غرباً شمالاً غرباً. وضفاف نهر السّاجور مزروعة بشكل حسن بالأشجار والقرى. وخلال ساعتين قصيرتين وصلنا إلى عنتاب Antab، وقطعنا نهر السّاجور عند جسر قبل حوالي ثلاثة أرباع السّاعة. غادرنا المدينة على الجانب الأيمن ومررنا تحت جدرانها، وضربنا خيامنا في حقل سهل على ضفاف نهر السّاجور.

تقع معظم عنتاب على تلة، ولها قلعة على جبل مستدير على جانبها الشّمالي يشبه

(1) أظنه يعني اليجي إلى الشمال من شران بمنطقة عفرين.

تماماً ذلك العائد لحلب، بالرّغم من أنه أقل بكثير. ولها خندق عميق جداً حولها؛ وفي أسفل الجبل وضمن الخندق يوجد رواق محفور عبر الصّخر حول القلعة كافة، مع فتحات إطلاق؛ وهو محاط بجدران حجرية حيث لم يكن الصّخر قوياً بشكل كافٍ. والبيوت بصورة عامة ليس لها غرف علوية؛ والأسواق كبيرة. رأيت هنا حجراً ظريفاً يشبه كثيراً جداً الرّخام السّماقي لون أرضيته حمراء مع نقاط وعروق صفراء ولماع جداً. وهو يُجلب بالقرب من عنتاب تماماً.

وعنتاب دون شك هي مدينة أنطاكية القديمة[1] Antioch تحت جبل طوروس Taurus حيث تقع في أنحائه، وليست بعيدة من أعلى مرتفَع؛ ويبلغ حجمها حوالي ثلثي مدينة حلب.

الأربعاء 26 أبريل: مررنا عبر ريف مثمر جبلي، ووصلنا خلال سبع ساعات إلى قلعة راوند Rowant. وهي تقع على رأس تلة منحدرة ومستديرة، وكانت حصينة بالنسبة للأزمنة التي بُنيت فيها. ومن المحتمل بأنها بناء إسلامي وهي الآن خربة. وفي أسفل التلة نحو الغرب يجري نهر عفرين Ephreen؛ ومجراه نحو الجنوب والجنوب الغربي. وطريقنا من عنتاب إلى راوند Rowant كان شمالاً غرباً نحو الشّمال.

الخميس 27 أبريل: تابعنا سفرنا عبر الجبال التي كانت الآن إلى حدّ ما أكثر انحداراً وغير مستوية، ولكنها تسقى في كل مكان بينابيع ظريفة وأنهار صغيرة. ووصلنا خلال ست ساعات إلى قورس[2] Corus؛ وكان طريقنا جنوباً غرباً بعد أن قطعنا نهر عفرين قبل حوالي ثلثي السّاعة. وتماماً عند قورس يوجد نهر سابون[3] Sabon أي كور Chor أو كار Char الذي يحيط بالقسم الأكبر من المدينة.

---

(1) هذا غلط فادح، فلا علاقة بين عنتاب وأنطاكية، ومن الغريب أن موندرل على الرّغم من إقامته بحلب لم يسمع في عصره بوجود هذه المدينة العريقة أنطاكية.

(2) مدينة كانت ذات أهميّة كبيرة في عصور السّلوقيين والبيزنطيين والصّليبيين، واسمها القديم: Cyrrhus وكان لها شأن بأول انتشار المسيحيّة. تقع إلى أقصى الشمال الشرقي من منطقة عفرين، وتسمّى اليوم: النبي هوري.

(3) نهر سابون (أو صافون بالكنعانية ويعني: الشمال) رافد لنهر عفرين.

وتقع قورس على تلة تتألف من المدينة والقلعة[1]. وتقع المدينة شمالاً؛ وترتفع من نهايتها الشّمالية حتى تصل أخيراً إلى تلة أعلى نحو الجنوب وعليها تقع القلعة. وكلها الآن خربة حيث تبدو بأنها كانت كبيرة جداً، وهي محاطة بقوة كبرى بسور ذي أحجار ضخمة مربعة. ومن الملاحظ في الدّاخل الأطلال والأعمدة إلخ، لكثير من الأبنية الجليلة. وتوجد على الجانب الغربي مساحة مربعة ذات سعة كبيرة، محاطة بجدران جيدة، وخمس بوابات داخلة فيها؛ كما يمكن للمرء أن يرى بأطلالها. وقد خمّنتُ بأنه من الممكن أن تكون الكاتدرائية. وفوق بوّابة القلعة توجد بعض الكتابات القديمة.

ويقع تحت تلة القلعة نحو الجنوب بناء تذكاري قديم وجليل. مساحته ستة ياردات مربعة وتنفتح فيه من الأعلى ست نوافذ؛ وهو مغطى بقبة هرميّة. وفي كل زاوية من الدّاخل يوجد عمود من الطراز الكورنثي ذو حجر واحد؛ وتوجد ساكفة architrave رائعة على الطّنف الدّائر تحت القبة تماماً، وكان له رؤوس ثيران منحوتة عليه؛ وينتهي في الأعلى بتاج عمود كبير من الطراز الكورنثي؛ وقرب ذلك توجد عدة مذابح ضريحية، وواحد منها فقط له كتابة مقروءة.

الجمعة 28 أبريل: غادرنا قورس، وعلى بُعد حوالي نصف ميل خارج المدينة جنوباً شرقاً نزلنا عبر طريق محفورة بصورة مائلة على جانب أحدور يقود إلى جسر ذي سبعة أقواس من البناء القديم جداً، وذلك فوق نهر سابون. وبعد حوالي ربع ميل وصلنا إلى جسر آخر ذي ثلاثة أقواس كبيرة جداً فوق نهر عفرين. وهذه الجسور قديمة جداً وهي مبنية بشكل حسن من الحجر المربع. وثلاثة أعمدة لها زاوية حادة على الجانب مقابل الجدول، ودعامة مستديرة على الجانب الآخر، وعلى الجانبين كليهما توجد فجوات للتماثيل. وهي مبلّطة بشكل حسن في الأعلى بأحجار كبيرة، وهي بدون شك، بالإضافة إلى تلك التي في الجانب الآخر من المدينة، من عمل ثيودوريت Theodoret الفاضل الجليل.

ومن هذا الجسر وفي خلال ثلاث ساعات وباتجاه جنوبي أو جنوبي شرقي، أو

(1) تعرف اليوم باسم: قلعة النبي هوري.

جنوبي شرقي نحو الجنوب؛ وصلنا إلى جان بولاد Jan-Bolads. ومن جان بولاد إلى كِلِّس Chillis ساعة وثلثي السّاعة باتجاه الشّمال أو الشّمال الشّرقي. وكِلِّس مدينة مسكونة كبيرة وفيها خمسة عشر مسجداً يمكن عدّها من خارج المدينة، وفيها أسواق كبيرة. وتوجد هنا ميداليات كثيرة تبدو مجادلتها بأنها قديمة، ولكن تحت أي اسم لست أدري.

تقع حلب من جان بولاد جنوباً وشرقاً. وسوق الكبير Seck Berukel جنوباً غرباً. وعلى بُعد ساعة من جان بولاد تقع اعزاز Azass. وأقمنا في السّهل على بعد ساعتين، وهو عريض جداً بين كِلِّس واعزاز وهو مثمر أيضاً. وينسب هذا الرّيف دائماً لـ «الوالدة» Validea أو أم السّلطان Grand-Signior.

السبت 29 **أبريل**: وصلنا ببركة الله سالمين إلى حلب بعد أن سافرنا حوالي خمس ساعات باتجاه جنوبي وشرقي.

المجد لله

* * *

حول وادي الملح

الذي يبعد حوالي أربع ساعات عن حلب

امتداد هذا الوادي حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات؛ واستغرقنا حوالي ثلاثة أرباع السّاعة لاجتياز زاوية واحدة منه. وهو ذو مستوىً مضبوط، ويبدو عن بُعد كبحيرة ماء. ويوجد نوع من القشرة الجافة من الملح في جميع أنحاء وجهه؛ يعطي صوتاً عندما تمشي الخيول عليه كصوت الثّلج المتجمد عندما يتمّ المشي عليه. وتوجد ثلاثة أو أربعة نهيرات صغيرة تصبّ في هذا المكان وتغسله في جميع أنحائه، وذلك حوالي الخريف، أو عندما تهطل الأمطار.

ويجفّ الماء بحرارة الصّيف، وعندما تكون الشّمس قد سفعت الأرض، فتتبقى طبقة الملح السّابق ذكرها؛ فيجمعونها ويفصلونها إلى عدة أكوام وذلك حسب درجات جودتها؛ بعضها أبيض بغاية النّقاء، والبعض الآخر مخلوط بالأوساخ.

وهو ناعم في بعض الأماكن بحيث أن حوافر خيولنا تعلق بعمق؛ ووجدت هناك في قسم واحد غضاراً ناعماً بُنياً. وفي قسم آخر وجدت غضاراً أسود جداً حيث كان بالنسبة للذوق مالحاً جداً بالرّغم من كونه عميقاً في الأرض. وعلى طول جانب الواديين أي نحو الجبّول Gibul، يوجد أُحدور صغير حوالي طول رجلين، تسبب بالاستخراج المستمر للملح؛ وفي هذا الأحدور يمكنك رؤية كيف تمتدّ عروق الملح. كسرتُ قطعة منه، من ذلك الجزء الذي كان معرضاً للمطر والشّمس والهواء، وبالرّغم من أنه كان له لمعان الملح وذراته، فقد تلاشى مذاقه تماماً، كما هو مذكور في الأصحاح

الخامس من إنجيل القديس متى. واحتفظ القسم الدّاخلي الذي كان ملتصقاً بالصّخر بمذاقه، كما وجدتُ بالبرهان.

ووجدنا في عدة أماكن من الوادي بأن طبقة الملح الرّقيقة على السّطح قد نتأت، كما لو أن حشرة ما تعمل تحتها قد رفعتها؛ وبإزالتنا لذلك الجزء وجدنا تحته رسوبات من الملح الصّافي قد ظهرت حسب مظهرها المناسب.

وفي القرية المجاورة الجبّول Gibul يُحتفظ بمخازن الملح حيث تجد جبالاً (كما يمكنني أن أقول) من هذا المعدن جاهزة للبيع. ويُؤجَّر الوادي من قِبل السّنيور الكبير (السّلطان) بمبلغ 1200 دولار في السّنة.

* * *

المحتويات

* * *